أبيض و أسود

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م
ردمك 978-9947-79-359-6 : (ISBN)

اسم العمل: أبيض و أسود
اسم المؤلف: باجي فطيمة
تصميم الغلاف: زكرياء رقاب
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 75 65 85 033 / 50 28 76 0666

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

المثقف
للنشر والتوزيع

أبيض و أسود

رواية

باجي فطيمة

إهداء

إلى أمّي ، لأنّها تؤمن بالعالم الثّالثٍ الذي يسكنني رغم أنّها لا تراه و لا تفهمه..

إلى تلك الشّعلة الشّفافة المعجزة التي أفرغها الله في أرواح أصدقائنا..

و أبدا..إلى " أنـــا"

ملاحظة مهمّة :

أنت هنا لتعيش النّهايةَ .

مقدمة المؤلّف

" تيـك تـاك ..تيـك تـاك .. تيـك تـاك ...تـك.. تـك.. تـك " جميعنـا وعنـد سـماع هـذا الصّـوت نؤوّلـه بدقّـات عقـارب السّـاعة ، وإذا اعتقدتـم هـذا أيضـا فأنتـم مخطـؤون ...لأنّ هـذا الصـوت بالضّبـط هـو رجـع صـدى قطـرات قلـب ينـزف!! "

و هـي قصّـة - طبعـا – قـد تسـألون عـن زمكانهـا، أحداثهـا و شـخصياتها ، و أجيبكـم أنـا : " إنّهـا ....النّـــــــهاية "

تنتهـي بعـض القصـص بمكالمـة هاتفيّـة ، رسـالة قصـيرة SMS، نافـذة دردشـة عـبرskype..WhatsApp .. Viber.. Facebook..أوفرهـا حظًّـا بقليـل تنتهـي بلقـاء حقيقـي ،رومانسي..مأسـاوي..أو حتـى قتـالي " لمـا لا !!" ، و أمّـا الأوفـر حظًّـا بكثـير فتلـك التّـي تنتهـي بأرحـم قـوة عـلى وجـه الأرض..الموت..فـأن يضاجـع حبيبـك الـتّرا أهـون ألـف مـرّة مـن أن يضاجـع بنـي الـتّراب!! لأنّ رحيلـه عـلى قيـد الحيـاة سـيخلّف عـلى جسـدك ملايـير النّـدوب برمـوز الاسـتفهام و التّعجـب التـي سـتلاحقك - قطعـا - حتـى ...المـوت !!

المهـم ..أنّ هـذه القصّـة أيضـا انتهـت ككلّ قصّـة عـلى عكـس مـا كان متوقّعـا لهـا منـذ البدايـة ، لذلـك ...لا تبحـث عـن البدايـة فهـي بدايتـك تمامـا .

و كـن متأكّـدا.." أنّـك هنـا لتعيـش النّهايـة ، التـي ..قد عشـتها ..يمكـن أن يقدّر لـك عيشـها ...و يمكـن لـك بألـف طريقة ذكيّـة – إن شـاء القـدر – أن تتجنّبها.. آه ...هـا قـد جـاءت بطلـة قصّتـي ، و مـن هنـاك تمامـا ،" بدايـة النّهايـة " تسـمعونها!! و أنـا الأخـرى أسـمعها " تيـك تـاك ..تيـك تـاك ..تيـك تـاك ...تـك

..تـك.. تـك " لا أعلـم أيـن كانـت!! و مـا الـذي حـدث معهـا حتـى وصلـت إلى هنـا !! وفي نفـس الوقـت أذكّـر نفـسي بـأنّ المقدّمـة لا يجـب أن تكـون طويلـة جـدّا .. و تلخّـص كلّ المحتـوى ..لذلـك لـن أطيـل ..

" تيـك تـاك ..تيـك تـاك ..تيـك تـاك ...تـك ..تـك.. تـك " ، خطـوات متثاقلـة مترنّحـة ، جـوف فـارغ مضطـرب ، احتقـان شـديد عنـد الحلـق ، مـادة سـاخنة مالحـة تـذوب عـلى حـدود الخد...بفففـ ، وصـف سـاذج ، أشـعر بذلـك قـارئي العزيـز ، لأنّ لا مخلـوق في العـالم سـيتجرأ عـلى أن يسـأل جريحـا أن يصف آلام جروحـه ، فببسـاطة ، لـن يقـدر إلّا عـلى التّـأوّه عاليًـا بـــ (آآآآآآآه آآآآآآه)، بينـما أنـت كسـامع وأنـا ككاتـب سـأكتب كالأبلـه (و تـأوّه الجريـح " آآآآآه آآآآآآه ") ، لكـنّ بطلتـي لا تتـأوّه!! و هـذا ليـس بعيـدا عنهـا ، أنفاسـها... أنفاسـها يـا ربّ الفـراق ، أشـعر بهـا تنـزل مـن القلـم زفـرة ، زفـرة ، ممزّقـة ، متقطّعـة و حـرّى ...و لكأنّنـي أخـشى عـلى الأوراق منهـا حرقهـا.

ليخـتر كلّ منكـم المـكان ، والزّمـان أيضـا ، ليخـتر نـوع المكالمـة ، ليخـتر نـوع اللّقـاء و حتـى طريقـة المـوت ، ودعـوني أحدّثكـم عـن الكيـف..

اليوم الأوّل :

- هاي ، ما بك تبدين مضطربة !!! (لا يهمُّ من السّائل)
- ... (إيمـاءة بـلاشيء مـن خـلال تحريـك الـرّأس مـن اليمـين إلى الشّـمال أو العكـس كافيـة ...فالنّطـق أحيانـا يكلّـف جهـدا ..و ربّمـا دمعـا) تدخـل غرفتهـا حيـث تختفـي الأشـكال ، الأشـياء ،الأشـخاص ،الألـوان ...إلّا الأسـود إذا كان بإمكاننـا اعتبـاره لونا..وتسـبح ..تسـبح في الـلّاشيء ..

اليوم التّالي :

هـل نامـت ! ربمـا نعـم ، وقطعـا لاااا ... " هـل نمـتْ ؟ أهـذا يـوم جديـد؟ يتدفّـق الأمـس مـرّة واحـدة في اليـوم ، و تعـاود الارتمـاء عـلى السّـواد وتتوحّـد معـه إلى اللّاحـدود بكثـير مـن الدّمـع ..

- ألن تذهبي للجامعة اليوم ؟
- لا !
- ألن تأكلي شيئا ؟
- لا !
- ردّي على الهاتف على الأقل ؟
- لا !
- ألن تخرجي من غرفتك ..لم تخرجي طيلة اليوم ؟
- لا !

اليوم الثّالث :

....لا جديد ...نفس الأسئلة و غيرها كثير ، والإجابة واحدة " لا "

اليوم الرّابع : ...لا جديد .

اليوم الخامس : ...لا جديد.

اليوم السّادس من الأسبوع الرّابع :

- " ألـن تخبريـني مـا بـك؟ ..أنـت عـلى هـذه الحـال منـذ شـهر، حـرام مـا تفعلينـه بنفسـك ، أيّـا كان مـا حصـل ، الحيـاة لا تنتـه بانتهاء جـزء منها !!" أووووه !! هـذا رائـع ، لا أعلـم مـن المتحـدّث لكنّـه عـلى الأغلـب واحـد ممّـن يهمّهـم أمـر أن تكـون بطلتـي بخـير ، وهـذا وحـده كفيـل بـأن تقـوم بطلتـي مـن عـلى ...السّـواد ...لتمـشي عـلى السّـواد ،وتتنـاول السّـواد ،و تتأمّـل

السّـواد، و تتجسّـد في السّـواد ...

اليوم السّابع من الأسبوع الرّابع:

تخرج من غرفتها ، تتجّه نحو روتينها الجديد ..

- هاااي ..اشتقنا لك ...أين غبت!!
- ...
- منذ مدّة لم تفتحي حسابك على الفايسبوك ، عساه خير ؟
- ....
- اتّصلتُ بك كثيرا على الهاتف ، لماذا كان مقفلا !؟
- ....

و فجـأة ... يتقمّـص الغائـب الشـجرة و الحجـرة و كلّ ذكـور الكـرّة الأرضيـة ، صفاتهـم، حركاتهـم ، ابتسـامتهم .. و حتـى إيماءاتهـم ودقيـق تفاصيلهـم ، يسـتوطن كلّ الأمكنـة و يسـتغرق كلّ الأزمنـة، ويحـلّ في كلّ الأشـخاص و يمثّـل أدوار جميـع الأحـداث ، فيكـون البيـاض الوحيـد داخـل ذلـك السّـواد القاتـم و يثـير مـع ذلـك ألمـا لذيـذا و مريعـا في الآن نفسـه... فقـط ...لأنّـه (هـو)

اليوم الأوّل من الشّهر الثّاني:

... هـه ، مثـير للسّـخرية أن نجـد أنفسـنا وسـط دائـرة نعـود مـن حيـث بدأنـا ..معتقديـن في قراراتنـا أنّ الغـد سـيمنحنا مـا حرمنـا منـه الأمـس ...كلّا ، وحتى وإن حـدث هـذا في باقـي القصـص ، فهـو لم يحـدث في قصّتـي ومـع بطلتـي.. انتهـت المقدمـة قـارئي العزيـز ، أؤكّـد لـك أنّ مـا يحملـه المحتـوى لـن يتعـدّى تفاصيـل هـذا الشـهر ...ممّـلا ...كئيبـا ...أسـودا ...وأنّنـا سـننطلق مـن هنـا ..وسـنعود إلى..هنـا !

****

"بعد تسع عشرة سنة بزمن ما لا يقدر من الخيبات..."

أدرت ظهري لكلّ تلك الأحداث و الأحاديث الممزّقة التي تدور بين كبار أفراد عائلتي و منحت وجهي للسّماء وأنا أخاطب الله بما لا يفهمه غيره : "يا الله! كم صعب هذا القدر الذي أعيشه ! كيف يا ربّ بترتني آن إزهاري ! أمتأكّد يا الله أنّني سأقوى على إكمال حياتي بهذه الرّوح المبتورة !؟ و هل حقا يتّسع قلبي الفرخ لكلّ هذا الألم ! يا ربّ، أنّى هدوءك وسكينتك ! ،لمَ لم تحمل أرواحنا مثل تلك الطمأنينة و السّكينة ، أو ليست هي نفخا من روحك الطاهرة ! "

كانت أصواتهم تعلوا مع حدّة النّقاش ، بعضهم يجزم أنّ سفري سيكون أحسن حلّ في الوقت الرّاهن والآخر يؤكّد أنّ هذا سيؤثّر سلبا على نفسيّتي لأنّني في أمسّ الحاجة إليهم...و خاصة الآن !

" أمّي.. أرأيت! لا أحد يسأل عن رأيي و رغبتي أو يتركني أقرّر مصيري بنفسي و كأنّ الموضوع لا يخصّني بتاتا ،كيف كان لروحك أن تمتلئ نورا رغم ثخانة الجراح .حتى نجمتك الهاربة أراها ذي تتمدّد في ثقبها فيزداد اتساعا وتوهّجا .

أريد أن أصرخ يا أمّي ، أن أغسلك بملح عيوني وأدثّرك بدفء فؤادي إلى مثواك الأخير لكنّ جدّي قال أنّ بكاء الأحياء يضاعف عذاب الموتى وأنا لا أريد أن أصليك فوق العذاب الذي عانيته حيّة ، عضلات الفؤاد تعتصر الرّوح ، تراود حلقي على الصّراخ و الضجيج ، لإسكات صخب الأصوات التي تلج غصبا أذني فتذكّرني أنّني بتُّ بلا أجنحة و أنّني لن

أطـير أبـدا وأنّ هـذا الرّغـب المنتـوف لـن يمنحنـي مطلقـا ...بدايـة جديـدة ! هـدأت الفـوضى أخـيرا ... بعـد وقـت قصـير سـمعت عائشـة وهـي تخبرهـم همسـا أنّنـي عـلى حالتـي منـذ البارحـة ولم أتحـرّك مـن أمـام النّافـذة ، أضافت أنّنـي لم أتنـاول شـيئا منـذ وفـاة أمّـي و أنّ مناقشـة موضـوع كهـذا معـي لـن يكـون بالـرّأي السّـديد في الوقـت الرّاهـن .حـرت شـعورا ، اصطـدم الحـزن في صـدري بنوبـة عارمـة مـن الضّحـك ، حثثـت الخطـى نحـو صالـة الجلـوس ،كـما الأشـباح كنـت أراهـم ،يتماهـون وسـط هـالات مـن الضّبـاب ،للحظـة وجدتنـي أبحـث عـن هيـكل أمّـي بينهـم و عـن ابتسـامتها عـلى ثغورهـم .

سـاد صمـت رهيـب إذ رأوني ولا أحـد تجـرّأ عـلى الـكلام إلا جـدّي محمّـد الـذي قـام عـلى عجـز جسـده التّسـعيني وأجلسـني بجانبـه ،بـدوا لي غربـاء وكأنّنـي لم أعرفهـم يومـا ولم أنبـت بـين أحضانهـم لتسـع عـشرة سـنة ،وكأنّ أمّـي وحدهـا مـن كانـت حلقـة الوصـل التـي تربطهـم بذاكـرتي.

- بنيّتي ...هل أحضر لك طعاما ؟

قالـت عائشـة و ملامحهـا منطفئـة ، بـاردة ، أو كذلـك هُيّـئ لي . جـدّتي هـي أخـرى كـرّرت خلفهـا نفـس السّـؤال. وحدهـا و جـدّي مـن بـدا عليهـما الحـزن عـلى أمّـي ،كانـت عيناهـا الواسـعتان شـديدتيْ الحمـرة لفـرط مـا ذرفتـا مـن الدّمـع ،كـما أنّ صوتهـا الملائـكي الشّـبيه بصـوت أمّـي كان مذبوحـا و مخنوقا... أومـأت بـرأسي أنّنـي لا أبغـي تنـاول أيّ شيء ثـمّ اسـتدرت أكلّم أبي ،شـعرت به و قـد انتفـض لمّـا التقـت نظراتنـا... عـلى غـير العـادة بـدت عينـاه مضطربتـان و بؤبهـما يترنّـح بـلا هـوادة ..

- احجز لي... سأسافر في أقرب وقت ممكن !

استغرب الجميع رأيي.. كان جدّي سينطق لكنّه ازدرد حروفه على مضض عندما قاطعه صوت أبي الرّاقص من الفرح ،تكلّم كثيرا وثرثر عن أهمية هذه الرّحلة على مستقبلي و أثرها على حياتي ،عن الشّخصية التي سأكتسبها من وراء الدّراسة في فرنسا وعن الكثير الذي كنت لن أحمّله عناء هدر وقته فيه لو كان لي طاقة ، و لأنّني لم أكن بحاجة للحديث أو السّماع أكثر قمت من مكاني وقد شعرت بيد جدّي الثّقيلة تسقط من على ظهري باردة...عند الباب خاطبت أبي ودون أن أستدير ، أنّ كلّ ما أريده قبل أن أسافر هو زيارة قبر أمّي...

بعد يومين رافقني الجميع إلى المطار لإقامة طقوس توديعي حتى عمر جارنا و زميلي في الثّانوية . قبل أن تقلع الطائرة دنا أبي منّي ،كنت في غنى عن تلك الابتسامة العريضة على وجهه إلا أنّ الصندوق الذي بيده لفت انتباهي .

- نجمة !! بهذا الصندوق بعض أغراض أمّك ، أوصت بها من أجلك.

كنت سأسأله إذا ما كانت أمّي قد علمت مسبقا آن وفاتها المبكّرة ، إذا كان ما بالدّاخل فؤادها الذي انسلخ عن فؤادي قبل أن أكتمل ، إذا كان ما بالدّاخل خارطتي إلى مكانها، أو إحدى مخطوطات جروحها، أو تلك العناكب التي كانت تسكنها ، كنت سأسأله الكثير من هذه الأسئلة و غيرها لكنّني فضّلت ضمّ الصندوق إلى صدري .. بصمت !!

لمحت ريبة وخوفا غير معهودين في عيني عائشة و هي تحدّق في الصّندوق ، كأنّها لم تعلم بوجوده إلا اللّحظة . عندما ضمّني أبي إليه اتّقد إحساس ما بصدري و أحسست باحتقان رهيب في حنجرتي ما لبث

يصعّـد إلى عينـي...و غيظـا كظمتـه!

- قمـت بـكلّ التّحضـيرات مـن أجلـك هنـاك ..لا تخـشي شـيئا سـنبقى عـلى تواصـل دائـم..

ودّعتهـم الواحـد بعـد الآخـر ، جـدّي وجـدتي ، عائشـة ، عمـر..و جـدّي محمّـد .

بكـت جـدتي كثـيرا و هـي تضمّنـي وتستنشـق رائحـة شـعري. كان واضحـا أنّهـا لا تنعـى رحيـلي بقـدر مـا كانـت تبـكي مـا تجـد فيَّ مـن ريـح ابنتهـا وتقاسـيم وجههـا الّتـي سـوف تختفـي بسـفري .

مشـيت نحـو كشـك المسـافرين ،سـلّمتهم جـواز سـفري ،تمنـوا لي رحلة سـعيدة ممتعـة و في صـدري إيمـان جـازم أنّهـا لـن تكـون ،سرت نحـو ممـرّ الحقائـب ، منحتهـم الحقيبـة الثّقيلـة التـي لا أدري مـا الـذي كـدّس بداخلهـا .طلـب رجـل الأمـن تفتيـش الصّنـدوق الّـذي كان ملتصقـا بجـدار روحـي و بعـد تـردّد شـديد أعطيتـه إيّـاه ، تفقّـد مـا بداخلـه ،كنـت سـأصيح بـه أن كيـف تطَّلِـع عـلى تركـة أمّـي قبـلي، لكـنّ الكلـمات لم تجـد إلى خـروج مـن حلقـي سـبيلا .

بقـي الصّنـدوق معـي في الطائرة ،انفجرت عينـاي بالدّموع و أنا أتّأمله،شـعرت بوحـدة رهيبـة وبـتر أكـبر ،كلّ الوجـوه هنـا لا أعرفهـا ،كذلـك الوجـوه التـي تنتظـرني هنـاك، حتـى رائحـة الوطـن التـي مـا تـزال عالقـة بأنفـي سـتختفي بعـد أقـلّ مـن سـاعة . أكـبرت في عيـون أبي لدرجـة أن يبعـدني عـن المنـزل بعـد أسـبوعين مـن وفـاة أمّـي. يومهـا كرهـت أبي وكثـيرا ،كرهـت قسـوته ، كرهـت منـه حرمـاني مـن ذكريـات أمّـي المعلّقـة عـلى جـدران المنـزل، كرهـت صمـت أجـدادي الثّلاثـة و قبولهـم و لـو عـلى مضـض قـرار سـفري .

و في خضـمّ هـذه اللّحظـة و بتناقضاتهـا ،وحدهـا جملـة أمّـي مـا كان دليـلي " لا تؤمنـي بالصّـدف فهـي كذلـك أقـدار تـأتي في زمـن يبـدو لنـا مباغتـا لكـنّ الزمـن سيكشـف حكمـة اللـه منهـا "

لم يلجمنـي الفضـول انتظـار موعـد نـزول الطائـرة لمعرفـة مـا بداخـل الصّندوق و في أعماقـي شـعور يخـبرني أنّ أمّـي لم تمـت بعـد و أنّ روحهـا مـا تـزال تسـكن الهـواء مـن حـولي ، تدثّـرني بـدفء صدرهـا و عبـير روحهـا... و تأكّـدت مـن ذلـك عندمـا فتحـت الصنـدوق فشـعرت كأنّمـا انبعـث منـه نـور معـمٍ للأبصـار..و بعدمـا قلّبـت مـا بداخلـه فغـرت فمـي اسـتغرابا ودهشـة ...

" تنفس أيّها السّواد بعمق.. فأنت تجعل البياض أكثر نصاعة ووضوحا "

عندما تكون القصص التي عشناها كاملة ، لن يكون مهمّا آنئذ الجزء الذي نبدأ منه سرد أحداثها، فسواء أبدأنا من النّهاية أم الوسط فإنّ الأمر سيان ،لكنّ أعوص مشكلاتنا تكون مع قصصنا المبتورة ، تلك التي عشنا أجزاءها كاملة فيما بقيت في مضمونها العام ...ناقصة !!

عندما يهمّ أحدنا برواية قصّته أيّا كانت أحداثها ، سيتحمّس لرواية أجمل ما حدث فيها ، بينما يتساءل كلّ من يسمعها عن بدايتها و نهايتها...حينها و لما نحير جوابا ، ندرك أنّ قصّصنا لم تكن كاملة بل مشاعرنا ما كانت ، أحزاننا ما كانت ، و حيرتنا ما كانت ..

وليس يخطر على بال أحد أن هذا مؤسف أو محزن.. فعلى العكس منه تماما المؤسف والمحزن أن نعيش القصص التي طالما بدت لنا كاملة...بنقص !!

****

مستشفى العاصمة في : 26/11/2017

آخر ما كتبته أحلام .

قطعا ...لا أدري كيف بدأت قصّتي من العتمة ...

حتما ... كان يجب أن تبدأ ...

لكن ...هل ستنتهي !!

كلّ ما أذكره أنّ جرحي كان وما يزال عميقا و غائرا جدّا ، و أنّ الألم فظيع، فظيع و لا يحتمل .. و تلك الذّبابة في رأسي أصبحت تطنّ أكثر من ذي قبل ..كان لطم رأسي بالجدار كفيلا بجعلها تهدأ في وقت مضى ، لكن ...يبدو أنّها تعوّدت على ذلك . تستفزني بطريقة عجيبة ، تلعب بذاكرتي فتغيّر الصّور كما يحلو لها ، لا أدري لماذا أوحى لي خاطري بأكل التّراب المبلول ...ظنا منّي أنّها ستلتصق به ، لكنّني سرعان ما أدركت بتنبيه من ابن جارنا _ طبعا _ أنّ هناك ما هو أشدُّ فعالية لقتل الحشرات ، وهو ذلك اللّاصق الذي يستخدم لقتل الفئران ، و مؤكد جرّبته فأشعرني بنشوة مذهلة !! في البداية أحسست أنّ ذلك الطّنين خفّ ثمّ توقّف لكنّه عاد بعد ثوان .

كما أوحت لي قبل قليل أن ألبس عباءة جدّي السّوداء و أرقص بها على الشّارع العام ، ضجيج المارّة المستغرب في عيني أربكني و ضحكاتهم وصلت إلى مسامعها بحيث جعلت ترقص أكثر وترغمني على مجاراتها في ذلك . مرّة ، و بعد مشاهدة أحد الأفلام خطرت على بالي فكرة طبقتها دون أدنى

تفكير، أدخلت الصّنبور المفتوح في فمي وابتلعت غصبا كميّات لا بأس بها من الماء ،كما الغبيّة ظننتها ستطفو ثمّ تخرج من إحدى فتحات أعضائي لكنّ ذلك زادها نشاطا...

صباح اليوم و بينما هي تطنُّ جلست أقرأ كتابا عن الحشرات ، ما جعلها تغضب و تحوك دماغي و تخرب فيه و هي تلفُّ خيوطه بسرعة ماكينات الخياطة و الصّداع في رأسي يزيد بشكل رهيب . طبعا... تحدّيتها و رحت أقلّب الصّفحات الخاصّة بالذّباب لأصل إلى أكثر شيء يحبّه و يشتهيه...و أخيرا وجدته .. الدّماء .

قهقهت بقوّة كالمجنونة لأنّ موعد تخلّصي منها قد حان ولأنّني أخيرا سأعيش في هدوء لكنّها ما إن سمعت قهقهة نصري حتى راحت تفرد جناحيها في دماغي ، و لم أتمالك نفسي من الألم والصداع ما جعلني أستسلم لسكّين الموت وهو يغرز في أوصال قلبي ، خرّ جسدي على الأرض و مع ذلك لم تستسلم و ما زالت تقاوم وتغيّر الصّور في ذاكرتي ، يا لغبائي أدركت أنّها حنون بعد فوات الأوان فهاهي ذي الآن تبكي وتمرّر صور أحبابي بسرعة لتلذّ مقلتي بنظراتهم قبل أن أُغيَّبَ عن العالم ... الآن ، الفجوة في صدري تزداد اتّساعا و عمقا ، و العتمة في عيني تزداد انتشارا ، وطنين الذّبابة يزداد بعدا ... عندها و في تلك التموّجات اللّولبية السّريعة أحسست بانسلاخ عجيب..جعلني أبتسم في آخر نفس ، لقد كان الأبيض ، نعم..الأبيض و هو ينسلخ عن العتمة !

****

رواية (برزخ الرّوح) لـــ: أحلام كامل .

الفصل الأوّل

" القسوة وليدة الفائض من الألم ! "

عندما نخسر كلّ شيء دفعة واحدة ، نفرّ إلى أعتم المناطق ظلمة بداخلنا و نتكوّر على أنفسنا كالأجنّة ناقمين على كلّ الأشياء من حولنا حتى على الضوء الذي يتسلّل عنوة نوافذ أعيننا . قد ننقم على أنفسنا ،على غيرنا، و قد يطال النّقم من ضعاف القلب.. الله !!

- ما كان عليك أن تنامي على وقع نزيف أنفاسك، لولا انتظرت حتى خفّ النّزيف قليلا، ثمّ هل نزفت الكميّة التي أريدها تعلمين أنّه عليك نزفها جميعا لتصبحي أقوى وأقسى .

- نعم .. أضعافا مضاعفة ..لا تخشي من هذا ..رغبتي في التّحول أعظم من رغبة جهنم في التهام الكفار وجراحي أعمق مما تتصوّرين بكثير...

- هذا جيّد... هكذا أضمن بقاءك معي على الأقل ، لقد اعتدت رائحة نزيف حزنك ..إنّها مختلفة !!

- كأنّك ثرثارة...

قاطعها ذلك الصوت المتكدّس على أبواب الخيبة و لفرط ما تقطّع عند تموّجه قبل أن يصل إلى أذنيها و ما أدماه طول السّفر على أقدام الزّمن ، زلزل الهواء و رجّ الأرض رجًّا ..

نظرت إليها نظرة زائغة ببؤبؤها الشّمسي المنطفئ ،كانت تتآكل كلّ يوم

أكـثر ، خـار جسـمها و بـرزت عظامهـا مـن شـدّة النّحـول والمـرض ، تعفّنـت كليًّـا و بـدأت رائحـة الزَّمـن المختمـر عـلى محيّاهـا تنبعـث كريهـة و مقـزّزة .

جعلـت تقـوم فلـم تسـتطع ! وقعـت في مكانهـا وقـد عاودها السّـعال الدامي مـرّة أخـرى ، حاولـت مـرّة و ثالثـة لكنّهـا لم توفّـق فـردّدت أحرفـا يخـرج بعضهـا ويـزدرد الآخـر ممزوجـة بالأنـين و السّـعال..متى أسـتطيع الطـيران إلى عالمـي مجـدّدا..

انتشـلها صوتهـا المخنـوق مـن لـذة صمـت تأمّلهـا، و قالـت وهـي تشـتهي ألمهـا بشـدّة فكلّـما زاد ألمهـا زادت رغبـة الـشرّ و الحنـق عـلى هـذا العـالم حـدّة في داخلهـا .

- "قريبا... قريبا جدا "قالت وهي تبتسم في مكر وخبث.

عـلا صوتهـا بالـصراخ أكـثر وهـي تلتهـم ابتسـامتها تلـك مـن عـلى الهـواء بفظاعـة "لـك أكـثر مـن ميـلاد الزّمـن وأنـت تقولـين قريبـا .. متـى يكـون هـذا القريـب ؟"

- لا تجعـلي الوقـت مقياسـا.. تعلمـين أنّنـا لا نعمـل بـه هنـا و ألفاظـه فقـط مـا نسـتخدم ،كـما أنّ هـذا ليـس مـن أولويـاتي، فأنـت وحـدك مـن يمكنـك إعطـاء نفسـك حـقّ التّحليـق مـن غـير أن يـراك بنـو جنسـك .أنـت فقـط، أفهمـت حبيبتـي !! ثـمّ لم العجلـة فقـد ضمـرت أطرافـك بسرعـة لم نكـن نتوقعهـا.. فليكـن صـبرك جميـلا..

تململـت "حسـنا ابتعـدي عنـي " ذلـك أنّهـا كانـت قـد اقتربـت منهـا وبـين هـي تهدئهـا اشـتهت عطـر نهايتهـا المحتملـة ..

- "القليل فقط من دمائك.. فقط القليل "

- قلت لك ابتعدي عني ، السّاعة أنا مشتاقة لطيفه و أريد رؤيته ولا أريد..اتّصلي بها لتدعني أراه.

- تعلمين أن ذاكرتك قاسية وشريرة و هي مطلقا لا تريدك أن تكوني معه بسهولة ،عليك أن تفهميها ما تريدين بالضّبط ... التّعايش مع الماضي بنفس الألم أو النّسيان و الإبحار عبر المستقبل فلن يجتمع الخيارين معا !!

بنصف قهقهة خرساء جعلت لون المكان أسود فاحما ولم تبدُ إلا أعماقها الرّهيبة و هي تصدح بالتّلاشي والابتسامات تسارع للاختفاء بين أجنحة الظاهر و صدى جملة يتكرّر و يبتعد " و تذكّري أنّ لكلّ رغبة ضريبة" الفراغ المتجذّر فيها يوتّرها ويربك دواخلها،لم تتوقّع أن تستفرغ ذلك الحبّ سوادا دفعة واحدة ، رغبة عارمة في داخلها تحزّها على حرق كلّ ما حولها من الذّكريات لكنّ الحبّ الذي في داخلها عميق جدّا ، لقد وعدت نفسها أن تحبّه حتى آخر نفس يدخل صدرها..لكنّهما افترقا..و اختفت من زاوية نظرها بل وغادرت محطّة ذاكرتها كلّ التّفاصيل الجميلة ...لم يبق إلا رغبات جامحة في الموت مهما كانت الطريقة !!

****

" فراغ الرّوح علامة الفراق..فالفراغ شوق وحنين !! "

كثيرا ما كانت تتفقدها لتختبرها و تتأكّد إذا ما بدأت تشمُّ رائحة اللّاشيء ، تستنشق اللّاهواء ، إذا ما اعتزلت العالم و هي تعيش فيه ، إذا ما غاصت أعمق في ذلك الجانب المعتم منها ، إذا زادت كراهيتها لقصص الحبّ التّافهة ..وإذا نمت بداخلها غريزة الكراهية والحقد و.. الانتقام !!

- أين رحلت ؟ كيف تتركينني بمفردي ، تعلمين أنّ فراغ الرّوح الذي أعاني منه يربكني فلا تزيدينني فراغ المكان ..

ضحكت في سرّها ثمّ تسربلت في الهواء من مكانها، لتصير عند وجهها مباشرة، همهمت بينا هي تشتمها بطريقة مقزّزة..

- أرأيت حتى أنت بدأت تأنسين بي وترتاحين لوجودي ، رحيلي لم يكن إلا اختبار لك وكانت النّتيجة حسب توقّعاتي ..

حتى هي لم تعد تحسُّ نفسها كيانا دافئا كما كانت ، كيف يتزاوج الرّحيل بالبقاء ويموت كلّ شيء ، كيف يفتك السّراب بالحقيقة في عناق مميت ، بل كيف بقي ما رحل وقد رحل . العتمة في داخلها لأوّل مرّة لا تؤلمها ، عظيم هو الشّعور باللاشيء ، مريح ولذيذ أن لا تكون وأن تتلاشى حيث لا يوجد أيّ شيء .

- آن الأوان لأخذك في جولة.

ضحكة الألم التي ضحكتها سببت لها خيبة شديدة ، لقد بدأ صوتها يضمحل كما لم يعد لبعض الحروف المهموسة مخارج على جهازها الصوتي ، أيُّ جولة يمكن أن تقوم بها وإلى أين ستكون الوجهة المفقودة.. عمّ السّواد اللامكان و في طرفة عين خلا من العدمية .

تجويفات سوداء متفحّمة ، شلالات قيح يتدفّق غزيرا ، رائحة كريهة مقززة وزمهرير يتصاعد من على أرضية تقدح شررا والأشباح تترنّح يمنة ويسرة وتختفي بين الجدران لتظهر أخرى على هيئات مختلفة، بعضها كأنّه يتلوّى من الألم وبعضها الآخر يخمش وجهه بأظافره و يعضُّ على أصابعه بأسنانه ، وذاك يلطم الجدار بكفيه صارخا وأمّا بعضها فيسيل من عينيه سواد كأنّه حمأ ممتزج بمخاط يملأ على كثرته الأرضية ، وآخر بعينين جاحظتين منتفختين مخيفتين ، يضرب برأسه السّور المتقيّح فينقسم إلى نصفين وقد ضرّج النّار فتزيد هيجانا.. ارتعش شيء في فراغها و حسيس المكان المخيف جعل يعصف فيها .

- ما هذا المكان!! أهذه هي الجولة التي أوهمتني بها.

- قلت جولة ...لم أقل ممتعة ، يكفي أنّك ثقيلة جدّا و بالكاد أستطيع حملك ، ثمّ تأمّلي جيّدا ..ألم تتعرّفي على تلك الأشباح ؟ عادت ببصرها لا إراديا إلى حيث الأشباح و دون أن تمعن النّظر دوّى صراخها و كأنّ بركانا انفجر في دماغها ، تلك العدمية امتلأت بفلاشات من الزّمن الأسود ، امتقع لونها و غار ذلك المتبّقي من النّور في عينيها وازداد وضعها سوءا واحتد النّزيف داخل شرايينها، أنزلتها وقد تحوّل جزء من نار الأرضية رمادا فجثت على ركبتيها وبقيت تنزف ، والأخرى تلفُّ وتدور حولها وتستمتع برائحة النّزيف وتستنشقه كأنّه نسيم الصباح . جاء صوتها منخنقا..

- تلك الأشباح تشبهني..

- بل هي أنت ..كلّها منك ، والمكان فؤادك ، أرأيت...إنّه يحترق

تسكنه الأشباح وتستبيح جوانبه ،إلى متى ستدوم هذه المعاناة ، لقد ذُبح لكثرة الطلامس التي تفكّرين بها، توهمين المسكين السّعادة بينما هو يستعر.

لوهلة شعرت بنشوة حقد كبيرة و لذيذة خاصّة و هي تسبح في الفراغ اللامتناهي من العدمية ، بماذا ستجيبها إن كانت لا تعرف ماذا يحدث لها ، ولماذا بالضّبط قلبها يحترق.. ويتمزّق !

- أريد العودة إلى وكرنا ..دعينا نرجع .

قالت و هي تلتصق بأعطافها في خوف طفولي بريء وما بقي من عينيها يتوهّج بالألم و قد اعتلتهما حمرة قانية وبرزت شراييهما وانتفخت..

- ليس بهذه السّرعة فمازال هناك الكثير الذي لم تريه بعد ، ستبقين هنا لوحدك كي تجيدي الاختيار في حياتك القادمة ...لكنّني سأزورك بين الفينة والأخرى لأسجّل التّطورات كما تعلمين..

- أنا لا أريد أن أرى شيئ،ولا أريد أن أتغيّر ، لنعد إلى وكرنا ، أرجوك لا تتركيني هنا، أرجوك... بالله أستحلفك ألا تفعلي .. وبالرّغم من الدّموع التي تكاثفت في محجريها إلى أنّها لم ترقَّ لتوسّلاتها وآهاتها وفي طرفة عين خلى المكان منها ..التفتت إلى حيث الأشباح على خوف و رعب ، ثمّ صرخت وهي تحجب نظرها عن المشهد بكفيها...

****

"حياتنا عبارة عن عالم نرحل منه وعالم نرحل إليه..وكذلك الموت عالم !!"

عـمّ الصمـت ولم تبـق سـوى قطـرات القيـح وهـي تنـزل القطـرة بعـد الأخـرى ، فتحـت عينيهـا ورفعـت رأسـها لتجـد الأشـباح السّـوداء المخيفـة و قـد تحلّقـت حولهـا وراحـت تنظـر إليهـا وهـي تحـرّك عنقهـا في اسـتغراب، كأنّهـا انتبهـت للشّـبه الموجـود بينهـا ، ابتسـمت لهـا في خـوف وقلبهـا يرتجـف في محاولـة لكسـب ودّهـا ، بادلتهـا الابتسـامة ، لكـنّ أحـد الأشـباح مـدّ ذراعـه وقـد أراد أن يلمسـها ليتحقّـق مـن الشّـبه ، كانـت سـتنفجر رعبـا لكنّهـا بقيـت جامـدة الأطـراف في محاولـة فاشـلة للتّماسـك .

اقتربـت يـده منهـا لكنّهـا لم تلجهـا مـا جعلـه يضـجّ غضبـا وهـو يومـئ لرفاقـه أنّهـا ليسـت مثلهـم فراحـوا يضجّـون ويجعجعـون بدورهـم مـا جعلهـا تصرخ وتسـتنجد بصـوت مرتفـع مكتـوم في بضـع حـروف مفهومـة وأخـرى مبهمـة ، وبينـما كادوا يقبضـون عليهـا طـارت إلى السّـطح وهـي تنظـر إلى نفسـها مندهشـة مـن مقدرتهـا عـلى الطيران...التصقـت بالسّـقف بينـما جسـدها ينـزف بشـدّة، تضرّجـت الأشـباح بالدّمـاء التـي سـالت عـلى القيـح فمازجتـه وكـما الـوادي نـزل عـلى النّـار التـي راحـت تضطـرم فتجعلـه يغـلي .عـمّ الدّخـان الأسـود المـكان والتصقـت هـي بجـداره بقـوّة و مـن حسـن حظّهـا أنّ تلـك الأشـباح لا تطـير ..

هناك في مكان آخر منها كانت سواد تكلّم أناها.

- تلـك العجـوز بداخلهـا مـا تـزال تـصرخ وتطالبهـا بإعـادة أيامهـا المسروقـة والزّمـن مـا يـزال يتجـوّل في غرفـات قلبهـا ببطـئ وهـو يرتشـف

نزيف الدّماء اللّذيذة ، لا أظنُّ أنّ روحها ستصير إلى الشرّ بالسّرعة التي نتخيّلها ، هناك أشياء تجذبها نحو الواقع غير أهلها و طيفه الذّي تحبسين .."

نظرت إليها ال" أنا" وهي تبارك ذكاءها وبعد ابتسامة قالت:

- " أدهشني ذكاؤك ..نعم هناك شيء ما يزال يجذبها للواقع لكنّها سرعان ما ستتخلى عنهم لأنّ رغبتها في التغيّر أكبر ،تعلمين من هم ؟ إنّهم النّاس الذين أحبتهم و لا يمكنها التّخلي عنهم... أظنّنا سنمرّ للخطوتين الأخيرتين في وقت سريع جدا ، هيا اذهبي إليها ."

عندما دخلت المكان تلألأت عيناها فرائحة الدّماء كانت قد هيّجت دواخلها نظرت إليها أعلى سقف روحها، وهي تبتسم ، بدورها افترّت شفتاها القرمزيتان - بمجرد رؤيتها- عن ابتسامة اطمئنان وأمان .

- لقد عدت ..عرفت أنّك لن تتركيني بمفردي، أرجوك.. تعالي واحمليني عن هنا، فأنا لم أعد أطيق الالتصاق بهذا الجدار أكثر ..

- هه ظننتني سأجدك في وكرنا !

- كيف كنت لأعود إلى وكرنا وأنا لا أعرف الطريق .

- انزلي عن هناك... هيا !

- هل أنت متأكّدة !!ستتهرّس عظامي إن فعلت، تعلمين أنّ جسدي قد أصابه الخور والضّعف ألا ترين البؤس الذي أعيشه ، هيا انقليني لوكرنا أرجوك ..أنا خائفة "

طارت إليها ،عظام يديها الملتصقة بالجدار كانت قد تآكلت لكنّها لم تنتبه لذلك، أصبح الكثير من أعضائها غير ظاهر إلا عضلات صدرها

حيث يوجد قلبها ، "المرحلة التّالية هي اختفاء عضلات القلب ، تليها عملية انتزاعه ، مرحلتان وتصبحين أحد أقوى الذوات البشريّة " . كرّرت في سرّها وهي تبتسم ثمّ وجّهت وجهها إليها وقالت وهي تتأمّل بؤبؤها الفارغ في عينيها " اسمعيني جيدا ، هنا في صدرك ما يزال قلبك ينبض بالبياض ، أقصد هذا القلب الفراغ الذي نحن فيه الآن ،أنت لن تخرجي من هنا حتى تبحثي عن أكثر شيء يجعل هذا المكان منيرا ، عندها فقط ستختفي بقية أعضائك ولن يبقى إلا هذا القلب الذي سنأخذه معنا إلى ال"أنا" كي تقوم بآخر عملية لتحويلك إلى شخصيّة مستطيعة، سيّئة ، حاقدة ! "

لم تفهم شيئا مما قالته لذلك بقيت تبحلق في عينيها مستفهمة ... ما جعلها تواصل قائلة " لا تدّعي عدم الفهم فأنت أذكى من هذا بكثير "

- لكنّني... حقًّا لم أفهم !!

- ابحثي عن أكثر شيء يعطيك الأمل ولو بمقدار فتيل شمعة في علاقتك، أكثر شيء كان يريح هذا القلب و يجعلك تشعرين بالرّاحة والسّكينة معه.. عندما تتخلّصين منه سيمكنك استرجاع ذكرياتك معه دون أمل أو ألم .

- لكنّني بالكاد أتذكّر شيئا ؟

- هذا هو بيت القصيد ، فهذا هو الشّيء الوحيد الذي لن تحتاجي لذاكرتك كي تدركيه ، هذا الشّيء ينبع من هنا من داخلك ..وعليك إدراكه !!

- هل هذا يعني أنّك ستتركينني مجدّدا هنا ..أرجوك خذيني

معـك، سـأفكر في ذلـك ونحـن هنـاك ..أرجـوك..
وكالعـادة اختفـت حتـى قبـل أن تبـدأ كلامهـا ...تـرى مـا هـو هـذا الـشّيء الـذي كان يشـعرني بالأمـل ..مـا هـو ! ؟

****

" في كون كالذي نعيشه يجب على القلب أن يحمل بعض الشّر!!"

كانـت قـد بـدأت تشـعر بالملـل وهـي تحـاول عـصر ذاكرتهـا لتعـرف مـا كان يملؤهـا سـكينة وطمأنينـة ، ذلـك النّـورس الـوردي مـا مـا يـزال عالقـا في صدرهـا لكنّهـا لم تنتبـه لـه و لم ينتبـه لـه أحـد، لم يـر أحـد أنّـه مـا يـزال ملتفـا داخـل صدرهـا المحـوق و سـيبقى كذلـك .
اهتـدت إلى إغـماض عينيهـا بعـد آهـة طويلـة عميقـة ،فجـأة رفـرف بهـا ذلـك النّـورس عاليـا، عاليـا جـدا، وهـو يشـقّ عـبر العتمـة أشـعة مـن النّـور المتوهّـج ، كانـت تحـسّ سرعـة نبضـات تلـك الكتلـة بـين جـدران صدرهـا ، وبقـدر سرعتـه تباطـأ جناحـا النّـورس ،تبعـثرت الخيبـة عـلى محياهـا وهـي تـرى أنّ النّـورس قـد أفـرد جناحيـه وراح يتهـاوى قليـلا، قليـلا .فتحـت فمهـا أقصـاه لتخـرج مـن دواخلهـا صرخـة مجلجلـة و لأوّل مـرّة لم تكـن هنـاك دمـوع لتخـرج فتطفـئ نـيران تلـك الأوجـاع .انبثـق النّور مـن دواخلهـا وارتفع صـوت صرختهـا أكـثر وأكـثر " يااااااااااااللـه.. أنـا أريـد أن أكـون وإيـاه..

يـا اللـه افعـل شـيئا .. لمـاذا عـليّ أن أتـألم هكـذا إن كان بإمكانـك تغيـير كلّ شيء بكلمـة !"

لكـن النّـورس مـا يـزال يتهـاوى والسّـواد يغـشى ذلـك النّـور المترامـي الأطراف وصوتهـا مـا يـزال يعلـو و يعلـو و يعلـو "يالللللللللللللـه .. يالللللللللـه " .

فـرد النّـورس جناحيـه وهـو يقـاوم السّـواد ويحـاول أقـصى جهـده أن يطـير عاليـا ويبـدّد تلـك العتمـة، يغلـب سـواد مـرّة ويغلبـه مـرّات ويحـاول و يحـاول . ومـا خـاب مـن حـاول ، مـا خـاب مـن دسّ الأمـل تحـت خيبـات ولوعـات الفشـل ليعـود فيمـلأ مـن تحـت فشـله كميـات الأمـل التـي تجعلـه يفلـح في الوصـول إلى رغبتـه . في لحظـة واحـدة وبعـد صرخـة قويـة ونزيـف مـروّع ،طـار ذلـك النّـورس عاليـا وهـو يذهـب بمـا تبقـى مـن قليـل نـوره مـن تلـك العتمـة ، كان يبـكي بحرقـة كأنّـه غـير راض أبـدا عـلى مـا يفعلـه ، كان يبـكي وكأنّـه يعلـم أنّ مـا بعـد هـذا لـن يكـون بالأمـر السّـهل عـلى ذلـك الفـؤاد الـذي وقـع فجـأة مـن دون جسـد صاحبتـه، كيـف لا و هـو يعلـم أنّ هـذا تحـوّل جـذري مـن بياض الحـب و الطيبـة إلى سـواد الكراهيـة والحقد !! كانـت ال"أنـا" تلقـي إحـدى أعظـم خطبهـا داخـل عـرش الـرّوح عندمـا وقـع ذلـك الفـؤاد المهـترئ ، غـادر الجميـع بينـما بقيـت هـي و سـواد تتأمّلانه،أمرتهـا بحملـه مـن عـلى الأرضيـة و إحضـاره في عجلة لإتمـام العمليّة.

منهكـة كانـت هنـاك تطفـو داخـل ذلـك العـالم، أخـيرا صـارت كيانـا شريـرا، و أخـيرا سـتصبح مخلوقـا قاسـيا يكـسر ولا ينكـسر ولا يعـرف إلا كيـف ينتقـم مـن كلّ الذيـن يؤذونـه ، بـل يـؤذي إذا اضطـرّ إلى ذلـك ومـع أنّهـا تريـد هـذا إلا أنّ الحـزن مـا يـزال مسـتلقٍ بعمـق عـلى قسـمات وجههـا .

هـي التّـي لم تشـفق يومـا عـلى أيٍّ تحـوّل حـدث معهـا بسـبب قسـوة الحيـاة عليهـا سـبقتها عـبرة غـير مرئيـة إلى محاجرهـا، ضحّـت هـي كثـيرا في سـبيل مسـتقبل مجهـول ،كلّ مـا يسـليها أنّهـا سـتكون فيـه فتـاة سـعيدة ، وسـتنسى رجـلا طالمـا سـبّب لهـا ولمـن حولهـا الألم !! حملـت تلـك الكـرّة التـي يغطيهـا غشـاء غليـظ يحمـي القلـب إلى أعـلى العـرش ، و تركته هنـاك لتبـدأ بتحويله! مـن الصّعـب جـدا أن يعـزل المـرء أسـاس العاطفـة عـن روحـه ، خلـق اللـه لـكلّ منـا قلبـا عـلى فطرتـه ، يكـون مضغـة صغـيرة عنـد ولادتنـا، لينمـو مـع الزّمـن عـلى مـا يشـبّ عليـه في الحيـاة ، خـيرا كان أو شرّا ، و هـذا قطعـا ليـس شرطـا فكثـيرا مـا يـتربّى أحدنـا في مجتمـع قـاس طيبـا وكـم ممـن ولـد في مجتمـع طيـب قاسـيا .. لذلـك فمعيـار الخـير و الـشّر في قلوبنـا لطالمـا كان و مـا يـزال ربانيـا و نسـبيا ،و لذلـك يقـول آلباتشـينو " في هـذه الحيـاة سـتتعلم كلّ شيء وحـدك إلا القسـوة سـيقوم شـخص آخـر بتعليمهـا لـك " كثـيرا مـا آمنـت بهـذه المقولـة فـلا تـأتي القسـوة مـن فـراغ ، كلّ قسـوة ولـدت عـن قسـوة و العكـس ...

طلبـت ال"أنـا" مـن سـواد أن تمتـصّ الدّمـاء الـذي كانـت تسـبح فيـه و وضعـت القلبـين معـا و لأوّل مـرّة يجتمعـان في فضـاء واحـد لكنّـه للأسـف غـير مـرئي ،و بعدهـا طلبـت منهـا إفـراغ كلّ كميّـة الدّمـاء التـي نزفتهـا الفتـاة بالدّاخـل . نظـرت إليهـا بأسـف ثـم قالـت :

- لم يبق إلا أن ننتظر.
- ألا تظنـين أنّهـا سـتتراجع عـن رأيهـا وتحـنّ إلى ذاتهـا الأولى مـرّة أخـرى ؟ هـل تظنـين أنّهـا سـتكرهه؟

- لا أعلـم .. لكنّنـي فرحـة بقـرار التّغيـير الـذي اتخذته..لقـد تأذّيـت كثـيرا مـن وراء طيبتهـا الزّائـدة ، في كـون كالـذي نعيشـه يجـب عـلى المـرء أن يكـون قاسـيا قليـلا ...أحببـت أن تقـدم عـلى التّجريـب فوحدهـا هـذه خطـوة عظيمـة !!!

ومضـت الأيـام و سـواد تراقـب غشـاء الفـؤاد و هـو ينـزف و يزيـد غلظـة كلّ ليلـة ، فتثـيره أكـثر لينـزف أكـثر و أكـثر يصـير أغلـظ أكـثر !

****

" الذّكريات بعض من الموت !"

كان أفـراد عـرش الـرّوح متحلّقـين حـول ذلـك الغشـاء الّـذي سـيفقس كبيضـة ليولـد منـه شـخص جديـد، شـخص أعارتـه ال "أنـا" اهتمامـا بالغـا، فهـي و لأوّل مـرّة وبحكـم التّغيـيرات الكثـيرة التـي اضطـرت لهـا تجمـع الأفـراد ليشـهدوا خـروج روح جديـدة مـن غشـائها . رحبـت بالجميـع قائلـة "في عـالم البـشر حيـث تنـام القسـوة في عظـام الأفئـدة ،حيـث يعبـث الرّحيـل بنخـاع الزّمـن الطويـل والقصـير وتتلاعـب المسـافة والزّمـن كـما يحلـو لهـما، يلجـأ هـؤلاء البـشر إلى الذّكريـات لتجعـل البقـاء دائمـا ...و نحـن اليـوم قمنـا بحـرق كلّ تلـك الذّكريـات لتبـدأ فتاتنـا حيـاة جديـدة، مختلفـة. لا تعـاني فيهـا مـن الألم و الخـوف ."

كان الجميـع يسـتمع في هـدوء كأنّ عـلى رؤوسـهم الطـير عندمـا كـسر خشـوعهم وشـتتّ انتباههـم صـوت انشـقاق الغشـاء التفتـوا جميعـا و مـرّة واحـدة إليها..يترقّبـون الفـرد الجديـد.

كان كلّ شيء فارغا...كقنديل آخر طريق مهجور انفجر النّور في عيني

عيني!!!؟

كأنّما أحسست بصعقة كهربائية تسري بين أضلعي..

أضلعي!!!؟

لحظـة نظـرت تحتـي فرأيتهـم لأوّل مـرّة .. أيعقـل أنّنـي معلقـة في السّـماء كعنقـود.!!

هل أنا أطير !!؟

بحثت عن أطرافي، ذراعي ، ساقاي ،وجهي لماذا لا أجد شيئا ،هل هذا يعني أنّني...!! ؟

- نعم... هذا يعني أنّك صرت شخصا جديدا وأنت الآن بداخلك حيث عرش روحك ، هنا ستجرين اختبار التّغيير الخاص بك .

تفرّست فيها ، صوتها بدا مألوفا لذاكرتي لكن متقطعا ، هل يا ترى رأيتها من قبل !؟ لكنّني لا أتذكّر إلا شيئًا واحدا أنّني كنت "أبحث عن الأبيض فوحده من كان سيدلّني على الحقيقة ويأخذني إلى حيث أشاء، و أطلق له العنان لأدعه ينسلخ عن العتمة "

لكن من أين لي بهذه العبارة ؛لا أذكر أنّني كتبت مثلها من قبل ..

أكتب!!

هل أنا أكتب مثلا... ؟!

كانت تنظر إلينا بنفس عيونها قبل التّحويل، لم يكذب ظنّ ال"أنا"، إنّها شخص مميّز ؟!كان هجوم ذاكرتها القديمة على الجديدة سريعا، رأيت كيف أنهّا تتسابق أيّها يدخلها أوّلا كأنّها اشتاقت للسّكون داخل دماغها.

أكثر ما أبهجني أنّها تذكرتني ولو بصورة متقطّعة ذلك أنّها في ذلك الوقت كانت قيد التّحويل بين ذاكرة الماضي والحاضر . نادرا ما يعترف المرء بالجانب الشّرير منه ولذلك كثيرا ما كنا نضطر للاعتراف بأنّنا جانب مكروه من طرف البشر لكنّها تعرّفت عليّ ، وضعت كفّها على راحة يدي و كم كانت دافئة ، لم آخذ وقتا لأشرح لها أنّها أرادت بعد

معاناتها الشّديدة أن تختبر جانب الشّر داخلها، أخبرتها كيف أنّها جاءتنا من عمق البياض ..و قبل أن أكمل صاحت في وجهي..

- هل هذا يعني أنّني لن أتمكّن من رؤيته بعد الآن !!

شيء بداخلي ينبئني أنّ الأمور لن تسير على خير ما يرام وأحسست بنفس الشّيء يتحرّك بداخل" أنا" . كانت الأمور تسير على غير ما تسير به عند بقية البشر ..

كان يجب أن تأخذ وقتا أطول في تذكّر ماضيها واستعادة ذاكرتها ..كان يجب أن تستحضر سواده لتنطلق منه لكن ..هاهي ذي تخشى عدم رؤيته مجددا و لو..كطيف !!

****

" بداخلنا النّور و الظلام معا ، الجزء المهم هو الذي نختاره لنعمل وفقا له ، و ذلك ما نكون حقا "

جي كي رولينج

- متى ستسمحون لي بالتّجول في أطراف الكون على شخصيتي الجديدة . ألا ترين أنّها تبالغ في خوفها الزّائد عليّ من كلّ ما يحيط بي هنا. كانت شاردة لدرجة أنّ جملتي الأخيرة لم تجد على أذني سواد متّكئا ولا أعلم لماذا كان ما يدور بخلدها يمرّ على خاطري فأعرفه . خفت أن تتهمّني بالخروج عن القوانين إن أنا أخبرتها بذلك .لن أنكر أنّني اشتقتك كثيرا .لم أعد أستطيع رؤيتك طيفا كما هي عوائدي و عندما سألت أناي عن ذلك علّلته بأنّني دفعت أطيافك كتذكرة نسيان مقابل حصولي على القّوة وأنّني من لا تريد ذلك فقد أحرقت و مزقت كلّ ما له علاقة بك و أمّا الأخرى فستعيدها عندما تصبح بلا تأثير عليّ .لعنت هذا العبث في سرّي كثير من القوانين تحكم عالم الدواخل ربما أكثر من الخارج حتى ، بدأ الملل يتسلّل إلى روحي وزاده تلك الصّماء شاردة بجانبي. لم أتمالك نفسي وصرخت فيها بأعلى صوتي .

- ما بالك لماذا أنت على هذه الحال؟

نظرت إليَّ كالمذعور .

- " أنت لا تنفكين عن التفكير فيها." أجابت بصوت مخنوق.

أطرقت للحظة ثمّ سألتني:

- هل هذا يعني أنّك ستتخلصين منّي.

- مـن تقصديـن ، روحـي القديمـة ...أقـصى مـا يمكـن الواحـد منـا فعلـه نحـو روحـه القديمـة هـو التّفكـير فيهـا ،اسـترجاعها مسـتحيل ..لذلـك اطمئنـي !

- متأكّدة ؟

- نعم .

- أتعلمين ماذا يعني كثرة تفكيرك فيها..

- ماذا ؟

- أنّني سأنتهي !

طـارت بسرعـة إلى حيـث لا يسـمح لي بالرّحيـل و بقيـت في مـكاني عندمـا أحسسـت خشخشـة في ناحيـة قريبـة عنـد عمـق فـؤادي، سرت وأنـا أتبـع في ذلـك حاسـة غـير معهودة...لأنتهـي عنـد رجـل لا يبـدو منـه إلا ظهـره، يغوص وسـط بركـة مـن نـور أحمـر ، يرتـدي قميصـا أسـودا و بنطـالا بنفـس اللّون ، اقتربـت بحـذر وفي قلبـي شـعور خـاص ، انتبهـت إلى أنّ الرجـل كان يغـرق في النّـور الأحمـر ، أسرعـت خطـاي نحـوه، كاد يغـرق عندمـا أحكمـت قبضتـي عـلى كفّـه ، لاحظـت أنّ وجهـه كان يـدور كلـما أردت رؤيتـه تلقائيـا ، فلا أرى إلا قفـاه وظهـره جذبتـه إليّ فلـم يتحـرّك نحـوي لأنتبـه إلى أنّ كفّـه الأخـرى كانـت ممسـكة بسـفينة نجـاة عـلى شـكل أنثى...انسـلّت يـده مـن يـدي رغـم إحكامـي عليهـا ، ليصعـد السّـفينة التـي مضـت بـه سريعـا ...

شـعرت بغيـظ و نـار تسـتعر بداخـلي ، لم أفهـم كيـف تحـوّل المـكان إلى سـواد فاحـم مـا جعلنـي أتخيّـل أشـباحا بشـكل أفـواه تقهقه منّي سـاخرة هي تشـير ببنانهـا إليّ..سرت إلى غـير وجهة...لأسـمع صـوت سـواد و هـي تخاطـب" أنـا "

- أنا آسفة ، لكنّها لا تتوقّف عن التّفكير في بياضها ، إنّها لا تكفّ عن الصّلاة ، أظنّ أنّه علينا تكثيف الاختبارات عليها .

بقيت بعيدة عنهما ، لقد رأيتهما بوضوح ،كانت سواد تتوسّلها أن تسامح ضعفها في التّمكن منّي ، و قد استلقى الغضب على وجهها قاتما، مخيفا ..

- قومي ؟ تعلمين أنّ أحدا لم يقدم على هذا الخطأ قبلك و صعوبة إصلاح الموقف حتى عليّ أنا .لذلك فلتستعدي للعقاب ..

قامت في صمت أصم وتحرّكت نحو طريق كثيف الضّباب، حاولت اللّحاق بها دون أن تشعر بي لكنّني بوغتُّ بها في أحد المفترقات خلفي...

- كفّي عن اللّحاق بي ..أنت تزعجينني ..مادمت لست متأكّدة من قرارتك فلماذا تتعبينني معك !

- أنا آسفة لأنّني أسببُّ لك المشاكل ..لكنّني أريد معرفة ما يحصل .. ماذا هناك ؟

- ما تريدينه سيتتحقّق .. فاطمئني !

- ما الذي سيتحقق؟

قهقهت ساخرة :

- أحقا يهمّك معرفة الأمر!!

لذت بالصمت ، فواصلت :

- الإبقاء على بعض من صفاتك القديمة يعني أن لا فائدة منّي، الإحساس بالغير ، الحنان والطيبة الزّائدتين ، أتذكرين ما حدّث قبل قليل مع رجل النّور الأحمر !!

- ما به ! ؟

أجابت بصوت عنيف..

- لقـد كان اختبـارك الأوّل.. تعاطفـت معـه رغـم أنّـك لم تتعـرّفي عليـه!!

- لكنّه كان على وشك الغرق..لذلك حاولت مساعدته !

- لا دخـل لـك أنـت بالأمـر ، ليـس عليـك تقديـم المسـاعدة لـكلّ مـن يحتاجهـا حتـى تلـك التـي تسـبّب لـك الألم .

- لكن ...حسنا فهمت ... لا ترحلي .

- كلا...سأرحل، فلا طائل من بقائي بعد الذي حدث ...

صدمـت لهـول مـا سـمعت ، الرّحيـل ،كـم أكـره هـذه الكلمـة ؟ صحيـح أنّنـي لم أكـن أعـرف سـواد جيّـدا ، لم أحتـك بهـا في حيـاتي السّـابقة لكنّنـي شـعرت أنّهـا ليسـت بذلـك السّـوء ، هـذا مـا لاحظتـه خـلال الفـترة التـي عشـتها معهـا ،لا بـأس أن نتقمّـص الـشّر مقابـل إسـعاد أنفسـنا.

- كيف يمكنني جعل أناي تغيّر قرارها ؟

توقّفـت لبرهـة.. أحسسـت فيهـا بتضـارب المشـاعر داخلهـا، ثـمّ أجابـت دون أن تسـتدير تنظـرني:

- لا تحـاولي ، لم يحـدث أن حصـل هـذا مسـبقا ...فهـي تقـول أنّ الخيـار يرجـع لـك !

****

" أطياف ذكريات الرّاحلين إمّا تدمّرك ..وإمّا تقوّيك ..و الخيار قطعا لك !!"

جمعتُ كمّا لا بأس به من الجرأة قبل أن أدخل عليها ،كان هناك العديد من أشباهي يتحلّقون حولها ،لا شكّ كانت تلقي عليهم إحدى محاضراتها في المدرسة الحياتيّة ،ترددت بين الحديث إليها و الانتظار و عرفت أنّها علمت بقدومي لكنّها تحاول اختباري ،هذا ما كان يدور بخلدها..و قطعا كنت أعرفه.

- أنا ...ذاتي !!

ما إن ناديتها حتى أوقفتني بإيماءة من كفّها دون أن تستدير تنظرني ، ثمّ واصلت تقول : جميعنا نعلم من نحن ،نعرف جيّدا مهامنا في هذا العالم ،أن نختار ما نريد أن نكون عليه أمر صعب جدا، ليس سهلا على أيٍّ منّا أن يصنع من نفسه شخصا قويًّا فبداخل كلّ منّا توجد رغبات كثيرة ، بعضها ما نريد أن نكون أو ينبغي أن نكون عليه ، وبعضها أصل فينا منذ خلق اللّه لنا أي أنّها فطرة فينا، بالإضافة إلى تلك الذكريات التي تضعفنا رغبة أو غصبا. أمر رائع أن تّعوض الأطياف من رحلوا عنّا وتعزّينا فقدهم، لكنّه لأمر محزن أن يضعفنا وجود تلك الأطياف بدل أن يمنحنا القوّة ، أمر محزن أن تجعلنا ننهار بينما تكون هناك العديد من الطرق لنبني و نصنع أنفسا و شخصيات جديدة لنا. نحن مسؤولون على ما تبقى من قصير عمرنا أو طويله ، لا عيب أن نعيش على ذكريات من غادرنا إذا لم يؤد ذلك إلى تحطيم ما سيأتي من حياتنا ، لذلك أخطاء الذّات أو تردّدها في

اتخـاذ القـرار المناسـب في الوقـت المناسـب لا يغتفـر ... لا يغتفـر أبـدا " صرخـت بالكلمـة الأخـيرة بأعـلى صوتهـا ،حتـى رأيـت تلـك الهالـة المزوجـة مـن البيـاض والسّـواد المحيطـة بهـا وهـي تـزداد اتسـاعا وقبـل أن يرتـدّ طـرفي خـلا المـكان إلا منّـي ومنهـا..

- ماذا تريدين ؟!

ابتسمتُ بخبث ثمّ قلت لها :

- هـذا النّـوع مـن الأسـئلة لا يناسـبك، أنـت التـي لا يخفـى عنهـا شيء يخصّنــي ! ؟

- عليك نسيان ما جئت من أجله إذن ! فهو مستحيل..

كانت تتكلّم دون أن تنظر في وجهي وكم كان الضّعف واضحا عليها .

- جميعنا نضطر للقيام بأشياء لا نريدها باسم القانون..

- أرأيت!؟

قالتهـا بـأسى ،كانـت تتمـزّق مـن الدّاخـل ،نظـرت إليّ وفجـأة صـارت عنـد وجهـي ،تأمّلتنـي طويـلا ثـمّ أدخلـت كفّهـا في جـوفي وراحـت تحرّكهـا لولبيـا وبسرعـة مريعـة و هـي تحـدّق فيّ بقسـوة و عنـف شـديدين .

كنـت أتـألم بشـكل مريـع ، للحظـة كنـت سـأضجُّ بالـصراخ لكنّنـي قاومـت ،صعـدَتْ بيدهـا قليـلا حيـث مـن المفـروض أن يكـون قلبـي رجّتـه كمـن ينـوي اقتـلاع شـجرة مـن جذورهـا ثـمّ أخرجتـه مـن صـدري ،لم أسـتطع كتـم فظاعـة ذلـك الإحسـاس ،صرخـت لهـول الشّـعور لكـنّ صـوتي خـرج متقطّعـا :

- مـاذا تفع..لـين ،فيـم تفك..ريـن! ؟أرجـوك لا تفعـلي هـذا! أنـا المسـؤولة عـمّا أريـد أن أكونـه .

- لكنّها ليست كذلك ، إنّها تخضع لي ...و أنا أخضع ...

تغيّرت نبرتها قبل أن تنهي الجملة الأخيرة ، هل يخضع قويّ مثلها لشيء آخر ، هل يوجد من هو أقوى منها !!لا أعتقد ذلك . زاد الألم، رجوتها أن تعيد قلبي إلى مكانه لكنّها مشت صوب الحوض الذي دائما يغلي،خفتُ أن تلقي به هناك ،قاومت للوصول إليها، لم أقدر الطيران،بصعوبة مشيت مترنّحة حتى سقطت عند قدميها..

- أرجوك !؟ ماذا تفعلين! ؟ القضاء عليّ لن يصلح شيئا، أنا لا أتحمّل هذا الشّعور الممزّق بداخلي !!

- أنت لا تعلمين ماذا تريدين بالضّبط،وبهذا تشكّلين خطرا عليّ وعلى مستقبلي، عليّ الإنهاء عليك قبل أن تخرج الأمور عن سيطرتنا معا.

- تعلمين غايتي من القدوم إلى هنا...أنا جئت للبحث عن الجزء القويّ منّي ، جئت لأنسى حزني وأمضي في حياتي مجددا ، لا أريد أن ينمحق أحد بسببي !!

- أنت لا تدركين شيئا وحنوّك عليها أكبر دليل على غبائك ، ثمّ إنّ القوانين هي القوانين لن تتغيّر لا من أجلك ولا من أجلها...و لا حتى من أجلي !

- نحن من وضع القوانين لنتحكّم من خلالها في الأمور لا لتتحكّم هي فينا و تسيّرنا كالدّمى كيفما تشاء .أرجوك امنحيها فرصة ثانية و من ناحيتي أعدك أنّني لن أسبّب أيّة آلام أخرى..و سأكون وفية لك !! أحسست كأنّما أخذت كلماتي الأخيرة في داخل "أنا" مأخذا ..كانت مشوّشة جدّا و كنت ضعيفة و أختنق أمامها كعادتي كلّما اتّخذت قرارا

وقتيا ، بينما كانت سواد قريبة جدًّا من ماء الانمحاء .

- أرجوك !؟أرجوك! ؟

استدارت نحوي، انطفأت فقاعات الماء المغلّى ، أعادت قلبي إلى مكانه ، تأمّلت عيناي مطوّلا و بعمق ، وقالت :

- إذا استطعت إنقاذها فافعلي.

رغم إعادة قلبي إلى صدري إلا أنّني كنت ثقيلة بالكاد أستطيع حراكا ،أحسست بهوّة عميقة تمتصني وما إن أرفعني حتى تعود فتسحبني ،ليس من عادتي أن أستسلم ، أظنّ أنّني سأتأخّر، غمغمت بيأس، ضربت كفّي على الأرض بغضب ،كنت حزينة ،لا أدري لماذا قرّرت إنقاذ الجانب الأسود منّي كما أنّ منظر رجل النّور الأحمر لم يختف من ذهني..

فجأة سلبني ضوء قوّي ،نظرت إلى وسط صدري ، شيء ما كان ينير هناك ،أحسست باحتقان في صدري ستنمحي هي إن لم أتحرّك. أغمضت عيوني وتذكّرت ما قالته لي يوما "هناك شيء بداخلك خارج عن كلّ قانون ، عليك دائما الرّجوع إليه ".كأنّما فرد جناحيه ذلك النّورس الوردي وسط صدري ،نعم هو ذلك الشّيء الذي يميّزني عن الجميع ،هو ذلك الشّيء الذي يمكنه مساعدتي .عاد الأمل إلى قلبي ،أغمضت عيناي و صرخت من أعماقي ،عندها فقط أحسست كأنّني قفزت قفزة كونيّة من عالم إلى آخر ،فتحت عيناي ببطئ و نظرت حيث كانت سواد هناك بالقرب من ماء الانمحاء، لم يبق على سقوطها إلا مسافة صغيرة، أغمضت عينيها فأغمضت عيناي لا إراديا، شعرت أنّنا واحد وأنّني لا إراديا أيضا أفعل ما تفعله .

فتحت عيناي على رجل النّور الأحمر مجدّدا ،كان بنفس وضعيته قبل قليل و خلف مستنقع نوره الأحمر ظهرت سواد وهي ما تزال تسير نحو حافة ماء الانمحاء ، لم تكن هناك من وسيلة لتنقلني إلى الجانب الآخر لإنقاذها ، التفتُّ يمنة ويسرة أبحث كالمجنونة عن حلٍّ عندما أدركت أنّني لمحت مقدّمة رجل النّور الأحمر ، تباطئ تفرّغ الزّمن بداخلي تبعثرت الحياة في أضلعي ،نظرت إليه ممتقعة و قد استلقت على وجهه ملامح مثيرة لشّفقتي ، للحظة نسيت سواد ورحت أتأمّل ذلك الوجه بعطش رمال الصحراي القاحلة لقطرات المطر الأولى ، لقد كان حبيبي من يغرق في النّور الأحمر وبسرعة مخيفة ، مدّ يده نحوي وبسرعة مددت يدي أنا الأخرى لأنقذه ، كنت سأفلته عندما استرجعت مشهد سفينة الأنثى التي كان يشدّ عليها قبل قليل ، تفقدت كفّه الأخرى أتأكّد من وجودها، لم تكن هناك و سيغرق حقّا إن لم أنقذه هذه المرّة !!

رغم وجهه المستعطف ورغم عدم وجود سفينة الأنثى ، أفلتُّ يده . غرق في النّور الأحمر الذي تحوّل إلى رماد أسود ، لتظهر سواد مستغربة وقد اختفى ماء الانمحاق من تحت الحافة التي كانت ستسقط فيها حتما . جثوت على ركبتاي وأنا أتنفّس بصعوبة ، و أجهش بالبكاء .تأمّلت دموعي التي كانت تتحوّل من الماء الشّفاف الحامض إلى اللّون الأسود وهي تسقط على الرّماد أمامي . شعرت بكفّها يربّت على كتفي:

- كيف فعلتها !!

صرخت و صرخت حتى ذبحت الأوتار داخل حلقي . أجبتها بصوت

مختلط بنشيج " النّورس الوردي ، النّورس الوردي بداخلي ، لقد فرد جناحيه من تحت النّور الأحمر ...سفينة الأنثى ...كانت هناك!!! " كثيرا ما تضطرب المشاعر بداخلنا بين ما نرغب به وما نرغب أن نكون عليه . قوّة جذبهما المتساوية لأعماقنا ستصعّب علينا الاختيار ، بعضنا الضعفاء سيستسلم ببساطة لما يرغب به ، وبعضنا الضعفاء الرّاغبون في التّغيير في نفس الوقت سيتمزّقون من قوّة الجذب وغالبا ما سينتهي بهم الأمر طريحو المنتصف دون أن يحصلوا على أحدهما أو كليهما . وأمّا بعضنا الأقوياء فيدركون ببساطة أنّ ما يرغبون به لم يكن يوما لهم في الماضي رغم إمكانية أن يكون ، فيلجون عالما جديدا ليحاولوا فيما ينبغي أن يكونوا عليه ..دون اهتمام لصواب ما يرغبون أن يكونوا عليه من خطئه . فإن كان خاطئا نالوا الخيبات و إن كان صائبا صيّرت حياتهم سعادة ...وكلّ ذلك ..قدر !

****

الجميل في رحيلك أنّك باق معي دائما ..لكن مؤلماً "

27/12/2017

...عزيزي

لأيـام و أشـهر و أنـا أضاجـع المـوت كلّ ليلـة عـلى سريـري، ربيـع أيامـي اكتحـل بغيـوم فحميّـة تـأبى أن تمطـر وكميّـة الحـبر في فمـي غطّـت محيـط الدّمـع في محاجـري ، أشـعر أنّ جـدران الغرفـة تجثـم عـلى صـدري، كـما أنّ العديـد مـن الأطيـاف و الخيـالات تـزورني كلّ ليلـة . و الآن أيضـا ،الكثـير مـن الأفـكار البريئـة الشّريـرة تغـزو عقـلي ، لم أعـد أتّفـق و ذاتي مطلقـا وكثـيرا مـا أصبحـت تشـنّ عـليّ حروبـا ضاريـة دائمـا مـا تنتهـي بهزيمتـي .

و لأنّنـي بالـكاد أسـتطيع مقاومتهـا قمـت مـن عـلى سريـري و اتجهـت ببطـئ نحـو مكتبتـي، أخرجـت أوّل كتـاب وقـع عليـه بـصري و رحـت أقـرأ مـا كتـب عـلى أوّل صفحـة كإهـداء " إلى تلـك الأطيـاف التـي تـزورني و تحـكي لي بلغـات العـالم أخبـار أحبـابي " ابتسـم ذهنـي عفويـا مـن تلـك العبـارة وقـد تذكّـرت طيفـك الـذي يـزورني دائمـا و يحـكي لي عنـك ،سرحـت قليـلا عـلى صوتـك المتوهـم و كالعـادة سـبقتني دموعـي ، يسـيل لعـاب ذاكـرتي منـذ سـنتين لوجبـة محيّـاك الدّسـمة ، مـا تـزال نفـس الأشـواق تمـزّق أعـماق قلبـي المجـروح كأنّ جرحـي يعـود جديـدا كلّـما تذكّرتـك .

لحـدّ السّـاعة لم أسـأل طيفـك شـيئا ، هـو الآن في مـكان مـا ، أعـرف بالضّبـط كلّ اتجّاهاتـه و بالمقابـل أدرك أيضـا أنّ أبوابـه مؤصـدة في وجهـي. أغمضـت عينـيَّ بقـوّة، إنّهـا طريقتـي الفاشـلة في محاولـة إلقـاء القبـض عـلى طيفـك و التـي غالبـا مـا تنتهـي بسـيل مـن الدّمـع برغبتـي في ضمّـك بذراعـي ضمّـي

إيّاك برموشي، لكنّه يتزحلق على الدّمع مسافرا فلا أشعر إلا وقد أخذتني إغفاءة لذيذة .

في وسط هذا الفراغ المنير من الغرفة أشعر بخوف شديد ، فتحت عينيّ ببطئ وصلت بهما في أرجاء الغرفة كأنمّا كان على الجدران ملايير العيون تراقبني ، سرت في جسدي قشعريرة خوف من ذلك اللّاشيء المترامي على فراغ حدود عيناي إنّها السّادسة صباحا ، الجميع نائمون ...حتى جسدي!! فقط روحي من تأبى أن تنام ! . استعذت من الشّيطان ورحت أكمل كتابة تفاصيل الرّواية ،كان التعمّق في ما أعيشه عن طريق القلم إلى ذلك الحدّ و تلك النّقطة وفي هذا الوقت المتأخّر مخيفا و مرعبا نوعا ما لذلك أصبحت هذه الأيام أتخيّل أشياء لا أساس لها في الواقع و منها طيفك الأقرب إلى الحقيقة !

من فرط إجهادي وتعبي ضغطت على القلم بشدّة فسال كلّ الحبر على الورق وأفسد ذلك الفصل الذي كتبته ، غمغمت بكلمات غير مفهومة ثمّ قمت ناقمة إلى سريري ..وأنا أضمُّ صورتك بقوّة .

كلّ شيء يوحي بالنّهاية ، لم أظن يوما أنّني سأصل إلى هنا ، منذ فراقنا و العشوائية والعبثية شعارٌ تبنته أيام عمري المستسلمة للخيبة ، تمدّد الفراغ على ثقل قلبي وراح يتجشّأ اللّيالي على ناظري و ليس غيري متفرّج في ذلك العالم الواسع بداخلي .. استسلم النّوم لقبلة عينيَّ الطويلة المميتة لصورتك...فغفوت..لأستيقظ بعد ساعة لممارسة روتيني مع الأيام و عندما هممت لحمل حقيبتي سرق ناظري صفاء الأوراق الملطّخة بالحبر فاستغربت من ذلك واعترتني رعشة خوف باردة، هل

دخـل أحدهـم الغرفـة في غيـابي ورمـى الأوراق الملطخـة ! لكـن ذلـك لم يحـدث ! اقتربـت منهـا وأنـا أقـرأ مـا كتـب عليهـا فصرخـت رعبـا و خوفـا ...

– – –

عندمـا أتذكّـر أنّنـي كلّ المسـاء لـن أكلّمـك كـما جـرت عوائـدي يتـسرّب الفـراغ إلى قلبـي ويبقـى يعصـف بتلـك الأطـلال الصّامـدة بـه فـلا أسـمع إلا همسـا ، و يخضـع سـمعي لبقايـا أصـوات و كلـمات قيلـت أو خطّـت في وقـت مـضى فأجعـل أكرّرهـا و أسـتلذ رائحـة الذّاكـرة المحترقـة ، وأشـدّ مـا يتعبنـي هـو ارتبـاط عـروق القلـب بأماقـي التّـي سرعـان مـا ترسـل دمعهـا ليتحـدّر عـلى خـدي وهـو يسـتجدي الزّمـن اللّعـين العـودة للـوراء لتصحيـح بعـض مـا كان مـن هفـوات في إدراك تـام أنّ الزّمـن لا يهبنـا فرصـة الرّجـوع للـوراء بقـدر مـا يهبنـا فرصـة الآن ،يريـد أن يربينـا عـلى التّعامـل الإلكـتروني والقـرارات السّريعـة المضبوطـة متناسـيا أنّنـا مـن آدم وأنّنـا لابـد نخطـئ لروعـة مـا نجـد مـن لـذة الصّلـة وقـد تجـدّد الإيمـان باللـه عنـد التّوبـة...

منـذ اعتـادت خلايـاي عـلى الظـلام بـت أعـرف الطريـق إليـك أسرع ، أجلبـك بغمضـة حنـون وأطبـق عليـك جفنـي ببـطء ثـمّ أضمّـك بقـوّة لننـام بسـلام.. مؤخـرا بـات طيفـك يتلـوّن بثيـاب الكلـمات التـي نثرتهـا في لقاءاتنـا الأخـيرة المؤلمـة ،لذلـك كان صعبـا عـليّ أنـا التـي أعشـقك بالأسـود أن ألبسـك الأبيـض المسـالم في ذاكـرتي ، ورغـم الـصّراع الدّامـي بينـي وبـين سـواد ثيابـك التـي تلبسـها ألبسـك السّـواد المسـالم ثـمّ أنـام وأنـا أجـتر طعـم الرّبـح المهـزوم . ذات مسـاء اشـتهيت رائحـة حـبري عندمـا أحسسـت أنّ عطـر الخطيئـة يجتاحنـي ورغبـة ممارسـة الحـب مـع الحـروف تثيرني أنـا التـي لم أضاجعهـا

بعد رحيلك بمدّة طويلة ، ذلك أنّني كنت أتعمّد على نفسي معاكستك والثّورة على كلّ ما كنت به تشجّعني .. آخر ما كتبت حسب الأوراق المتمدّدة أمامي اللّحظة هذه الفقرة " في ذلك اللّيل البهيم تركتني وحدي في طريق كان من المفترض أن تكون دليلي عليها وكلّها الآن تسخر مني، تتلوى عليَّ كأفعى شريرة وتجثم على صدري وحفيف الأشجار يعزف اللّحن الأخير وعيون الذئاب تفترسني ، لأوّل مرّة أفترش الخطايا لأنام على فراش العهر الطاهر ولأوّل مرّة أستحي من عيون القمر التي أنفت رؤيتي عارية منك ، كيف انتزعتني منك بذلك الشّكل الفظيع... وبعد ..إنّ الدّماء النّورانية التي انبعثت من انتحار القمر حياء من عرائي منك، تعفّن ريحها اللّذيذ في أنفي ولم يبق لي هاد في ذلك الطريق إلا تلك الذئاب التّي اتخذتها بعد صديقة ، أنت القائل أنّك كنت ذئبا "

حملت قلمي و كان ثقيلا جدا بالكاد اقتلعته من عبوته أو أنّ الأحرف على أناملي كانت كثيرة فأنا لم أكتب شيئا منذ مدة طويلة والغريب أنّني أحسست أنّ كلّ الحروف المشتاقة في جعبتي انتهى بها السّفر إلى خط واحد على البياض أمامي لأترك القلم وقد أحسست بشبق اللّذة وقد وصل إلى عمق أعماقي وارتعشت كأنّني امتصصت نور الشّمس الممزوج بالقمر ، تنهدت بعمق تنهيدة طويلة وأطلقت بعدها آهة أطول وأنا أبحث عن طيفك كي أضمّه لننام بهدوء حتى ذلك الصباح المشؤوم ..

والمشكلة أنّه وفي عمق أحلامي بك تأوّه طيف تلك الجملة وراحت كلماتها تستعرض باختيال "الجميل في رحيلك أنّك باق معي دائما ..لكن مؤلمًا "

- حبيبتي ؟؟

- ليس الآن تعلم أنّ حوارات ما بعد الكتابة ترهقني ، فممارسة الحب مع الحروف أشبه بصراع بين عدوين متكافئين في الشّر ..فلا ترهقني بأسئلتك ، دعني أنام بسكينة على صدرك وكفَّ عن العبث بجروحي فهي تؤلم أعماقي ..

تنفستُ سكوت طيفك بعمق وعاودت النّوم على تهويدة الألم الماضي المختلط بالألم القادم والألم الآن ..والألم الأبد .

ها أنا ذي أتلاشى بداخلي وشيء منّي يرفضني بقوة ، غريبة هي أنا وكأنّني لا أعرفني ، كأنّني أكتشفني لأوّل مرة أو لا أحاول أصلا معرفة نفسي إذ يبدو أنّني قضيت عليَّ أسرع مما كان من المفترض أن تقضي عليَّ الأقدار.. أسلمت نفسي لصورة في زاوية من هاتفي وقد رُسمتْ فيها على شفتيك ابتسامة تطمئنني بأنّك ستعود يوما ، الكلّ يراك في تلك الصورة جثة ،أمّا أنا فمرّة أراك تتكلّم مبررا رحيلك الذي لا أعرف سببه والذي جاء هكذا فجأة كصاعقة أو زلزال مفاجئ ..مرة أراها تهزأ بي فأرمي بالهاتف وأخرى أراها تلقي عليَّ محاضرة في التّنمية البشريّة توصيني بالنّهوض وعدم البقاء رهن الزّيف والوهم ...وأخرى أراها تتأسّف على تغييب عقلي ..فيتنفّس شيء من السّواد بداخلي لدرجة أتمنى للحظة أن تختفي السّعادة من طريق النّاس كما اختفت من طريقي ، و أن يبكي الجميع بكائي ، لكنّني ...أبعد تلك الأفكار السّوداء جميعا و أضمّك بقوّة و أنا أستغفر ذنبي الفكري قبل قليل..

قاطع صورة طيفك صورة أخرى ، إنّها صورة الورقة التي وجدتها صافية من الحبر وقد كتب عليها "ابحثي عن الأبيض وحده من يدلّك على الحقيقة ويأخذك إلى حيث تشائين.. أطلقي العنان للأبيض دعيه ينسلخ عن العتمة "

ترى عن أيٍّ أبيض يتحدّث المرسل وعن أيّ حقيقة و عتمة ، أكاد أجزم أنّها إحدى ألاعيب أختي فعندما أريتهم الورقة راحت تضحك ملء شدقيها وهي تتهمني بالجنون ...

****

" لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين " نجاة المؤمن !

تثاءب اللّيلة البيضاء عند الفجر ثمّ بلّل شفتيه بلعابه و قد أصدر تلامسهما صوتا مثيرا للاشمئزاز ذلك أن نصف أسنانه ليس في فمه ، غسل وجهه وهو يدلّك عينيه بحنان ثمّ غدا إلى حيث لا جدوى من وجوده،و لا عناء له في راحته . قبّل الشّمس قبلة طويلة و جلس القرفصاء على قارعة الطريق ، تقوّست يده اليمنى عفويا وتمثّل وجهه مسحة من الحزن المثير للشّفقة ، أغمض عينيه نصف إغماضة بحيث مالت عليهما رموشه الطويلة وبدأ يردّد الدّعاء المأثور "لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين "

في الجزء الأوّل من النّهار سمع دقّات كعبها العالي كأنّما تمشي هي على قلبه فانتفض وقد انتصب ظهره عفويا ، نظر نحوها ،كانت يومها أيضا بفستانها الأسود متوشّحة شالها الأبيض ، تحلّق الصبيان و الصبايا من حولها كالملائكة هذا يقبّلها وهذا يضمّها وأبعدهم عنها مشاعرا يتلصّص على أناملها منتظرا لحظة إدخالها يدها إلى حقيبتها ، علّه يظفر بقطعة شكولاطته المعتادة .

نظرت صوبه على حين غفلة فتجمّد الدّم في أوصاله وصار يُسمع لقلبه نبضات بقوّة دوي المدافع ، كميّة الوقت ترنّحت على عينيه المغمضتين بقوّة وهو يعصرهما " سبحانك ...الظالمين ...إله " تغيّر ترتيب الكلمات في دماغه عند غزو أوّل نسمة لعطرها منخاريه الغليظتين ،تنفست خلاياه حياة جديدة و ارتخت عيناه لاشعوريا ...عندما شعر بطقطقة خطوات

كعبها تبتعد ...فتح عينيه ليراها تحنو بيديها على صبية صغيرة حزينة. جلست إلى جانبها على الرّصيف وراحت تغازل غرّة شعرها ، ومقلتا الصغيرة تتسّعان رضا فتبتسم ، فتضحك فتقهقه .

كلّ ذلك كان يجري أمام عينيه هو الذي يتجرّع من الكآبة يوميا ، هو الذي أصبحت عيناه محطّة ينطلق الحزن والألم منهما و إليهما يرجع، تمنّى لحظة لو يعود إلى صباه فتربّت على كتفيه مثلما تفعل معهم. تمنى لو يقتفي آثار خطو عمره للخلف خطوة ،خطوة فيلعق كلّ كبواته، كلّ أنّاته . لماذا يحظى الصّغار بالكثير من الاهتمام من القريب والغريب ، الكبير والصغير ، بينما يهمّش كبار السّن ويرمى بهم إلى الزّوايا كلوحات قديمة أكل عليها الدّهر ولم يشرب ،فلم ترتوي...لماذا يعطى الصّغير من الاهتمام أضعاف ما يحتاجه و يمنع الكبير قليله ...

وبينما رآها تطبع على جبين الطفلة قبلة طويلة ثمّ تقرصها بطرف إبهامها و سبابتها وتبتعد لتقف فجأة و ترمقها بنظرة دافئة و هي تلوّح لها بكلتا يديها كاد يرفع ذراعه ليلوّح لها ، بل كاد سيطلب منها أن تعود فتضمّه هو الآخر لكنّ يده ما تزال مقوّسة تركع للمارّة عسى أن تحنّ تلك النّقود التي في قلوبهم ...

تراقصت ذكرياته على أنغام ما رآه بل يراه من تصرفاتها ، فتاة عشرينية على قدر من كلّ شيء عادي ، إلا ذلك الذي لا يعرفه من البريق الذي يشقّ أكوام السّواد في عينيها ، تلك الشّرارة التي تجعل جسده يقصف عند مرورها ، تلك الهواجس التي تثيرها ، والتي يكاد يجزم من خلالها أنّها ليست من البشر وإنّما مزيج من التّناقضيّة والاحتداميّة !!

إنّها بأنوثتها المعتقلة في كهف عينيها ، الاضطراب الذي يحدثه ذلك المدّ والجزر المباغت بسرعة ما يأخذان به و يرجعان ،ذلك التناقض والحتمية، تلك الحفرة إلى السّماء لا الأرض .

هو لا يعلم سبب ذلك الكمّ من المعارك التي تحدثها في خلاياه الدّمويّة، وذلك الضّغط الذي يرتفع لمجرد رؤيتها ، لكنّه يدرك تمام الإدراك أنّ ذات الصورة تزوره كلّما رآها ...صورة ابنته !

بعد الظهر و كالعادة وضع قوت يومه على الأرض وراح يسدُّ رمقه ، عندما استحضرت مخيّلته ابتسامتها العريضة الحزينة ، لم لا تغيب تلك الفتاة عن مخيلته ؟. في اليوم الواحد تمرّ أمامه العديد من الفتيات ، لماذا هي الوحيدة التي تحتفظ ذاكرته بصورتها؟ وهكذا وعن طريق هذه الأسئلة التي حيرته أدرك محمّد أنّ الأمر يفوق شبهها بابنته !

مساء و هو يمرّ ببقية الطعام على المتشردين في الشّوارع بينما آذان العشاء يرفع أحسّ أنّ الله يثني عليه بعد شعور الرّضا الذي يعتريه كلّما شكره أحد الصبيان مردّدا ""جزاك الله خيرا يا عمّي محمّد " هو صاحب الذّاكرة البيضاء إلاّ من صورة ابنته و صورة فتاة جديدة لا يعرف عنها إلا ابتسامة إلهيّة ملائكية تشعره بالسّكينة و الطمأنينة، هو الذي ينعته الجميع بالجينون لأنّ لسانه لا يسكت عن ذكر الله من لحظات استيقاظه حتى نومه الذي كثيرا ما يسمع فيه وهو يكرّر اسم الله واسما كلّما سئل عن صاحبته قال إنّه اسم إحدى حوريات الجنّة فيؤكّد لهم بذلك جنونه .

جلس بعد العشاء يكرّر الكثير من الأدعية التي يحفظها عن ظهر قلب ثمّ رفع يديه عاليا بالصلاة "يا ربّ ..لقد تعاظم الفسق في عبيدك حتى صرنا نرى جلّهم لا يذكرك إلا عن ضعف وحاجة أو استهزاء بأقدارك ،فاحم اللّهم أولائك الذين تسكن في قلوبهم ، أولائك الذين يرونك بقلوبهم ، أولائك الذين رغم الابتلاء والألم يصبرون ، يحمدون ،يؤمنون ولا يعتبون أو يلومون ... يا ربّ إنّ لي على هذه الأرض بنتا ولدت على البيضاء وإنّي أخاف أن يلوّثها الدهر من بعدي ،أنا الذي لا أعلم بأيّ أرض هي الآن إلا أنّ تلك الأرض أرضك و تحت حكمك سيدي فارعها وارزقها السّكينة والرّحمة والمغفرة إن هي أخطأت، فما هي إلا إحدى إمائك تصيب وتخطئ .

الرّحمة للضعفاء .. الرّحمة للمرضى .. الرّحمة للموتى.. الرّحمة للأحياء الموتى .. الرّحمة لأولائك الذين حيّ كلّ ما فيهم إلا قلوبهم ..الرّحمة للأرواح الشّاردة التي تبحث عن السّكينة .. الرّحمة لجميع خلق الله التّائهين .. الرّحمة يا الله .. الرّحمة لنا جميعا ."

كان أمين يسمع الشّيخ و هو يكرّر ذلك الدّعاء دائما وقد حزّ في نفسه أن يقترب منه فيستفسر عن حاله هو الذي يراه غريبا عن الدّيار لكنّ الشّائعات التي يطلقها النّاس عن جنونه تحول دون ذلك ..

شعر الشّيخ بما يدور في خاطره فقال له "الخواطر التي يسمعها الآخرون يجب أن لا تبقى طويلا بداخلنا "

لم يفهم أمين ما قاله العجوز لكنّه اقترب من مكان جلوسه وقال :

- لم أفهمك يا شيخينا ..

- أنت أصلا لم تعد تفهم إلا مؤخرا ..

استغرب أمين أكثر من قول الشّيخ وندم لأنّه لم يخرج قبل أن يلاحظ الشّيخ وجوده فكلامه كان سيؤكّد له ما يشاع عنه من جنون لولا أنّ الشّيخ شدّه من ذراعه قائلا

- أنا لم أكمل حديثي بعد .

جلس أمين مجدّدا وهو يحكّ خلف رأسه محرجا وقد شعر أنّه وضع نفسه في ورطة مع هذا العجوز المجنون .لكنّ الشّيخ قال كلمتين جعلتا أمين يتبكّم "ابنتاك أمانة " لم يفهم كيف عرف الشّيخ أنّ له ابنتين فقط لكنّ الخوف كان قد بدأ يسري في جسده من هذا الشّبح ذو اللّحية البيضاء الجالس بجانبه.

- البنات يا أمين هبة من الله.. وابنتاك الآن في أمسّ الحاجة لوقوفك بجانبهما .

أن يعرف الشّيخ اسمه أيضا زاد أمين ارتيابا وخوفا فاكتسحت عيناه مسحة من الخوف لا من الشّيخ هذه المرة و إنّما على ابنتيه ...لماذا هما في حاجته هو الّذي يؤمّن لهما كلّ ما يحتاجان إليه ويسعى لتوفير كلّ ما ترغبان به ..

- المال ليس كلّ ما تحتاجه بناتنا يا أمين ..هناك شيء أكثر قيمة من المال .

- كيف تعرف كلّ هذا عنّي وعن عائلتي يا شيخنا ؟

- ما نرفع يدينا لله ونسأله به لا يعرفه أحد و لكن ما تعلو به خواطرنا فيسمعه الغير عليه أن لا يبقى كثيرا بداخلنا .

استيقظ أمين مرعوبا من نومه، رؤية الشّيخ في المنام بعد رؤيته عند صلاة العشاء هذا اليوم أرعبته فقد بدا هذا المنام أقرب إلى الرّؤيا منه لأضغاث الأحلام ..قضى أياما رهيبة و هو يتأمّل ابنتيه كلّ يوم ..ويستفسر عمّا يمكن أن تحتاجا إليه.

و كثيرا ما يسأل أمّهما عمّا إذا كانتا قد أخبرتاها شيئا ، لكنّها كانت تسكت فضوله بالنّفي وبعدما سدّت في وجهه كلّ الأبواب قرّر دعوة الشّيخ للعشاء في بيته على سبيل الصّدقة .

****

" بعض الرّؤى مرشد ربانيّ ،عند انعدام هداة الأرض !! "

"حـان الوقـت لأسرقنـي مـن الزّمـن المتمـدّد عـلى قارعـة عمـري ، حـان الوقـت لتتقيّـأ ذاكـرتي ذلـك الكـمّ مـن وجـوه الأشـخاص المتخِمـة . بعـض الأشـخاص كالوجبـات السّـامة تشـعرك بالغثيـان وسرعـان مـا تقلـب موازيـن عقلـك، تفكـيرك و رؤاك . أمثـال أولائـك الأشـخاص عليـك تقيؤهـم و إلّا سـتدفع حياتـك و سـعادتك ثمنـا لبقائهـم .."

هكـذا كانـت تفكّـر عائشـة عندمـا ركبـت الحافلـة، كانـت أفكارهـا ترقـص ببطـئ عـلى سـاحة دماغهـا ،كادت تزلـق الـرّكاب بنظراتهـا مـن تحـت نظاراتهـا السّـوداء ، شيء مـن العتمـة في مخيّلتهـا بـل شيء مـن الفـراغ ..قبـل أيـام كانـت عـلى سريـر أحمـد و بينـما هـي في أوّج لحظـات شـبقها سـمعت المـؤذن يـؤذّن للصـلاة فخالجهـا شـعور أنّ عـين اللـه تراهـا . لأوّل مـرّة يحصـل ذلـك معهـا هـي لم تكـن لتعـير الأذان أهميّـة إلا قبـل أيـام عندمـا عاودهـا ذلـك الحلـم الـذي لا يختلـف عـن الواقـع في شيء ..إذ أنّهـا كانـت تشـعر بـه كأنّ عيناهـا مفتوحتـين..

وسـط مـكان لا تبـدو معالمـه لشـدّة النّـور تأمّلنـي مليّـا و هـو يبتسـم ثـمّ طبـع عـلى عينـي قبلتـين طويلتـين اليمنـى فاليـسرى بعدهـا حملنـي ،أوقفنـي وهـو يرتعـش مخافـة أن أتحـرّك فأُفلـتَ مـن يديـه ثـمّ قـرّب فمـه إلى أذني "اللـه أكـبر اللـه أكـبر ،أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه ،أشـهد أنّ محمّـدا رسـول اللـه ،حـي عـلى الصـلاة ،حـي عـلى الفـلاح ، اللـه أكـبر اللـه أكـبر ، لا إلـه إلا اللـه ." دخلـت هـذه الكلـمات أذنيَّ كخيـط طويـل مـن النّـور تفجّـر في شراييـني

ودمـائي ، وعندمـا امتـلأت بـه و وصـل لعيـوني فتحتـا ،كان النّـور قويًّـا ..قويًّـا لدرجـة أنَّنـي حاربـت طويـلا لأتعـوّد عليـه ...انعكسـت السّـعادة عـلى وجـه أبي لأن لـو غـرف العـالم منهـا لمـا نقصـت شـيئا و كان شـلال الحـبّ يتدفّـق مـن عينيـه اللّتـين ملئتـا فجـأة بالدّمـع .نـزل بي إلى الأرض وقـد التصقـت جبهتـه بهـا طويـلا ورغـم اختفـاء النّـور لم أصرخ لأنّ النّـور الـذي انبجـس مـن جبهتـه كان كافيـا لأبـصر بوضـوح .. تحرّكـت الأرض مـن تحتنـا و انفجـر الـبركان مـن تحـت جبهـة أبي ليدفـع حممـه بعيـدا و عاليـا وهـو يشـدّني إليـه بقـوّة .. رأيـت الذّعـر وهـو يفـترس وجهـه و ركبتيـه وهـما تحـاولان الالتصـاق بالأرضيـة .

لم أكـن لأصرخ أبـدا لـولا أنّنـي رأيـت خلـف أبي عملاقـا كأبشـع مـا أرى ، لـه قرنـين طويلـين و ملامـح مرعبـة ، صرخـت بأقـصى صـوتي ، تقلّصـت الشّـمس فجـأة في عيـون أبي ثـمّ انطفـأت ليتـلاشى قليـلا .. قليـلا.. فكليّـا .مـددت يـدي أحـاول الإمسـاك بمـا تبقـى مـن شرارة جسـده المنطفـئ لكـنّ ذلـك المخلـوق كان أقـوى منـي فأمسـكها وابتلعهـا و هـو يقهقـه بصـوت صاخـب مسـتفز .

أصبـح كلّ شيء مظلـم عـلى نحـو مريـع وكنـت أكـبر هـذه المـرّة ، حاولـت الفـرار مـن ذي القرنـين البشـع ، بحثـت عـن مخـرج يمنـة ويـسرة لكـن لا شيء .. لا شيء كان هنـاك إلا العتمـة . جثـوت عـلى ركبتـيَّ ألصقـت كـما أبي جبينـي بـالأرض ، و شرعـت أدعـو ،شـعرت بجبهتـي وقـد التصقـت بجبهـة أبي و بعينـاي وهـما تسـبحان في بؤبـؤه المبتسـم ، أبي يجذبنـي إليـه و المخلـوق مـن فوقـي يجذبنـي إليـه هـو الآخـر، يجذبنـي أكـثر ، يقتلـع عيـوني عـن عيـون أبي ،جبهتـي عـن جبتـه ، يمتصنـي ...

"يااااااااااااااالله ..."

صرخت بها كعادتي فوجده الله ملاذي في تلك الحالات التي أعيشها في كوابيسي ،كما الحقيقة كانت لا فرق بينهما ، لثلاثة سنوات و أنا أرى الله وأبي والشّيطان معا في منامي وهذا شيء يثير قهري.. إذ لا تأويل له إلا أنّني في الدّرب الخاطئ..

روت لها أمّها كما أبوها كثيرا عن قصّة ولادتها ، وكيف أنّ أباها أذّن في أذنها لكنّها لا تفهم معنى أن تتكرّر الرّؤيا ولمرّات عديدة ..خافت يومها كثيرا حتى ارتفع ضغطها...

كانت قد عادت من عند أحمد محمّلة بنشوة عظيمة.. هي التي كثيرا ما تحسُّ أنّها تفقد الحياة لتستعيدها من على صدره كلّ أسبوع ، كان يضيف لحياتها معنى جديدا هي التي تبخرت أحلامها على مرأى من طموحها و لثم الموت كلّ رغباتها . الآن ، لا شيء سوى القدر الأسود الذي اختارته من يقودها في الطريق ، العبث شعارها ، اللّذة الوقتية أو النّشوة وسيلتها مادام أنّ لا فرق بين اليوم والغد .

نزلت من الحافلة في تراخٍ وراحت تجرّ خطاها نحو ذلك الكوخ المتكوّم عند آخر الشّارع ، دفعت بابه الزّنكي برفق كي لا يصدر ذلك الصوت المأجّج ورغم حرصها ..فعل !!

دلفت إلى الغرفة وراحت تنزع فستانها الباهظ الثّمن ذو الجودة العالية الذي جاءها كهدية من أحمد في عيد ميلادها الثالث لها معه ،نظفت وجهها من أطنان المكياج التي تجمّلت بها على جمالها ثمّ نزعت كعبها الذي قرح راحة قدميها وبينما هي تبحث عن نفسها

عـلى المـرآة المكسـورة باغتهـا صـوت مبحـوح مـن خلفهـا " عائشـة ؟" أجابتهـا مـن غـير أن تلتفـت إليهـا ، لقـد كرهـت رؤيـة الحـزن المسـتلقي عـلى فـراغ عينيهـا كـما أضحـت تخـاف مـن حديـث الـبراءة المنتظـر عـلى شـفتيها وترتبـك كلّـما توهّـج ثغرهـا ليفـترّ عـن تأمّـلات مسـتقبلية كاذبـة ، أعتـم ليلهـما وهـي مـا تـزال تلقـي خطـب الإيمـان ومعجزاتـه عـلى مسـامعها ، وحـده التّمـرد عـلى اللـه مـا يجلـب لنـا السّـعادة ، وحـده درب الهـوى مـا يمنحنـي مـا أريـد. لأكـثر مـن ثـلاث عـشرة سـنة وأنـا أصـلي وأدعـو اللـه أن يخرجنـا مـن حالـة السّـخف التـي كنّـا نعيشـها ...هـل فعـل !؟ هـل عاقـب ذلـك الخبيـث ! ؟كلا لم يحصـل شيء مـن ذلـك ...وحدهـا حيـاتي الجديـدة مـا أصبحـت تـدرُّ عـليَّ بالمـال و تهبنـي سـعادة وقتيـة حتـى الرّجـوع إلى هـذا الكـوخ المهـترئ عـلى الأقـل...

- عائشة وضئيني لصلاة العصر .

تنهـدت طويـلا ثـمّ مضـت بعدمـا ارتـدت تنورتهـا الطويلـة السّـوداء و قميصها الأحمـر ولـوت شـعرها عـلى شـكل كعكـة ومضـت إلى وسـط السّـاحة ، كان الجـو بـاردا مـا يـزال ، مـلأت القـدر بالماء ثـمّ تحسّسـته فإذا هـو مثير للرّعشـة. "الشّـتاء في الكـوخ يتنهّـد كعجـوز في آخـر أيامـه يجمّـد كلّ شيء فيـه حتـى الأحاسـيس وهكـذا أصبحـت عائشـة ، منـذ أشـهر لم تعـد تعتنـي بي كـما في السّـابق ، أصبحـت أشـعر أنّنـي حمـل ثقيـل عليهـا فدأبهـا الحرص عـلى راحتي ، تفقّـدي ليـلا وتقبيـل جبينـي ،سـؤالي كلّ صبـاح ومسـاء عـن حـالي وحاجتـي حتـى أنّهـا كانـت تقـرأ عـليَّ الكثـير مـن الذّكـر الحكيـم قبـل النّـوم ، تشـكو لي همومهـا وآلامهـا و تحـكي لي بشـغف عـن طموحاتهـا وأحلامهـا وتحدّثنـي

حتى عن الشّباب الذين يعاكسوها ، عهدي بها ثرثارة ، ضحّاكة، عظيمة الأمل ...التّغيير الذي طرأ عليها يوتّرني ويشدُّ على أعصابي .."

بينما الأمّ تخطّ كتابا من القلق في فكرها على ابنتها كانت البنت تسرح بمخيلتها على الماء الذي يدفأ داخل القدر. ليت الأيام تدفأ كما يدفأ هذا الماء !! لقد تجمّد قلبي وعقلي.. ليتني أسطو على أيام النّاس فأسرق ضحكاتهم وسعادتهم ، لماذا أشعر بكلّ هذا الطفش والانقباض !! لماذا أصبحت طبلة أذني ترتبك كلّما تكلّمت أمّي ، أتراني أصبحت أكرهها هي التي لطالما كانت تشحنني بجرعات الأمل وتكسر سقف أحلامي ، هل يا ترى سأكون سبب ألمها في آخر أيام حياتها .كلا لست أنا من يفعل ذلك ، هذا كلّه بسبب الله ، هو من لا يريد أن نكون سعداء !!مسحت دمعاتها و حملت القدر بغضب ثمّ نظرت إلى جسد أمّها المتكوّم في الزّاوية ... امرأة في عقدها الخامس ، أقعدها الشّلل و العمى، إذا غيّرت جانبا بآخر تئن ، لا تستطيع حتى قضاء حاجتها بمفردها ، جثة، الرّوح فقط صاحبة الفضل في حركاتها . غيّرت لها الحفّاظ و راحت تغسل لها و تغسل قلبها بدموعها الحارّة في نفس الوقت ثمّ غيّرت لها ثيابها والحديث صراع يدور في ذلك الصّمت ، وضّأتها ورأت كم أراحها أن نظّفتها وطبع على وجهها مسحة لم تكن من قبل من الارتياح . شقّت ابتسامة رضا عن نفسها عبر تلك الدّموع و بين هي ترمي الحفاظ المتّسخ و الماء العفن... نادتها

- عائشة بنيّتي توضئي لنصلّي معا ..

بصعوبة مرّ هذا الطلب عبر أذنيها ، بصعوبة وجد الطريق إلى ضميرها،

فأذنهـا مليئـة بـالأردان و المعـاصي وكذلـك قلبهـا وعقلهـا !!طلـب كهـذا كان يزلزلهـا سـابقا لكنّـه الآن لم يعـد يؤثّـر فيهـا فقـد ران عـلى قلبهـا وتعـوّدت الكـذب في الإجابـة عنـه .

- أمّي أنا ...أنا حائض حاليا..

كيـف كانـت سـتقول لهـا بأنّهـا جنـب والملائكـة لم تقربهـا منـذ فجـر اليـوم و أنّ ابنتهـا لم تعـد تلـك العـذراء الطاهـرة و أنّهـا ربمّـا تكـون قـد خرجـت الآن مـن رحمـة اللـه سـبحانه وتعـالى .

****

" لو كانت الغيرة بشرا ، لكانت امرأة !! "

كان صخب الفوضى في أذني مثيرا للقلق فمنعني من التركيز وأنا أتغزّل بالحروف ، صوت الموسيقى كان عاليا جدّا زاده قهرا صوت الماسح وهو يضرب على الأرضية العديد من المرّات ، أمّا صوتها وهي تكرّر مع المغني فقد قطع المتبقي من فتيل صبري. قطعا لم أكن بحاجة لمعركة أخرى بعد معركتي معها ليلة البارحة حول أجندتي التّي مزقتها انتقاما لتعطيلي مجفّف الشّعر خاصتها ، ما يقهرني السّاعة أنّها تريد عنوة استفزازي للشّجار، تعشق هي رؤية الألم وهو يتسطّح على وجهي و الهزيمة وهي تلفّ جبيني و ما يغفر لها أنّها الوحيدة التي تهوى تزيين ثقب أذنيها بحروفي ، فكثيرا ما تجالسنا أقرأ عليها فصول رواياتي ، أقاصيصي وخواطري .

قمت من مكاني على مضض و أنا أتآكل غيضا وحنقا. أعشق الكتابة في تلك الزّاوية لكنّني مجبرة على تغييرها وإلا ستنفجر قنبلة نوويّة مدمّرة أخرى في بيتنا.

كان الصّبح قد تنّفس عن شمس حارقة في ذلك اليوم من أيام الشّتاء الدّافئ ...قبّلتُ السّماء قبلة طويلة وتركت الشّمس تداعب وجهي وأنا أفتّش عن مقدار الخيبة التّي ورثني إيّاها القدر بحرماني منك . قطعا لم أكن أودّ معاتبة الله أو ناقمة عليه ولكنّ الموقف كان قاهرا للدّرجة التّي لم أكن معها قادرة على احتواءه . لم يكن عقلي الصغير قد برمج بعد على أنّ شخصا واحد قادر على تفريغ ذلك الكمّ الهائل من الخيبة

والأمـل في آن داخـل قلبـي .ذلـك النّـورس الـوردي كان قـد طـار إلى طيفـك بسرعـة ليـزفّ إليـه أنّـك قـد خطـرت عـلى بـالي أنـت الـذي لا تغيـب عنـه أبـدا فجـاء بطيفـك ..وقفـت أمامـي كـما الحقيقـة ورحـت تذكّـرني بأيامنـا القليلـة الجميلـة والعديـد مـن الأحـداث التّـي لم تكـن و التـي لـو كانـت كيـف كانـت لتكـون جميلـة ، بادلتـك الكثـير مـن الابتسـامات و مسـحتَ الكثـير مـن العـبرات النّازلـة عـلى خـدّي وقـد كان طيفـك عـلى مـا ذكـرت واضحـا بالقـدر الـذي لم يشـكّكني ولـو للحظـة أنّـك لسـت معـي حقيقـة ، كنـت ببسـاطة قـادرة عـلى احتوائـك بذراعـي وضمّـك طويـلا وأنـت تنـام عـلى مقلتـيّ !! كنـت ببسـاطة قـادرة عـلى الإمسـاك بشـفتيك وليِّهـما بالطريقـة التـي أعشـقها !! كنـت ببسـاطة قـادرة عـلى تقبيلهـما طويـلا بعـد طيّهـما وإغلاقهـما بأطـراف أصابعـي !! كنـت ببسـاطة قـادرة عـلى إغـماض عينيـك وتقبيلهـما هـما أيضـا !! بـل كنـت قـادرة عـلى اللّعـب بأصبعـي داخـل أنفـك وأنـا أشـعر بنفـس مشـاعر حدوثهـا حقيقة...ببسـاطة !

الآن أحـرفي التـي تعشـقك تمـلأ فـراغ الصّفحـات البيضـاء أمامـي وأنـا غـير مسـتوعبةٍ بعـد شـدّة عشـق سـواد الحـروف غـزو بيـاض الصّفحـات عـلى الرّغـم أنّنـي كثـيرا مـن الأوقـات كنـت أصـل لدرجـة الشّـعور أنّ أحـرفي قـد خيبتنـي لأنّهـا - ببسـاطة - لم تعـد قـادرة عـلى جعلـك تحـسّ بحـرارة مـا أشـعر بـه وصدقـه فتخـرج دموعـي حـرّى لتعـوّض ذلـك النّقـص فيّ .

ترى..هـل سـأظلّ طـوال حيـاتي أكتـب لـك وحـدك ! هـل سـيظلّ قلمـي وفيّـا لـك حتـى أوضـع في تلـك الحفـرة الضيّقـة أم أنّـه سـيخون الذّكريـات القليلـة البريئـة التـي جمعتنـا معـا ! ثـمّ هـل أنـت حقيقـة الرّجـل الـذي يشـبهني أم

أنّني عشقت فيك ذلك الجزء الغامض من أبطال الرّوايات التي قرأتها.. وكثيرا ما تساءلت.. لو أنّني عاشرتك وعجنت طينك هل كنت لأحبّك !!! و كثيرا ما أفكر أيضا ..كيف كانت حياتي لتكون دون الكتابة !! أشعر أنّها المهدئ الوحيد لانفجاراتي الدّاخليّة ، أنا التي غالبا ما بدوت للجميع هادئة رغم البراكين التي تزلزل داخلي ، إحدى الأساتذة سألتني يوما : هل أنت هادئة هكذا دائما !!استغربت كيف تراني هادئة أنا التي لا تكفُّ عن الحديث ،لم أكن انطوائية لكنّني لم أكن اجتماعية أيضا ، صحيح أنّني لم أجد في حياتي خلق موضوع للبدء في الحديث و كثيرا ما أنتظر أن يبدأ الطرف الآخر الحديث لأصله بآخر غير منقطع وبينما أفكّر في قولها عقّبتْ على كلامها "صحيح أنّك كثيرة الكلام و المزاح لكنّك تبدين ساكنة.. صعب أن تتناغم حركاتك مع حديثك !! "لم أفهم مما قالته شيئا لكنّني فكرت فيه لأيام وأكثر من اللّازم ..ولم أعلم إذا ما كان عيبا في شخصيتي أو صفة حميدة لي .وفي يوم آخر بينما أتبادل الحديث معها وصديقاتي أوقفتني آن شرود قائلة بابتسامة " فهمت الآن ما قلته !! تدخلين الحديث متأخّرة وتكونين أوّل من تخرج منه ، معنا و غائبة عنّا في نفس الوقت !! " كأنّني فهمت ما قالته يومها أنا التي كثيرا ما أسرح في نقطة من الحديث وأفصّل فيها بدقّة بينما لا أغيب عن الموضوع وتفاصيله نقطة..نقطة.

في نهاية الفصل الدّراسي ، ودّعت ثلاثتنا ، قالت لصديقتيَّ أنّها لن تخشى عليهما أبدا من الحياة ..استغربت كيف استثنتني و صرخت كطفلة تطالب بحقّها من الشّكولاطة متأخّرة : وماذا عنّي !!

نظرت إليّ ثمّ قالت بنبرة زائدة في الحساسية : مممم أنت ...أنت يا كاتبتنا ستتضرّرين كثيرا..

- لماذا !! فغرت فمي مستغربة ..

- التّفاصيل.. التّفاصيل عزيزتي..العالم غدا يطفو في السّطحية و تعمّقك هذا و تدقيقك في الصّغائر بالإضافة إلى أحاسيسك الزّائدة و تضخيمك للأمور... سيقضي عليك !!

سماع ذلك لم يكن مريحا أبدا ...خاصّة لفتاة كأليس بالنّسبة لعالمنا العجائبي .. وبالكاد بدأت الآن باكتشافه !! والحقيقة أنّني هكذا من صغري أعملق الصغائر من حولي ..و كذلك فعلت بحبّك فكثيرا ما أيقنت بداخلي أنّ ما أشعر به نحوك لا يفسّر ، لا يكتب ، لا يقال ، و لا داعي للبحث له عن أي معادلات شعورية ، و أنّ كلّ ما بوسعي كتابته هو حروف خرقاء خالية من الحياة في عينيك مع أنّها جمرات مشتعلة من نار تضطرم داخل صدري ، كلّ ما بوسعي تفسيره هو أنّه يجب أن أتفهّم أنّنا لم نكن على مقاس الحبّ، كلّ ما بوسعي قوله هو أن ألوذ بالصّمت كلّما صادفتك في إحدى المواعيد الرّبانية ..والتي قليلا ما أرجوها من الله أو أنتظرها فلا يخيب انتظاري...

يومها انتظرتك ..انتظرتك مطوّلا و استغربت من ذلك الصّوت في أعماقي وهو يطلب منّي أن أنتظرك عن غير موعد ، لكنّه أكّد لي أنّك ستأتي .

بقيت أقلّب دفاتر الخيبة الواحدة بعد الأخرى إلى أن وصلت إلى تلك الورقة المسوّدة ، بصعوبة كنت أحاول تخليص الحروف المتناحرة عليها لكنّها كانت ملفوفة ببعضها بطريقة رهيبة ، هل ستأتي حقا !!هل

سـأضمّك كـما في لقاءنـا الأوّل !! هـل سـأبحر داخـل عينيـك عـن قـرب !! هـل سـيصدق ذلـك المتكلّـم بداخـلي ومـن هـو ليعلـم الغيـب !! أتـراه رسـول الوحـي !! أم تـراه حاسـتي رقـم مليـون ..أنـا التـي خرقـاء كلّ حـواسي !!

مـرّت دقيقـة ، عـشر ، سـاعة ،سـاعتان.. رافقنـي فيهـا صـوت فـيروز الأجـش بـــــ"أنـا لحبيبـي وحبيبـي إلي ...ويـا عصفـورة بيضـاء لا بقى تسـألي ..لا يعتب حـدا و لا يزعـل حـدا ،أنـا لحبيبـي وحبيبـي إلي .."وبعدهـا "شـايف البحـر شـو كبير..كـبر البحـر بحبّـك ..شـايف السّـماء شـو بعيـدة ، بعـد السّـماء بحبـك .."لم تكـن فـيروز رغـم صوتهـا الرّائـع تروقنـي وقتهـا ولكـن مـا كان يروقنـي هـو رفعهـا لمقـدار خيبتـي بـك في داخـلي ،كانـت قـادرة عـلى جلـب رائحـة أيـامٍ كنّـا نتكلّـم فيهـا لأنـام عـلى صوتهـا وأنـا متأكّـدة أنّـك حبيبـي وأنّـك لي حتـى وإن كانـت مسـافة مـا بيننـا بقـدر كـبر البحـر و كنـت بعيـدا بعـد السّـماء.. كانـت الموسـيقى تتغـيّر تلقائيـا مـع مـرور الوقـت لتـتردد كلّ الأغـاني التـي تشـبهنا أو تعمـدت تنزيلهـا لتبقـى معـي دائمـا.."

بـدأت أخـدّر ومـا أصعـب ذاك الشّـعور البائـس إنّـه عشـق الأسـود ،رغبـة في فتـح بابـه ودخـول تلـك الغرفـة حيـث لا أحـد سـوى أنـا وقلبـي والعتمـة... عفـوا حبيبـي وطيفـك !!قمـت مـن مـكاني لم أكـن أريـد أن ينـزل المطـر مقابـل ذلـك الكـمّ الهائـل مـن العيـون، ألقيـت بـصري عـلى الفـراغ تلقائيـا فالتقـط صورتـك مـن بـين الجمـوع وأنـت تسـير بسرعـة لم أسـتطع معهـا تعيـين إحداثيـات السّـعادة التـي أشـعر بهـا في قلبـي ذلـك المعلـم اللامتناهـي الأبعـاد، لكنّنـي راضيـة لأنّ ذلـك الـذي أخـبرني لم يكـذب و هـذا مـا سـيزيد ثقتـي بـه عـلى الأقـل.

كـم جميـل شـعور أن أراك حقيقـة ،كـم جميـل أن أراك كامـلا دون أن أضطـر لملأ الفراغـات الموجـودة في صـورة طيفـك ، كـم جميـل كلّ هـذا وكـم مخيّـب أن أكتفـي برؤيتـك لثانيـة تقطـع فيهـا طريـق دخـول الجنـاح بالإضافـة إلى مشـيك السّريـع ...تبـاً !!

كنـت مـا أزال في الحديقـة عندمـا تأوّهـت ذكـرى ذلـك اليـوم في الجامعـة إذ انغـرز سـلك سـياج الحديقـة في إصبعـي لم أشـعر بـالألم قـط بـل رحـت أضـع إصبعـي في فمـي وأمتـصّ دمـي ..كـم كان لذيـذا !! أحقًّـا لذيـذ دمـي لهـذه الدرجـة !! شـعرت بالـدّوار والغثيـان- فجـأة - كان كلّ شيء يـدور مـن حـولي .الحديقـة ، الأشـجار، الأزهـار وأختـي مـن خلـف نافـذة المطبـخ تنـادي عـليّ كي أدخـل لتجهيـز نفـسي مـن أجـل الذّهـاب لحفلـة خطبـة ابنـة عمـي .

دخلـت بسرعـة ونفـس الشّـعور بالغثيـان ينتابنـي ، جلسـت عـلى الأرضيـة بجانـب الخزانـة ورحـت أتنفّـس بعمـق ، رغبـة عارمـة في التّقيـؤ ،صـور تـدور وتـدور في رأسي ، عـاد ذلـك الـشّيء المتوّحـش، تلـك الكـرة الهلاميـة السّـوداء تريـد أن تنفجـر في دماغـي الأبيـض ، إنّهـا كـرة الكراهيـة .كانـت تهتـزُّ بشـكل رهيـب في دماغـي وتؤثّـر عـلى قلبـي فأشـعر برغبـة في القـيء ..هـذه المـرّة كان هنـاك مـا يسـاعدها، إنّـه طيفـك الـذي زارني و لم يكـن بمفـرده و عـلى جانبـه أنثـى ...هـي نفسـها التـي رأيتهـا و إيّـاك ذلـك اليـوم عندمـا هممـت بالمغـادرة فرحـا برؤيتـك ...أردتكـما حقيقـة ،أردت تمزيقـك و إيّاهـا لحـدّ أن تصـيّرا عصـيرا كدمـي هـذا فأشربكـما عـلى نفـس واحـد ، أردت أن أدفنكـما حيّـين ، اسـتمتع بصراخكـما المكتـوم تحـت الـتّراب ، بـل أردت حرقكـما معـا حتـى إذا نضجـت جلودكـما أبدلتكـما جلـودا جديـدة غيرهـا لتصليـا العـذاب الأليـم .

لم أنتبه وقتها إلى أن أصبعي المجروح ما يزال في فمي ومازلت أثمل بدمائي لكنّني انتبهت إلى أنّ تلك الكرّة السّوداء قد بدأ اهتزازها يخفّ ومنه تناقصت رغبتي في التّقيؤ وذلك الدّوار الرّهيب ...فقط عندما تذكّرت أنّ كلّ ما يحصل معي ..قدر ...إنّه الله !!

قمت وأنا أختار من بين فساتيني فستانا يليق بالحفل ، أنا أمقت الحفلات ولولا أنّ هذا حفل إحدى أعزّ قريباتي لما تكلّفت عناء الذّهاب إليه ، أحسست بثقل ذلك الثّوب الأسود الذي ارتديته بصعوبة فوق صورتك السّوداء وإيّاها عند الزّاوية على جسدي ،كنت ألحظ على المرآة عدد الكيلوغرامات التّي كنت أدفعها مقابل بقاء طيفك وإيّاي وكنت راضية لكنّ رشاد ازدرت ذلك بشدّة وهي تحرّك الفستان على جسدي بخيبة ، كان قد أصبح عريضا جدّا حسب رأيها لذلك فتحت الخزانة بلؤم وهي تخرج فستانها الأبيض الضيّق وتجعلني أرتديه ، ولأنّ الأمر لم يكن ليختلف عندي ارتديته في صمت لأحسّ أنّني صرت أخفّ بكثير .. رشاد أختي الوحيدة ،لم ولن يصدق أحد أنّها تصغرني بخمسة أعوام ، فهي تعلّمني ما لم أستطع أنا أن أعلمه إيّاها بصفتي أختها الكبرى ، كنت ألحظ رغبتها الشّديدة في تغييري ، شخصيتي ، اهتماماتي ، ميولاتي ،لكنّها لم تكن لتنجح البتة مقابل صمودي الجبلي الأزلي..تلك الطفلة بداخلي لم ترد أن تكبر أبدا، تلك الطفلة التي تتحوّل فجأة إلى عجوز بائسة في سنيّ حياتها الأخيرة...

كانت الحفلة مملّة جدًّا حيث لم أستوعب بعد سبب تلك البروتوكلات الغبية التي تقوم بها ابنة عمّي ...المسكينة لقد تحمّلت أن يجعلكوا

شعرها ثمّ يعيدوا تصفيفه، رأيت تلك الدّمعة التي كانت تحارب طرفي عينيها كي لا تخرج من شدّة الألم لكنّها كانت صابرة ..و نهاية الحرب كانت مرضية فقد بدت رائعة الجمال حقًّا ، استلقيتُ حذاءها على السّرير ورحت ألاحق ببصري فرشاة طلاء الأظافر على أظافر قدميها الواحد بعد الآخر لسألتها مستهزئة :

- أتظنين أنّ خطيبك سينتبه لطلاء أظافر قدميك؟

ابتسمت عفويا و أومأت بحركة خجولة من كتفيها أنّها لا تعلم ، لكنّني بلعتُ ريق سؤالي في بؤس عندما تذكّرت أنّ المحبّ يلحظ أدقّ تفاصيل محبوبه و أنّني حفظت أدقّ تفاصيلك يوم لقائنا ..فقد كانت أظافر يديك مقلّمة عن جديد و عبثا كنت أحاول اختراق حذائك لرؤية قدميك .كما كانت لحيتك جذابة وقد بدا أنّه لم يمض وقت طويل على حلقها ، و لن أتحدّث عن عينيك ..فقد كانتا ولا تزالان منارة المرفأ..بلعت ريقي أنا التي ما تزال ذاكرتي تحتفظ بريح أنفاسك ، أنا التي لوما الحياء و ضيق الوقت كنت لأستمتع بعدٍّ شعيرات رأسك ولحيتك بل و رموش عينيك ...أنا ال (الحمقاء) ذاكرتي !! و عندها أدركت فلسفة التّفاصيل هذه أدركت معها كم أنّ حبّك ..سيتعبني !

- هل ستتزوّجان عن حبّ أم أنّه زواج تقليدي كما أشاعت زوجة عمّي؟

ابتسمت في مكر وقالت " أخبرك بسر ؟"

و لأنّني كنت أعرف السّر من بريق عينيها ألقيت بجام جسدي على السّرير و أنا أنصت لقصّة حبّها الطويلة ، ومن فرط إرهاقي من ممارسة الحبّ مع الحروف طيلة ليلة البارحة .. أخذتني غفوة !! لأستفيق بعد

مـدّة عـلى صـوت أمّـي وهـي تلعـن في سرّهـا بـرودتي و عـدم شـبهي بالفتيـات الأخريـات متناسـية أنّنـي صـورة طبـق الأصـل عنهـا !! لا تعلـم أمّـي كـم أكـره التّـودّد بجسـدي الممتلـئ للعجائـز كي أعجـب إحداهـن و أفضّـل عليهـا الجلـوس والاسـتماع بحكايـات طفولتهـن ، تعلـم أيضـا كـم أكـره أن أمثّـل بـكلّ خبـث رزانتـي أمامهـن وتعلـم الكثـير غـيره لكنّهـا لا تمـلّ مـن المحاولـة..

قمـت متململـة وفرحـة لأنّ الحفـل قـد أشرف عـلى نهايتـه لأتخلّـص مـن هـذا الفسـتان الضيّـق عـلى جسـدي، سرت في الـرّواق الطويـل للحديقـة الخلفيـة و قطعـا لم يخـبرني أحـدٌ أنّ في الحديقـة فراشـة عاشـقة تداعـب عشـيقها ، لا أدري لمـاذا لم أرد العـودة أدراجـي و أعجبنـي كثـيرا منظرهـما فقـد كانـت ابنـة عمّـي كمـلاك أزرق يتغنّـج عـلى صـدر حبيبـه. لـن أكذبـك تخيّلتنـي هنـاك وإيـاك .. أترانـا كنّـا سـنكون سـعيدين كـما هـما ابنـة عمّـي وخطيبهـا الآن !! لكـن حتـما لم يكـن طيفـي بقـوّة طيفـك والأخـرى مـا جعلنـي أتـلاشى داخـل فسـتاني الأبيـض عـلى بـلاط الأرضيـة ، لملمتنـي ودخلـت أقـرب غرفـة ، تمـددت مجـدّدا عـلى سريـر هنـاك ..لا لأنـام هـذه المـرّة بـل لأبـكي! حتّـى في التّخيّـلات تؤلمنـي.. حتـى في التّخيـلات تقسـو عـليّ .. بقـدر عـدد الخيبـات بـتُّ أعشـق النّـوم .. بقـدر عـدد الخيبـات بـتُّ أعشـق العتمـة ..و بقـدر عـدد خيبـاتي منـك ..مـا أزال أعشـقك !!

- أنت هنا ؟

مسـحت دمعـي بسرعـة و أنـا أبتسـم لابنـة عمّـي العائـدة مـن حـرب العشـق بشـفتين خاليتـين مـن أحمرهـما و قـد أضـاف خطيبهـا بريقـا عجيبـا عـلى عينيهـا ، فقـد كانتـا تلمعـان.

- لقد أيقظتني أمّي فاختبأت هنا علّها لا تجدني .. تبدين أجمل بكثير عن ذي قبل...إزالة أحمر الشّفاه عوّضها بريق عيون ملفت !! ضحكت ابنة عمّي من خبثي وقالت و هي تلكزني على كتفي مداعبة و مدّعية الاستحياء " لا تحرجيني ههه !!"

- صدقا أقول لا أمزح !! مبارك لك..

- شكرا عزيزتي ...العاقبة لك .

- أنا...أنا متزوّجة منذ شهور عدة ، هذا إن لم أكن حاملا الآن .

لم تكن ابنة عمّي لتفهم أبدا ما كنت أرمي إليه أو أقصده و كيف لها و للجميع أن يصدقوا أنّ هناك طيفا يضاجعني يوميا ، يقبّلني كلّ لحظة ، يداعبني ، يلاعبني ، كيف لأحد أن يصدق أنّني زوجة طيف يرسم جسدي كلّ ليلة وهو يمدّده على سرير الذكرى بعطش ، يقبّل فيه الأمسيات مع غروب الشّمس في عيني ويفتح باب الغد على شفاهي ، كيف لهم أن يصدّقوا و كيف سأجعلهم يفعلون !!

ضحكت ابنة عمّي الغبية بصخب وبصعوبة ميّزت حروف كلماتها بين ضحكتها تلك .

- مجنونة ، متى تزوجت ومن ؟ هل هو جنّي !

- نعم جنيّ ..لكنّه جنيّ مختلف عن الجنّ الآخرين ، جنيّ من عصور الخيبة ، من القرون المندثرة ، يسير عكس الزّمن ، بريء بكلّ الجرائم ، مؤلم مع كثير لذة .

بعد تنهيدتي الطويلة تلك وعلوّ عيوني لقامة السّماء سألتني ابنة عمي " أعاشقة !!"

لم أكـن أنـو أن أشرح لهـا مـا لـن تفهـم أو أن أواصـل الثّرثـرة في موضـوع زواجـي بـك الـذي لـن يفهمـه أحـد ..لكنّنـي علّقـت عـلى سـؤال ابنـة عمـي بنفـي عشـقي أنـا التـي لم أذق حـلاوة العشـق الواقعـي أبـدا بقـدر مـا ذقـت حـلاوة العشـق عـن طريـق الحـروف .

فعـن الطريـق الأدب والخيـال تزّوجنـا ،قمنـا بـكلّ طقـوس الـزّواج و بتفاصيـل أعمـق ،لسـت أدري الفـرق بـين الـزّواج عـلى الواقـع والـزّواج عـلى الـورق لأنّنـي لم أتـزوّج بعـد عـلى الواقع...لكـنّ الـزّواج عـلى الـورق لذيـذ ، الرّقـص عـلى الحـروف الصاخبـة و المهموسـة ،الاسـتلقاء عـلى الحـروف الممـدودة و التّكـور داخـل الحـروف المغلقـة...كلّ هـذا لـه مـذاق خـاص.. لـن يشـعر بـه إلا كاتـب !!

*****

"السّواد ..تراكم بياض جريح !!"

غـدا كلّ شيء أسـود ، الأيـام ، الأصدقـاء ، الأحـلام ،وأضحـت أسـوار الكـوخ نـارا تسـتعر في قلـب عائشـة ، تمـددّت عـلى بطنهـا فـوق ذلـك الفـراش الملتصـق بـالأرض التصـاق الرّضيـع بثـدي أمّـه وراحـت تنظـر إلى كومـة الكتـب الموضوعـة عـلى الطاولـة ، لم تقـرأ سـطرا منـذ وقـت طويـل جـدا . كانـت تقـرأ لأنّهـا تؤمـن بمـا هـو بـين الأسـطر و تشـتم صـدق قائليهـا ،بيـاض قلبهـا كان يعكـس مسـتقبلا مزهـرا حيـث كانـت تلبـس لـكلّ روايـة طوقـا مـن الياسـمين الأبيـض أمّـا الآن فقـد ذبلـت أغصـان حديقتهـا ويبسـت أوراقهـا .

اتـكأ الضجـر عـلى جفنيهـا و بلـغ ضجيـج الكتـاب والأبطـال الذيـن كانـت تقـرأ لهـم طبلـة أذنيهـا فاسـتدارت متململـة و قـد اسـتلقت عـلى ظهرهـا و هـي تخـترق بنظراتهـا ثقـوب الزّنـك حيـث كان القمـر هـلالا يبعـث بشـعاعه وكأنّـه يغتصـب عنـان السّـماء المظلمـة ...في وقـت مـضى كان لهـذا تأويـلا خاصّـا ، بـل دلالـة عميقـة في روحهـا..

" أبي لم يصغر القمر ثمّ يعود ليكبر ؟"

والـد عائشـة شـاب في السّـتين، لفـرط مـا تـزوّج بـين بكـر وثيّـب لم يعـد يذكـر أسـماءهن كـم أمـضى مـع كل واحـدة منهـن و لسـوء الحـظّ أو لابتـلاء القـدر كانـت أمّ عائشـة إحداهـن ..

كونـه عقيـما فكـرة لم يكـن ليهضمهـا دماغـه لذلـك كان يتـزوّج كلّـما لم تحمـل زوجتـه محـاولا إثبـات فحولتـه و منتظـرا حامـل نسـبه العريـق ذلـك أنّ الطبيـب كان قـد أخـبره بعـد زيـارة خفيّـة قـام بهـا إليـه أنّـه ليـس هنـاك

مـن سـبب يمنـع إنجابـه ...و مـع خـبر كهـذا مؤكـد كان سـيطلّق خليلـة فراشـه الحاليـة ليتـزوّج أخـرى وكانـت هـذه المـرّة.. آسـيا

ولحسـن حظهـا - ربمـا- حبلـت في شـهرها الأوّل مـن الـزّواج وذلـك مـا جعلـه يسـتقرّ معهـا للأبـد ، عـلى أغلـب تقديـر !!

جـاءت عائشـة إلى الدّنيـا في عجلـة أو أنّ الحيـاة أرادت اغتصابهـا مبكّـرا فولـدت في شـهرها السّـابع ، ونالـت اهتمامـا ورعايـة بالغتـين مـن والدهـا ،كانـت نصفـه الثّاني الـذي يرافقـه حيثـما حـلّ وارتحـل، سـفيرة قلبـه وقطتـه المدلّـة التـي يوَّفـر لهـا كلّ مـا تطلبـه وترغـب بـه ولكـنّ هـذه السّـعادة والحـبّ الكبيريـن لم يغلقـا نافـذة الطمـع في نفسـه ، الطمـع في امتـلاك وريـث دمـه و سـلالته لذلـك غالبـا مـا كان يفتـح مـع آسـيا موضـوع إنجـاب طفـل آخـر ،لكنّهـا كانـت ترجـع ذلـك للقـدر ورغبـة اللـه وأنّـه سـبحانه وتعـالى يـرزق مـن يشـاء متـى يشـاء مذيّلـة قولهـا – دائمـا – بـأن لا ينـسى أنّـه تـزوّج الكثـيرات مـن قبـل ولم ينجـب وعليـه أن يحمـد اللـه أن رزقـه عائشـة لذلـك كان ينـام مقتنعـا بقولهـا وراضيـا عـلى تلـك الـوردة التـي وهبهـا اللـه إيـاه ... كانـت عائشـة طفلـة جميلـة منـذ الصغـر ،شـعرها أشـقر وعيناهـا خضراوتـان مائلتـان للزرقـة ، كثـيرة السّـؤال مشـاغبة ، طلباتهـا لا تنتهـي وكذلـك رفضهـا لـكلّ شيء تقريبـا ، لذلـك قضـت طفولتهـا بـلا أصدقـاء ، فالصّغـيرات كانـت تكرهنهـا و تكرهـن غطرسـتها وتكبّرهـا وكـذا أنانيتهـا فكـنّ كثـيرا مـا تلـذن بالفـرار وتتفرقـن لمجـرد خروجهـا مـن بـاب المنـزل ، وكان أبوهـا صديقهـا الوحيـد المقـرّب أو الوحيـد الـذي يتحمّلهـا بمسـاوئها و عيوبهـا فحتـى والدتهـا تمـلّ مـن طلباتهـا غـير المنتهيّـة وسـلاطة لسـانها...

دخلت عائشة المدرسة في الخامسة من عمرها و ذلك بفضل طول لسانها و حذاقتها على حدّ سواء، عندما دخلت للصف التّحضيري في الابتدائيّة لم تعجبها تفاهة المعلمة التي طلبت منهم أن يشكلوا حرف الباء بالعجينة الملوّنة فخرجت من الصّف بحجّة الذّهاب إلى المرحاض .لكنّها و في حقيقة الأمر خرجت تبحث عن أكبر عضو يحكم المدرسة على ما قاله أبوها (المدير) . رأت الحاجب حذاء الباب فمشت نحوه، كان يغطّ في نوم عميق إذ لكزته على ذراعه بقوّة .

- "هاي أنت.. استيقظ "

قفز المسكين من عمق نومه وراح يبحث عن صاحب الصّوت في وجل ظنّا منه أنّه صوت المديرة وأنّها قد كشفت نومه فترة العمل، لكنّه تفاجأ عندما رأى فتاة صغيرة تشدُّ يديها إلى خصرها في غضب ، عادت لوجهه مسحة الاطمئنان وقال بعدما استقر على كرسيه مجدّدا مشيرا بسبابته متثائبا :

- المرحاض في تلك الجهة..

زاد وجه عائشة انتفاخا واحمرارا و عقدت ما بين حاجبيها وقالت بصوت أعلى عن ذي قبل :

- دلّني على مكتب المدير..

ضحك الرّجل وهو ينظر لعائشة في سخريّة ثم طردها بعيدا عنه ،ما جعلها تحتقره وتكيل له الحقد والكراهية طوال مدّة دراستها هناك، لا بل نصفها !! وخزته بنظرات توعّد تقدح تهديدا ومشت و هي تحسّ بالهزيمة النّكراء على يد ذلك الرّجل السّمين ذو العينين الخضراوتين

و البطن المنتفخ ..

لمحت جماعة من الصبيان المتجمّعين خلف القاعات فقالت في نفسها "مؤكد يعرف هؤلاء مكتب المدير" اقتربت منهم وقد انتبهت إلى أنّهم قد بدؤوا بنفض أيديهم إذ رأوها ، سألها أطولهم .. وقد زادت بشرته البيضاء من حمرة الارتباك على وجهه..

- ماذا تفعلين هنا يا صغيرة ؟
- أبحث عن مكتب المدير، هل تعرفه ؟
- هه .. و هل هناك من يعرفه أكثر مني ؟

رد ضاحكا فضحك الجميع بعده ، لم تفهم عائشة ذلك ما جعلها تكرّر طلبها ليقوم الصبي متململا

- " تعالي أدلّك"

مشى أمامها بسرعة و بالكاد كانت تستطيع اللّحاق به وهي توسّع خطوها و تزيد سرعتها لكنّه توقف فجأة من غير إنذار مسبق فاصطدمت به و وقعت أرضا ،كانت ستبكي لشدّة ما آلمتها مؤخرتها لكنّها اكتفت بالنّظر إليه في غضب ، فقال متجاهلا إيّاها

- " صحيح... ماذا تريد صغيرة مثلك من مكتب المدير ؟"

قامت عائشة من على الأرض ثمّ قالت بتذمّر وهي تنفض تنورتها الحمراء من الغبار "وما شأنك أنت ..دلّني وحسب ؟"

ارتعدت فرائصه كثيرا وخاف أن تكشف أمر تدخينه فهي مؤكد رأته يدخّن وستخبر أمّه ، لكنّها لا تعرف مكتب المديرة فكيف ستعرف أنّها أمّه .. بعدما قلّب الأمور واطمئنّ لاستحالة ما يفكّر به واصل طريقه

دون أن يعلـم أنّ الصّغـيرة كانـت تلعنـه مـن الخلـف في سرّهـا .

دخلـت عائشـة المكتـب دون أن تطرقـه حتـى ، و راحـت تجيـل نظرهـا فيـه . كان كلاسـيكيّا فخـما و بالـكاد كانـت بطـول مكتبـه . هنـاك خلـف المكتـب رأت عائشـة امـرأة شـديدة الجـمال و هـواء المروحـة يتغـزّل بخصـلات شـعرها الأسـود ويأخذهـا يمنـة ويـسرة ،حنـان غريـب كان قـد ارتسـم عـلى مسـحة وجههـا وهـي تنقـر عـلى أزرار الكمبيوتـر .كانـت غارقـة في العمـل مـا جعـل عائشـة تسـتحي مـن أن تقاطعهـا فبقيـت تتأمّلهـا و هـي تعمـل ، لكـنّ المـرأة انتبهـت لهـا فجـأة فقامـت إليهـا وقـد طبعـت عـلى شـفتيها ابتسـامة عريضـة زادت مـن بريـق عينيهـا العسـليتين.

- ماذا تفعلين هنا يا صغيرة، هل ضيعت الطريق إلى قسمك؟

لأوّل مـرّة تـتردّد عائشـة في أمـر مـا ، لأوّل مـرّة يتزعـزع تمرّدهـا لكنّهـا مؤكـد لم تكـن لتنـسى كلّ المتاعـب التـي واجهتهـا لتصـل إلى مكتـب المديـر .

- أبحث عن المدير..

ابتسـمت المـرأة و جثـت عـلى ركبتيهـا وهـي تقـول " أنـا هـي المديـرة عزيـزتي ، مـاذا تريديـن ؟"

لمـاذا يسـخر الجميـع منّـي اليـوم ؟ لمـاذا يسـتهزؤون بي بـلا حيـاء ؟ استشـاطت غضبـا منهـا وقالـت :

- أنت المديرة ، إذن أنا يمكن أن أكون أستاذة !!

ردت المديرة ضاحكة "لماذا تقولين هذا عزيزتي ؟"

- جميـع المـدراء كبـيرو السّـن بشـعر أبيـض أو أصلـع وبطـن منتفـخ وأنـت صغـيرة عـلى أن تكـوني مديـرة !!

صبية كهذه كانت كالسّكر بالنّسبة للمديرة هي التي رأت في عيني عائشة إصرارا كبيرا على تحقيق رغبتها ، وذلك ما تعشقه في المرء صغيرا كان أو كبيرا ." ومن أخبرك بهذا ؟"

- كلّ المدراء في أفلام الكرتون التي رأيتها كذلك .

- آآآآه حسنا .. ولكن ألا يمكن أن يكون هناك مديرة امرأة لا مدير حسب رأيك ؟

- بلى يوجد ، ففي فيلم "سالي " كانت هناك مديرة للميتم وقد كانت عجوزا ذات ملامح بشعة وشعر أشيب وأنت لست كذلك أيضا.. ضحكت المديرة كثيرا من ذكاء الطفلة .."معك حق لكن ما ذنبي إن كنت مديرة صغيرة ، أتريدين أن أبشّع شكلي وأصبغ شعري أبيضا .." تأمّلتها عائشة في حيرة ، هل ستصدّق أنّها المديرة حقًّا هي التي لا تصدق شيئا بسهولة !!

فجأة دخلت معلّمتها و هي تعتذر من خروج تلميذتها من الصّف ، ما جعل عائشة تصدّق ذلك . شدّتها من يدها فانتزعت عائشة يدها وراحت تصرخ:

- سيدتي المديرة أنا لا أريد الدّراسة عند هذه المعلمة.. أرجوك !!

استغربت المديرة من طلب الصغيرة وراحت تستوقف المعلمة وتسأل عائشة عن سبب رغبتها تلك ، لكنّ الإجابة كانت صادمة للمعلمة .

- هي لا تفعل شيئا ولا تدرسنا بل طلبت منّا اللّعب بالعجينة بينما كانت تتحدّث على الهاتف .

- عزيزتي... إنّه يومك الأوّل في المدرسة و المعلمة تريد تعويدكم

عـلى الجـوّ المـدرسي الجديـد قبـل البـدء في تدريسـكم .
تمنّـت المعلّمـة لـو تنشـق الأرض لتبلعهـا ، لسـنوات وهـي تـدرّس ولم يحـدث معهـا موقـف كهـذا ، دائمـا تعتـبر أنّ الصّغـار لا يفقهـون شـيئا وإذا فقهـوا لا يجـرؤون عـلى الجهـر بـه لكـنّ هـذه الصّبيـة قلبـت موازيـن ظنونهـا رأسـا عـلى عقـب .

- أنـا لا أريـد البقـاء في ذلـك الصّـف، أنـا أحفـظ كلّ الحـروف وكيـف تكتـب وتنطـق وطريقـة هـذه المعلمـة لا تعجبنـي وكذلـك الحاجـب لا يعجبنـي ...

- و ما الذي لا يعجبك في الحاجب ؟ ماذا فعل هو الآخر؟

- لقـد غضـب لأنّنـي أيقظتـه مـن نومـه العميـق أثنـاء العمـل ولم يـرد أن يدلّنـي عـلى مكتـب المديـر .

تعجّـب الجميـع مـن ذكاء و نباهـة صغـيرة السّـن هـذه ، لذلـك نقلتهـا المديـرة للصّـف الأوّل بعدمـا حـذّرت المعلمـة كثـيرا بطردهـا إن هـي واصلـت عـلى ذلـك النّحـو مـن الحديـث عـلى الهاتـف أثنـاء الحصّـة و سـحبت كـرسي الجلـوس مـن تحـت الحاجـب بعدمـا حذرتـه هـو الآخـر بنفـس المصـير المرتقـب للمعلمـة .

و هكـذا فـازت عائشـة في أولى معـارك حياتهـا في يومهـا الـدراسيّ الأوّل مقابـل الحصـول عـلى عدوّيـن ، معلّمـة وحاجـب يرمقانهـا بنظـرات تهديـد كلّـما رأياها..وهـذا لم يمنعهـا طبعـا مـن مبادلتهـما نفـس النّظـرة ، نظـرة الانتصـار بينـما تحمّـل الحاجـب كنيـة أبـو كـرش طيلـة خمـس سـنوات ، في البدايـة كان يكرهـه لكـنَّ الكثـير تغـيّر بعدها...الكثـير إذ أصبـح يقـع عـلى أذنيـه مـن

شفتيها موقع العسل من لسان الفقير المدقع .

سـؤال مثـل ذلـك كان مربـكا لوالـد عائشـة "لمـاذا يصغـر القمـر ليعـود فيكبر؟"

و طفلـة بسـنّها لم تكـن لتفهـم التّفسـير المنطقـي لـه لذلـك أجابها

- يكبر القمر ويصغر بحسب أحلامنا
- و هل تصغر أحلامنا و تكبر يا أبي ؟
- لا ليست هي من تصغر وتكبر فهي إمّا أن توجد أو تنعدم .
- .. إذن ماذا !!
- تكبر الأحلام و تصغر حسب رغبتنا في تحقيقها.

حاربـت عائشـة ابتسـامة كانـت سـتخرج مـن شـفتيها باخلـة حتـى نفسـها منهـا وهـي تسـتغرب كيـف أنّهـا صدّقـت كلّ مـا كان يقولـه والدهـا في صغرها ، كـم كانـت تافهـة وسـاذجة !!

قامـت مـن فراشـها وخرجـت مـن ذلـك الخـمّ كـما كانـت تنعتـه ثـمّ جلسـت تحـت شـجرة التّـين في الظّـلام وهـي تنظـر إلى السّـماء وقـد اسـتقرّ القمـر هـلالا صغـيرا وسـطها .. تنهـدّت بعمـق وهـي ترفـع عينيهـا عاليـا نحـو السّـماء وتفتحهـما أكـثر و أكـثر و هـي تـردّد بداخلهـا "منـذ مـدّة طويلـة لم ألمحـك بـدرا أيّهـا القمـر!!

****

"جميعنا كؤوس ممتلئة بالحزن و قطرة واحدة إضافية منه .. تجعلنا ننفجر !!"

كان لعاب ذلك الذّئب يسيل على صدر عائشة ويلتهم شفتيها غير عابئ لصوت صراخها ، ركلته بعيدا و يبدو أنّ هناك الكثير من الذّئاب الأخرى التي راحت تقترب منها وعيونها تقدح رغبة في القضاء عليها، بدأت تستنجد أباها بالصّراخ عندما أيقظتها أمّها وهي تصرخ عاليا باسمها وتحاول المسكينة أن تجرّ ساقيها المعاقتين نحوها ،قامت عائشة مفجوعة وارتمت على صدر أمّها وهي ترتعد من الخوف .

- نفس الذّئاب يا أمّي تحاول التهامي مجدّدا .

- استعيذي بالله يا حبيبتي إن هي إلا كوابيس لا أفهم لماذا ترين هكذا أحلام أنت التّقية الدّؤوبة على صلاتها .

ارتخت عينا عائشة فجأة وقامت من على صدر أمّها وكأنّها تذكّرت أنّ تلك الرّأس الوسخة لا يجبّ أن توضع على ذلك الصّدر الذي لا يتوقّف عن ذكر الله ،أحسّت أنّها حاجز بينه وبين وصول نور الله إليه لذلك قامت متجاهلة الكثير من علامات الاستفهام التي تقبع على وجه أمّها . في تلك الحجرة الضيّقة من الزّنك استحمت وهي تشعر أنّ الذنوب أكثر من أن يغسلها الماء لذلك وضعت سجادتها وراحت تلقي بها أمام باب الله طمعا في أن يغفر لها ويكفّر عنها ما تفعله...ولبثت كذلك حتى سمعت آذان الفجر فقامت تيمّم أمّها للصّلاة ، أمّها التي كانت تسمع رقرقة الماء على جسد ابنتها في جوف اللّيل القاسي ، أمّها التي لا تجد لحشرجة ابنتها على سجادة الصّلاة مبررا هي التّي تعلم أنّ ابنتها

أنصع بياضا من ثلجة ، أرق قلبا من ريشة ، أفوح عطرا من وردة !! عندما همّت عائشة بالخروج سألتها أمّها أن تهتم بنفسها وأن تطلب من ابنة جارهم أمين زيارتها ،لم تنبس ببنت شفة ألقت بشفتيها الباردتين المرتجفتين على جبينها وراحت إلى حيث تأتي كوابيسها كانت قبل الشّمس تطفو على وجنتيها عندما ركبت سيارة أحمد ، و تعجّبت كيف تكوّمت تلك الرّائحة مقدّمة منخاريها لمجرّد دخول السّيارة. أخبرها أنّها المرّة الأولى التي يراها دون مكياج ورغم ذلك فهي تبدو أشهى وألذ ... أحسّت بيديه تشدان خصرها وتجذبانها بقوّة إلى شفتيه، تعشق هي رجولته المباغتة لكن فجأة تحوّل فمه الصغير المكتنز إلى أنف طويل ممتد ينتهي عند أنياب حادّة ، و يداه إلى مخالب توهمت أنّها تبغي تمزيق خصرها فهربت من قبضته مذعورة وراحت تشهق وهي تغطي وجهها بكفيها .

- ما بك حبيبتي ؟ ماذا أصابك ؟
- لا شيء .. دعنا نمضي.

هناك في الجامعة مرّت عائشة بابنة عمّها أمين ،لم تكن صديقتها المفضّلة ولم تكن تروقها كثيرا أو ربّما كانت تغار منها هي التي لا تتوانى أمّها عن شكرها في كلّ مقام أخلاق .كما أنّها تكره سرعة سيلان دموعها عند كلّ ما يدعو أو لا يدعو لذلك كما تحسدها أيضا على كثرة صديقاتها ، الشّيء الذي تفتقده منذ الصغر .

– – –

ما رأيته على وجه عائشة يومها كان حدادا للعديد من الموتى ، كأنّه

لفارس خرج لتوّه من حرب ضروس خاسرا ،بل كورقة خريف مهزومة ، حتى أنّها كانت تسير خلف أحمد بعدّة أمتار فيسترعها بين الحين والآخر . ما إن رأتني حتى حادثته قليلا و قدمت نحوي ، أنا أحسُّ أنّها لا تتحمّلني فكثيرا ما كانت تمرّ عليّ دون حتى أن تكلّف نفسها عناء إلقاء التّحية لتبرّر إذما عاتبتها أنّها لم تلحظني .

بقدر الحبّ الذي أكنّه لها فتحت ذراعي لأحتويها لأفاجأ بها تلتصق بي بقوّة و هي تستجديني أن أنقذها ، كان جسدها أكثر ضآلة من جسدي عندما ضممتها و دموعها أحرّ من أن تمسحها أناملي دون أن تحترق وأغزر من أن تتشرّبها مناديلي. أجلستها بجانبي ورحت أربّت على كتفها محاولة غمرها بالقليل المتبقي من دفء صدري .

- ما بك حبيبتي؟لم كلّ هذه الدّموع ؟ هل حصل لخالتي مكروه؟

اندهشت لوسع الحفرة التي خلفها رأس عائشة الثّقيل عند سحبه من على صدري ، تفرّست في وجهها علّي أجد على قسماته إجابة على سؤالي لكنّني توقفت عند شفتيها أنتظر ردًّا دون جدوى .

إمّا أنّها لا تثق بي أو أنّها لا تحبّ مشاركتي ألامها ..مسحت دموعها في عجلة و قالت وهي تنظرني بجدٍّ وقسوة .

- اطمئني أنا بخير ، ماذا عنك ؟

كان جوابا متوّقعا لسؤالي الغبي ولم أكن أنو السّكوت عنه لذلك كرّرته مرارا ما وجدَته عذرا لقيامها متململة و لم أفهم منها إلا أنّ أمّها تريد منّي زيارتها .

بعد الظهيرة زرت خالتي آسيا ، كان كوخها حذاء إحدى مزابل الحيّ ولم

يكـن أحـدٌ في الجامعـة يعلـم ذلـك غـيري ، أنـا لا أعـرف قصتهـما كاملـة لكنّنـي ومـن خـلال مـا روتـه عـليّ خالتـي عرفـت أنّهـما كانتـا تعيشـان في دار للكـراء و عنـد سـوء حـال خالتـي آسـيا لم يعـد هنـاك مـن يسـدّد الفواتـير الخاصـة بالبيـت فانتقلتـا للعيـش هنـا في هـذا الكـوخ الـذي بنـاه لهـما رجـل كثـيرا مـا كانـت تكنّيـه عائشـة بـــــــ "أبي كـرش "كلّـما سـبّت الكـوخ ..

منـذ مـدّة لم أزر خالتـي آسـيا لذلـك كنـت أجمـع في حنجـرتي بعـض عبـارات الاعتـذار الّتـي تخفّـف عنّـي ثقـل لومهـا وعتابهـا .

دفعـت بقـوّة البـاب الزّنـكي لـكي تشـعر خالتـي بدخـولي فـلا تخـاف ، كنسـت الكـوخ بناظـري فاندفعـت رائحـة الحـزن إلى أنفـي قبـل رؤيـة جسـد خالتـي الملقـى عـلى السّريـر في إحـدى زوايـاه ، سـمعت أحـدا يحادثهـا قبـل أن أدخـل ليتوقّـف عنـد رؤيتـي. بـدا رجـلا خمسـينيا ضخـما ببطـن كاليقطينـة أمامـه فلـم أشـك لوهلـة أنّـه أبـو كـرش لكـنّ شـيئا في عيونـه كان مريبـا أنـا التـي لا تخفـى عـليَّ لغـة العيـون !

رحّـب بي مـرارا محـاولا أن يخـدع نظـرات عيـوني بحنـان كلماتـه ، دنـوت مـن خالتـي و جلسـت إليهـا وأنـا أقبّـل جبينهـا جاعلـة يديهـا الباردتـين بـين يـديّ أدلكهـما علّهـما تسـكبان عليهـما بعـض الـدّفء .

- هيثم صديق العائلة .. صديقة ابنتي عائشة .

تقديـم خالتـي للرّجـل لم يكـن موفّقـا، كيـف يمكـن أن يكـون صاحـب تلكـما العينـين صديقـا ، فهـما باردتـين بحيـث يبـدو قاتـلا مأجـورا لا أكـثر حسـب اعتقـادي .أومـأت لـه مبتسـمة و كذلـك هـو في بـرود فعـل ليسـتأذن مغـادرا و لا أدري سـبب لحـاق رجـلاي بـه إلى سـاحة الكـوخ .

- لحظة ...أرجوك !

بـدا و هـو واف أكـثر امتـلاء منـه جالسـا ، اقـترب نحـوي و قـد لثمـت عينـاي حمـرة عينيـه فـسرت عـلى جسـدي قشـعريرة .

- منذ متى تعرف عائلة خالتي آسيا ؟

- منذ وقت بعيد...

علمتنـي سـنون حيـاتي القصـيرة أن أثـق بأولائـك الذيـن لا تكـون أجوبتهـم عن أسـئلتنا أسـئلة أخـرى لذلـك بـدا لي أبـا كـرش صادقـا إلى حـدٍّ بعيـد ثـمّ إنّي لاحقـت عينيـه وهـما تسـافران عـبر الزّمـن ...فأضفـت سـؤالا آخـر :

- كيف صارت خالتي على هذه الحالة ؟ وأين والد عائشة ؟

خلتـه سـيجيب مبـاشرة كـما فعـل مـع السّـؤال الأوّل لكنّـه دحجنـي بنظـرة طويلـة ثـمّ قـال :

- لا أفهـم كيـف تكونـين صديقـة لعائشـة و أنـت لا تعرفـين مثـل هـذه الأمـور عــن العائلــة !

أحرجني سؤاله لدرجة أنّه جمّد الحروف في حلقي فحرت ردّا.

- نحـن صديقتـان منـذ سـنتين لكـنّ عائشـة كتومـة و منطويـة بالـكاد تــسرّ لي بخصوصياتهــا وكلّــما فتحنــا هــذه المواضيــع تتهــرّب.

- إذن لا تسألي عنها مجدّدا ..بكلّ بساطة !!

بـدت نبرتـه بالجملـة الأخـيرة قاسـية كأنّـه تنفـس الجحيـم في وجهـي و كان يمكـن أن يكـون أكـثر لباقـة منـه الآن فذلـك الكـمّ مـن الحـروف قـادر عـلى أن يصـيّر كلـمات حنونة...تبـاً لـه كـم يشـبه عائشـة !

"أحيانـا ننـسى كـم مـن الوقـت قطعنـا مـن حياتنـا لـلآن ، نتمثّـل القسـوة و

الحلـول السّـهلة ،نبتعـد عـن متاهـة الحيـاة ودوامتهـا و نلعننـا في داخلنـا مـا إن يمـضي بعـض الوقـت لأنّنـا أدركنـا فجـأة أنّـه كان بإمـكان الأمـور أن تسـير عـلى نحـو مخالـف لـو نحـن لم نتـسرّع القـرار الصّـواب في وقتـه الخاطـئ.. بعـد زمـن ."

وأنـا عائـدة إلى المنـزل ، كانـت كلـمات خالتـي آسـيا تتثـاءب مللـا مـن كـثرة مـا كرّرتهـا في داخـلي، أيّ حـلّ سـهل اتخذتـه وكيـف كانـت سـتكون الأمـور لـو أنّهـا سـارت عـلى نحـو مختلـف !!

عندمـا عـدت إليهـا لمحـت ملامحهـا المتغـيّرة فأدركـت أنّهـا سـمعت أسـئلتي لهيثـم ،لاحظـت أثـار الخيبـة عـلى ملامحهـا فتنفسـت بعمـق واعتـذرت. قالت كلماتهـا تلـك ثـمّ سـألتني أن أشـدّ أزر عائشـة وروت لي عـن الكوابيـس التـي لا تفتـأ تنغّـص بيـاض أحلامهـا فذكـرت نحيبهـا عـلى صـدري صبـاح اليـوم و لم يكـن بيـدي مـن حيلـة إلا أن صبّرتهـا وطمأنتهـا بخـير أنـا نفـسي لم أكـن مقتنعـة بـه ، لكنّنـي مـا إن رأيـت السّـكينة وهـي تحـطّ رحالهـا عـلى وجههـا تذكّـرت قـول نضـال مـن أن " فاقـد الـشّيء يعطيـه ".

تـأوّه السّريـر مـن كـثرة مـا تقلّبـت عليـه ، مـن قـال أنّ أمـر عائشـة أو حتـى أمّهـا و أباهـا يهمّاننـي ، أنـا السّـاعة لا يهمّنـي إلا أنـت . أينـك وفي أيّ فلـك تسـبح؟ هـل يـا تـرى تزوّجـت أم ليـس بعـد !!مـن أيـن لي بأخبـارك و مـن سـيأتيني بهـا !!

زاد شـوقي لـك في صـدري لدرجـة خنقـي و منـع تـوالي الأحـداث و كثرتهـا مؤخّـرا مقـدرتي عـلى جلبـك بنفـس البريـق و لـن يصـدّق أحـد أنّنـي مشـيت نحـو المطبـخ ، بحثـت عـن السّـكين لتقشـير حبّـة البرتقـال فزارتنـي بعـض

الأفكار الجهنميّة ،كنت سأرشقها في إصبعي لولا أنّ صوت أبي انتشلني من غياهب اللّاوعي ، لمحت الخوف في عينيه لكنّني طمأنته بأنّني جعت فجأة و لم أجد إلا البرتقال فصدّقني دون أن أكلّف نفسي عناء التّأكيد ..تنهدت بعمق وأنا أسمع صوت تثاؤبه وهو يسير في الرّواق نحو غرفته.

سبقني الملل إلى طاولة الطعام ، لويت أصابع يدي على خدّي وأنا أحاول استعطاف طيفك ،كيف سأنام بدونه ، هل تراه غار لأنّني كلمت نضالا اليوم ، لكنّنا لم نتكلّم إلّا عنه..جعلت أغنّي بصوت خفيض لأسمع صدى صوتي يتكرّر بنبرة مختلفة ..نبرة أعرفها جيّدا ..إنّها نبرتك !!

أدنيت الكرسي الذي بجانبي إلى كرسيي ثمّ جلست وتحدّثنا كالعادة و في مواضيع كثيرة ..قبل أن أتوسّد سريري فتشرّب وسادتي دموعي قبل أن أغفو !!

****

"هواك كثير عليّ ...و قلبي على نار قلبك لا يستطيع !!"

مهدي منصور

"التقينا في زمن صريح يتشرّب النّور من تحت قدمي الشّمس، لم تكن خائنا ولا كاذبا و لا زنديقا ..كنت ذلك الرّجل الذي أعرفه ولا أعرفه ،مليئا بالحياة ، بالأمل ، بالنّور ، أهديتني الحياة في عناق مميت ضمّتك رموشي بقوّة وأنا أدعو " يا الله دعني أضمّه بعد ...دعني أضمّه أكثر .." و استجاب لي وضممتك أقوى وأشرس ،أردتك أن تحيا بين رموشي لكنّني قتلتك ، قتلتك ببرود وأنا أغنّي "قسما بالحبيبات الفاسقات إن لم تكن لي ،فكلّهن للممات " كان توأمك معنا رآني كيف كنت أختصر خطوات العمليّة ،أردت أن يسير كلّ شيء بسرعة وتموت بسرعة كي لا تتألّم لأنّك إن تألمت سأموت !!

ولأنّ ضمّي لك كان عنيفا رحلت في اليوم الموالي ، رحلت هربا من ركام الحبّ داخل عيوني ،رحلت و تركت أطياف المكان تئنُّ بقلبي ،توسّلتك أن لا تتركني ، أخبرتك أنّني سأمتهن الشّر من أجلك ،سأتمشخص كلّ الفتيات من أجلك ، فقط لتتلذّذ من عينيك مقلتاي و تسطو على حروف شفاهك أذناي لكنّك لم تعرني أيَّ اهتمام وبقيت أنتظرك على شفا الأيام وكنت تحسُّ لهفتي للجلوس على عتبات قلبك فقد كنت آتيك كلّ يوم تقريبا ، أطرق الباب مطوّلا وأعود وأنا أجرّ أذيال الخيبة لكنّني أبدلها بأحسن منها وأعود في اليوم التّالي . طرقت الباب بعنف ،بحنان ،بلهفة،

بخيبـة ، بحـزن ، بأمـل، بحيـاء ، بتمثيـل ، وكنـت بالدّاخـل لكنّـك لم تفتـح لي أبـدا ،تجمّـد الـدّم في كفّـاي...أردت أن أخـبرك أنّنـي حامـل بـك في شـهري الأوّل وأنّنـي لـن ألـدك حتـى أمـوت ، أردت أن أخـبرك أن أعـراض الحمـل بـك بـدأت تظهـر فأنـا أتقيّـأ اسـمك مـرارا و أرغـب بـك كوجبـة يوميـا ،كـما أنّنـي لا أقـوى عـلى البقـاء دونـك ولا ثانيـة ...

يومهـا جئتـك أحمـل تحاليـل الحمـل و كلّي فـرح ،طرقـت البـاب وأنـا متأكّـدة أنّـك بالدّاخـل لكنّـك لم تفتـح وطرقـت مجـددا ومجـددا لكـنّ فـؤادك لم يـرقّ لي و لا لضعفـي ،جلسـت عـلى العتبـة وأنـا أبـكي بحرقـة والشّـمس تتـشرّب مـا ينـزل مـن دموعـي ، وفجـأة، فتـح البـاب فاسـتدرت لعـلّي أراك هنـاك واقفـا وقـد شـقّ نـور الشّـمس وجهـك إلى نصفـين، نصـف يحنـو عـليّ ونصـف يوصيـه أن يزيـد حنـوا ..لكنّـك لم تكـن هنـاك !!

كـما السّـنبلة أيـام الصيـف انحنيـت وعـزف الحـزن مقطوعتـه بقلبـي و رقـص الألم والصّـبر معـا رقصـة الحيـاة. دلفـت غرفتـك حيـث كان كلّ شيء فيهـا يعبـق بالفـرح بينـما ينـام الحـزن في غرفتـي ، الأوراق تتراقـص عـلى مكتبـك رسـائل الغـرام والحـبّ والحيـاة بينـما تبـكي أوراقـي المهزومـة بحرقـة ولم أكتب عليهـا شـيئا...يا لسـخافة تلـك المعادلـة ،ألتلـك الدّرجـة كنـت ضئيلـة عنـدك! ألذلـك الحـدّ كانـت مشـاعري لا تثـير عنـدك حتـى قليـلا مـن الإنسـانية!! أكان لزامـا عـليّ اسـتهلاك كلّ ذلـك الألم الممـزوج بالأمـل بينـما كنـت تخطّـط لمـشروع آخـر مغايـر تمامـا ، مـشروع لم يكـن لي فيـه دور ،بينـما كنـت ملـك كلّ مشـاريعي،أواضح لهـذه الدرجـة أنّهـا فاشـلة حتـى قبـل أن تبـدأ !!!

شـعرت فجـأة بوخـز في صـدري تعطلـت السّـاعة في قلبـي وهـي تشـير إلى

الموت الآن وكان مؤشرك يدور بفرح داخل ساعة حائطك ينبئ عن مقدم أيام مفرحة..

جثوت على ركبتاي وسط الغرفة وأصوات المدافع برأسي تطلب العدالة ، لتظهر هناك فجأة مرتديًّا ثوب الصّمت الذي تلبسه نفسك دائما و أبدا، كنت قويًّا بما فيه الكفاية لتنتشلني من وسط نزيفي ،داعبت وجهك بأناملي لأتحقّق أنّك حقيقة ، فتركت أناملي بقعا من الدّماء على خدّك ولحيتك، نظرت إليك ولسان عيوني يستجديك أن كيف جعلتني أجهضك بتلك الوحشية ، ألذلك الحدّ كانت دروب لقائنا منعدمة .كنت أتقاطر على الثّرى من حرارة كفّيك ..أجنحة الملائكة كانت تشيّعني إلى مثواي الأخير، أحسست بتزاحم الرّوح في حلقي و بالتهام العتمة للنّور المتوزّع في جسدي ،خفت أن يلتهمك أنت الآخر تشبثت بك بقوّة واقتربت من أذنك وأنا ألفظ آخر الكلمات، وقتها ،كان توأمك ما يزال ينظرنا و كالطيف يلاحقنا. عكسك تماما كان هو ،كيف لا وقد ولده قلمي قبل حملي بك ،أنتما ولداي لكنّكما مختلفان تماما .

همست لك "أحبك ..أنا لن أتركك تتقاطر مثلي أبدا .. "

نظرت إليّ في شفقة لتتدحرج الحروف من على شفاهك بسهولة ، ألحقتها بابتسامة ساخرة "أنت بخير صدقيني وقلبك قوي وستعيشين عمرا أطول وأسعد "

انفجرت كمية الدّماء بجسدي لتخرج من عيوني وفمي و منخاريَّ . أردت أن أدنو فأقبّل شفتيك لكنّ العتمة كانت تنتشر بسرعة وانفجرت الشّمس بداخلي وتناثرت في الأثير ،كان آخر ما شعرت به هو ذراعي التي كانت

تخنقك من شدّة ما بشوق طوقتك و شعرت أنّني أهوي من السّماء في بحر من الدّماء ، أغمضت عيني دون إرادة منّي على وجهك أنا التي لا أشبع منك...حال ذلك الضباب اللّعين بعيني بين وجهك وبيني وبدأت ملامحك تختفي شيئا فشيئا إلا نور عينيك بقي يحارب الضّباب ، لكنّ الضّباب كان أقوى والعتمة كانت أقوى والدّماء كانت أقوى ،والموت... الموت كان أقوى !!!"

- أنت هنا يا شيخنا و نحن نبحث عنك !!

انتشله صوته من غابة الحروف التي يسبح فيها ،كانت حروفا ممزّقة، خائبة ..و حزينة جدّا .

- لمن هذه الدّفاتر ؟
- إنهّا لابنتي الكبرى ...تحبّ الكتابة !!
- هل قرأت ما تكتب ؟
- كلا لم أفعل لكنّها تقرأ علينا من وقت لآخر بعض ما تكتبه .
- أين هي الآن ..هل لي بالجلوس إليها !!
- طبعا ...سأنادي عليها .

عندما دخلت غرفتي فوجئت بالشّيخ وقد جلس إلى مكتبتي وراح يعبث بدفاتري ، ويطّلع على غيب سطوري ..اعتراني غضب شديد خفّف وطأته بياض شعر رأسه ولحيته فزفرت غضبي وسرت نحوه .

- السّلام عليكم ...استدعيتني يا شيخنا !؟

لمحت الحروف وبعضها يزدحم والآخر يزدرد في حلقه وشعاع يحارب كي لا ينطفئ في عينيه ، لقد كان نفسه الشّيخ المتسوّل على رأس الشّارع

أنظـف قليـلا في عبـاءة أبي البيضـاء بعـد الحـمام الطويـل الـذي أخـذه في بيتنـا.

- هممممممم ...إذن هي أنت !!

مؤكـدٌ لم أفهـم مـا يرمـي إليـه لكنّنـي لوهلـة خفـت مـن نظراتـه التـي تلتهـم بؤبـؤ عينـيّ، سـبح ببـطء فيهـما دون أن ينبـس ببنـت شـفة مـا جعلنـي أصمـت أنـا الأخـرى محاولـة الإبقـاء عـلى رسـم الابتسـامة عـلى ثغـري كي لا يحـسّ بنفـوري أو خـوفي منـه.

- صفيني في ثلاثة أسطر؟

- ...نعم !!

- أقصد أكتبي لي ثلاثة أسطر ؟

كان شـيخا غريبـا جـدًّا ، في بيتنـا !داخـل غرفتـي ! عـلى مكتبتـي !يسـألني كتابتـه في ثلاثـة أسـطر ! ولأنّـه شـعر بارتبـاكي قـال بهـدوء :

- أهذا صعب عليك !!

- كلاّ ...أبـدا ولكـنّ الطلـب كان فجـأة وأنـا نـادرا مـا أكتـب مـن بـاب الواجــب.

- حاولي...

أمسـكت قلمـي وكراسـتي وأنـا أتوسّـل الحـروف أن لا تخيّبنـي أمـام هـذا الشّـيخ الوقـور المتسـوّل .

- تفضل؟

أمسك الورقة كمن يسرقها و دسّها في عباءته ثمّ قال لي كأنّه يحاضرني :

- أخبريني عنك ؟

- قـال أبي إنّـك تقـرأ الأفـكار ..لذلـك أظـنّ أنّ السّـؤال الأصّـح كان

سـيكون "هـل أخـبرُكِ عنـكِ يـا شـيخنا !! "

اتّسـعت مقلتـاه تلقائيـا وأحسسـت لـون الحيـاة يتكشّـف في عينيـه .هـدوء مـرج أيـام الرّبيـع ،عاصفـة بحر أيـام الشّـتاء ، زلازل وبراكين بداخلـه ...لم أعتقد لوهلـة أنّ قـدوم الشّـيخ عندنـا كان صدفـة خاصّـة أنّنـي أؤمـن أن كلّ شيء يحصـل بسـبب ولسـبب ،لا أدري... لكنّنـي أحسسـتني أعرفـه منذ زمـن طويل.

- لكـنّ أبـاكِ لم يخـبرك بـكلّ الحقيقـة فأنـا أقـرأ الأفـكار التـي تعلـو بهـا أصواتنـا ، لا الأفـكار المعتقلـة في بـرزخ انسـلاخ الـشّر و الخـير ، قـوّة انجذابهـما عنـدك رهيبـة ..كيـف تشـعرين السّـاعة !!

- بالرّضا ...ربما !!
- لكنّك وحيدة ..
- كلّا أبدا ...هو ما يزال بجانبي !!
- كفاك هراء ..لقد رحل .. رحل إلى حيث لا رجعة .
- لم يمت بعد !
- أنت عميقة جدا .
- قليلا !
- أخبرتك عنك .. أخبريني عنه !
- عادي..
- لا أظنّ هذا الجيش من الحروف يرضخ لرجل عادي .
- صدقني هو شخص عادي .. أنا التي لست كذلك !!
- مادام كذلك فأخبريني ؟

طأطـأت رأسـها و ذهـب فكرهـا بعيـدا بالـكاد كان الشّـيخ يسـتطيع ترتيـب

أفكارها فقد كانت متشابكة. يأس و قنوط ، دموع و لوعة ، حنين وشوق ، عتاب ولوم .كاد يصاب بالصّداع لولا أنّها زفرت فارتاحت تلك الأفكار قليلا. نظرت إلى عينيه مباشرة فشعر كأنّما فقد توازنه ، بريئة ظمأى ، نظراتها مربكة ، عيون سريعة الانطلاق بالدّمع تحجّر فيها الأرق والسّهاد ، تجوّل عبر أطلاله في عينيها ،لم يملك عتابه لـِما أدمى من عيونها لأنّه كان حسب دفاترها بريئا طاهرا .

- إنّه " أنا "

- رائحة طيفه تعمّ الغرفة ، إنّه يسكنك ..ببطئ يتنفّسك ،كالدّودة ينخر عظامك ..هكذا ستدمرين نفسك !!

نظرت إليه مجدّدا لكن أعمق و بابتسامة حزينة . علم أنّها سمعت ما قاله توّا من كثر قبله لكنّه لم يجد بدّا من سماع رأيها فيه . قالت وهي تهرب عنه بعينيها :

- هه !!مجنونة بني كامل...ربّما !

تمثيل نفسها بمجنون بني عامر كان قاسيا جدّا ، تعلم هي أنّه قاسى في حبّ ليلى وجُنّ في سبيله كما وأنّها لابد تعلم أيضا أنّ التّمثيل أبدا كان خاطئا ، فليلى كانت تعلم ما يقاسيه المجنون في سبيل حبّها وتصلها شرارة شعره الحارّ فتحرقهما معًا،تعلم هي أيضا أن ليلى كانت تبادل المجنون جنونه وتعاني كلومه ، أمّا هي فالوحيدة التي تصطلي على تلك الضّلوع المحترقة في صدرها و عظام حروفها تضمّ بعضها بعضا فتزيدها اضطراما. الحروف التي تبادلاها سرّا كانت أكثر من تلك التي تبادلاها بصوت مرتفع فد حاولت قصارى جهدها أن لا تنهار أمامه ، تمدّد شبح الصّمت

عـلى مسـافة مـا بينهـما فكسرتـه أختهـا التـي دحجـت الشّـيخ عنـد رؤيتـه بنظـرة ازدراء واضحـة ،كانتـا مختلفتـين تمامـا ، قطبـين متباعديـن .فكّـر الشّـيخ وقـد قـرأ في عيونهـا مـا تخبّـئ لـه بـين ضلوعهـا .

- يدعوكما أبي للنزول.
- رشاد!!

أحـسَّ بهلعهـا و برعشـة الرّعـب في أوصالهـا وسـمع سـؤالها الخائـف وهـو يرتجـف بـين شـفتيها . أن كيـف عـرف اسـمها !!

****

" أعمق الجراح و أكثرها استنزافا لأرواحنا ، هي تلك التي تأتينا من أقرب النّاس إلينا !! "

كنت ما أزال أشرب الكأس بعد الكأس عندما رنّ هاتف أحمد الذي كان قد غطَّ في نوم عميق لشدّة ما أعياه العبث بأعضائي...كنّا قد دخلنا في الجزء الثّاني من اللّيل ، ولم يكن يبرح ذهني صورة أمّي وقد تركتها لوحدها ليلا طيلة هذا الأسبوع مدركة أنّ هذا أشنع ما أقوم به في حياتي. بسهولة أقنعتها أنّه يجب عليّ العمل ليلا لأدرس نهارا ، استفسرت كثيرا عن المكان وعندما قلت أنّه مطعم نصف ليلي صدقت .

عتاب أبي وحده حاليا كافٍ لجعلي أعدم صوت شخير أحمد ، لكنّني أتأسى بوعوده لي بالزّواج ،وعوده الّتي ما ألبث أشكّ فيها لقصر زمن نقاشنا حولها.

تمطّطت وأنا أمدّ يدي نحو الهاتف فبالكاد أتحمّل صوته الشّبيه بأزيز الطائرة ،كان رأسي ثقيلا و الشّاحنة ما تزال تبتر أعصابي كأنّها سنابل ناضجة .أم هل تراه رأسي غيوم و هذا أزيز طائرة تشقّ طريقها من خلالي "لن أغفر لك ، أقسم لن أغفر " زاد صدى أزيز الطائرة و سرعة الشّاحنة في البتر ، أحسست كأنّما كنت نائمة وأعضائي مستيقظة تنظرني.. لا بل العكس، أعضائي نائمة و أنا مستيقظة أتأمّلها. مددت ذراعي مجدّدا ،كدت أصل إليه لكنّ الرّنين توقّف قبل وصولي "تبًا ..عليه اللّعنة !!" تمثّلت لي صورة أبي وهو يعاتبني و يسألني عن جغرافيتي من خارطة الشّرف ،كانت يده الثّقيلة تزيد في عدد طيّات ما بين حاجبيه، ابتسمت

بـبراءة وأنـا أتذكّـر كـم مـن مـرّة عددتهـا و أنـا أقـف عـلى ركبتيـه ،آخـر مـرّة فعلـت قـال بأنّنـي زدت طـولا ووزنـا..

تبًّا عـاد ذلـك صـوت أزيـز الطائـرة مجـدّدا ، لكنّنـي لا أميّـز إذا مـا كان ذاتـه الأزيـز في بيتنـا القديـم أم هـذا المحمـول المشـؤوم المسـتلقي بجانـب هـذه الجثـة النّائمـة .

أمّـي الكاذبـة سـألتها مـرارا عـن المتّصـل لكنّهـا لم تخـبرني ،كانـت تجـري بي في الشّـارع كالمجنونـة ، وكنـت أودّ إخبارهـا أنّ حـذائي قـد انتـزع مـن رجـلي ، لكنّنـي مـا إن ناديـت باسـمها حتـى زمّـت فمّـي براحـة يدهـا بقـوّة وهـي تطلـب منّـي أن أغلـق فمـي قليـلا، وتهـدّدني بالـضّرب إن أنـا أعـدت الكـرّة. وحقـا جاءتنـي ضربـة مـن كفّهـا سـاخنة عندمـا ناديـت عليهـا مـرّة أخـرى ، أحسسـت كأنّمـا سرنـا بعدهـا أو عـلى الأغلـب جرينـا وكفّهـا عـلى خـدّي أشـدّ عليهـا بقـوّة مخافـة أن تبقـى أمّـي بـلا كـفٍّ ولا أتـذوّق كعـك الفراولـة اللّذيـذ مجـدّدا مـن يديهـا.

عـاود الرّنـين مـن الجهتـين هـذه المـرّة، ملـت بجسـدي عـلى تلـك الجثـة و بالـكاد تحمّلـت رائحـة العـرق المنبعـث منهـا ، رأيـت كأنمـا أسـبح في بركـة مـن الدّمـاء. تزايـد ضجيـج النّـاس ورنـات الموسـيقى والإسـعاف في أذني .توقّـف الرّنـين مـن الجهتـين هـذه المـرّة ، أحسسـتني شـاحنة ...كلا بـل كان أبي في شـاحنة !! أو تـراه كان أبي شـاحنة لكـنّ الشّـاحنة تبـتر السّـنابل...أم هـل تراهـم اخترعـوا شـاحنة لبـتر البـشر.

بعـد مـدّة قصـيرة سـمعت رنـة وصـول رسـالة مـن الجهتـين ، قرأتهـا أمّـي عـلى عجلـة ثـمّ راحـت تكنـس الشّـارع بعينيهـا المذعورتـين الجاحظتـين ، كنـت مـا

أزال واضعة يدي على خدّي عندما وقع بصرها على الشّاحنة. و هممت أخبرها من قبل أن تضربني أنّ أبي بداخلها لكنّها لم تعرني اهتماما ، أردت طمأنتها إلى أنّنا الآن بأمان وليس علينا أن نكمل فرارنا من أحد لأنّه لا و لا أحد في العالم يجرؤ على أذيتنا وأبي بجانبنا !!

"حبيبي قلقة أنا عليك جدا. لم تتّصل بي طيلة الفترة المسائيّة. ستندم عندما تستيقظ كيف تنام دون أن تسمع صوت خطيبتك أو امرأتك ملكتك كما تزعم دائما "

كأنّما مرت تلك الشّاحنة مجدّدا على عيني بعد ثلاثة عشر عاماً ،لا أدري كيف ما أزال أتنّفس رغم ذلك الكمّ من الدّماء في فمي وعيوني .نعم كانت هناك شاحنتان صفراوتان واحدة على هاتف حبيبي الذي كنت أظن أنّه سيتزوّجني يوما ما من المستقبل وأخرى تقف على رأس الشّارع .مرّت الأولى على عيناي ففقأتهما ومرت الثّانية..

نعم مرّت..

ببساطة مرّت..

هكذا... مرّت !!!

سمعت صوت هدير محرّكها عندما أدار أبي المفتاح ،نفس الصوت الذي كنت أسمعه و قدوم أبي وقت العصر لا بل أقوى قليلا ، تماما كشخير هذا الذي أنا على صدره الآن... أفلتُّ يد أمّي و أنا أحسّ بخطوط كفّها تستجديني أن لا أرحل ..

- عائشة! ؟

شعرت أنّني أسمع صوت أمّي باسمي لأوّل مرّة ،لم أجد مبرّرا للخوف

المستيقظ مرعوبا داخل عينيها و كأنّما غرست ساقاها في إسفلت الأرضية أيضا فلم تتقدّم أو تتأخّر خطوة ..رجعت إليها ، جذبتها من كلتا يديها للأمام نحو أبي لكنّها كانت ممتقعة و عينيها على رأس الشّارع ، ضمّتني طويلا وقبّلتني و العبرات تتحدّر من على محاجرها مسحتها من عليهما ثمّ قبّلتها قائلة " مااااامي لماذا البكاء فقد جاء باااابي "

أفلتها ووقفت وسط الطريق و أنا أعقد يدي كالبلهاء وسط خصري "إن لم تنزل فورا سأحرمك من القبل لمدة شهر ومن كلمة أبي لمدة أسبوع... " أطرقت لحظة فكّرت فيها أنّني لن أصبر على ذلك أنا الأخرى ثمّ أضفت كالمجنونة "ولأنّني أحبّك سأقلّص المدّة إلى نصفها "

كان أبي منطفئا.. عيناه كانتا مسمّرتين على أمّي و هي أيضا...

"مااااامي لماذا لا يسمعني.... "

ولا أدري أأكملت تلك الجملة أم لا عندما ازداد صوت أزيز الطائرة في رأسي وكذلك صوت اقتراب الشّاحنة الصّفراء من عيوني ..

وهكذا مرّت... ثمّ فرّت !!!

أنا الوحيدة في العالم التي تجيد العزف على أنغام جروحها دون أن يتفطّن إليها أحد.. أحبُّ الشّاحنات لأنهّا لا تشعر بشيء عندما تبتر أحدا.. أحيانا كنت أصلّي لربّي كي يحوّلني إلى شاحنة وألحُّ عليه في ذلك ، كذلك أبي كان يومها شاحنة وكذلك أحمد أصبح اليوم شاحنة... هل يا ترى ألحّا هما كذلك في الدّعاء إلى الله حتّى حولهما إلى شاحنتين..

ارتديت فستاني بصعوبة فقد شربت اليوم على غير عادتي ، شعرت وكأنّني أُلبسني الموت مجدّدا... طار الأمل من عيون مستقبلي كما

تطايـرت أمّـي في السّـماء ، لقـد أرادت أن تتحـوّل إلى طائـرة هههـه !.. غبيـة أنـا كيـف نسـيت أن أعلمهـا قوانـين المـرور، لكنّهـا مـن علمنيهـا بففـف !!... لم أعـد أفهـم هـذه المفارقـات .

سرت نحوهـا ببطـئ ونظـرات أبي تشـدُّ عـلى قلبـي بقـوّة، أخلـق اللـه صـورة طبـق الأصـل عـن أبي أم حقيقـةً كان ذلـك أبي !!

أبي، أبي !! .. أبي نفسـه الـذي كان يضمّنـي وإيّاهـا بقـوّة و هـو يخبرنـا أن لا سـوء سـيصيبنا مـادام وإيّانـا..

أبي نفسـه الـذي كان يرفعنـي عـلى كتفيـه عاليـا و هـو يخـبرني أنّنـي يجـب أن أبقـى شـامخة ولا أطأطـئ رأسي لمخلـوق هـو نفسـه أبي الـذي يجعلنـي اليـوم أخـرج مـن غرفـة هـذا الخسـيس الـذي يسـتخدمني كدميـة لإشـباع شـهواته... أبي نفسـه الشّـاحنة... يـا ربّ حوّلنـي إلى شـاحنة... أرجـوك يـا ربّ لـن أطلـب شـيئا بعدهـا...

مـا تـزال أمّـي متكوّمـة عـلى الإسـفلت...كلّ هـذا حصـل لأنّهـا لا تسـمع الـكلام فلـو أنّهـا رافقتنـي لمـا مـرّ عليهـا ذلـك الشّـاحنة .

"لن أغفر لك ، أقسم لن أغفر... "

هـي أيضـا مـا تـزال تسـبح رغـم أنّ الأحمـر يمنـع السّـباحة و كذلـك جسـدي يسـبح داخـل هـذا الفسـتان رغـم أنّنـا في سـاعة متأخـرة مـن اللّيـل و خـروج العفيفـات بمفردهـن في الشّـوارع ممنـوع ليـلا ، فوحدهـن العاهـرات مـن تخرجـن في هـذا الجـزء مـن اللّيـل ،كأنّمـا ارتطمـت بصخـرة فجـأة فغبـت عـن الوعـي ولم أذكـر إلا أن أحـد النّحـلات لسـعتني و آلمتنـي بشـدة.

عندما فتحت عيني عند الهزيع الآخر من اللّيل أحسست رأسي ثقيلة بينما كان أحمد ما يزال نائما..لم أفهم لم كنا ننام داخل سيارته و لا لماذا ما أزال نائمة على صدره بعد رسالة البارحة.

يمّمت على غير وعي نحو بيتنا كان الطريق طويلا و كذلك الرّواق، مشيت نحو غرفة أمّي التي ما تزال هناك داخل ذلك البيت الزّجاجي.. كنت سأصرخ في الممرّضة التي أعطتني حقيبة أمّي وطلبت منّي أن أحاول الاتصال بأحد أقاربي فقد فشلوا هم في الاتصال بهم ، حملت الحقيبة وقلبي يصيح فيها أنّ أمّي ليست بياض الثّلج لتضعوها داخل ذلك التّابوت الزّجاجي و أنّ الشّاحنة إذا علمت أنّها هنا ستعود لبترها أو لهرسها .. ترى هل كان أمير بياض الثّلج شاحنة ... مؤكّد كان كذلك هو الآخر !!

عندما فتحت الهاتف لأتّصل بأحد أقاربنا الذين لا أعرفهم وجدت أنّ آخر ما وصل أمّي رسالتين من أبي ، فتحتهما فإذا الأولى مكتوب عليها "لا تحاولي الهرب مني لأنّك لو دخلت الأرض السّابعة أو طرت للسّماء المئة.. ستكون نهايتك على يدي..."

وأمّا الثّانية فكتب عليها :

"لا تحاولي الحراك من مكانك ..لأنّني سأفعل ما لن يدور بخلدك. "

و عجبت كيف لم تتحرّك أمّي بعدها أبدا و لم تعصه لأكثر من ثلاثة عشر سنة ..يا إلهي كم هي زوجة مطيعة !!

تحت الرّسالتين في القائمة كان هناك أكثر من ثلاثين مكالمة صادرة تليها رسالة من أمّي إلى رقم غير معروف كتبت عليها "عليك إنقاذنا نحن في خطر "

تحتها أكثر من مئة محاولة اتّصال بنفس الرّقم المجهول...
عندما ضغطت زرّ الاتّصال لم يردّ أحد كما توقعت... لأنّ أمّي كانت قد استنجدت بالمتّصل به منذ يومين ولم يعاود الاتّصال بها.

****

" شبق الصدفة الرّبانيّة ..شبق قدري!! "

كان سامي متمدّدا على الشّاطئ يضاجع الغيوم بعينيه وقد ملّ هو من عبث الزّوايا اللّيلية ،لم يفكر يوما أين يذهب اللّيل عندما يطلع النّهار ولا كيف ينام النّهار على أسرّة اللّيل إلا عندما رآها ،اصطدم الكوكبان ببعضهما من غير سابق إنذار كان شاردا كعادته و كانت على الأغلب ثملة، رأسه الخشنة سبّبت لها كدمة فضيعة أعلى جبهتها ما جعله يشدّ عليها طويلا براحة يده ، حيث كانت تعتصر من الألم و كان البخار الذي يخرج من فيه للتّخفيف من ألمها و هو ينفث عليه حارقا .كلّ شيء كان عفويا حتى عندما أمسكت راحة يده وطبعت عليها قبلة قويّة وقالت " أبي أنا بخير ،لا تقلق "

تأمّلها عميقا ،كان الجوّ باردا و قد بدأ الرّذاذ الأوّل ينبئ بنزول مطر غزير قريبا ،بدا وجهها ممزّقا ،قطعة من القماش تشرّبت حرقة الشّمس أحقابا وعيناها سكّة حديدية ليلية مهجورة ،كأنّ صوتها لدمية توشك بطاريتها أن تنفد وجسدها نخلة تآكلت جذورها.

طبعت على جبينه قبلة مباغتة ثمّ شدّت وسط خصره وألقت رأسها على صدره و كأمّا الكرّة الأرضيّة سقطت في جوفه بما انحصر فيها من الورى ، صار الجوّ لاهبا و تزلزلت الأرض من تحته.لم يملك أن ينتزعها منه فقد كان أحوج منها إلى ذلك الدّفء المنبعث منها .. مال جفنه العلويُّ على السّفلي مستسلما تماما و أرخى ذراعيه أعلى ظهرها.

مرّ شهر و هو يعود كلّ ليلة إلى هناك فلا يجدّ إلا طيفها المتراقص

على فراغ السّاحة. و الموسيقى تخرج من قلبه تتقطّع كأنّها تصدر من فونوغراف عتيق فيبتسم كالمخبول لطيفها المنسلِّ من صدره .

أكان لزاما على الصبح أن يتنفّس ذلك اليوم الشّؤم !!! أكان لزاما أن ينفلق صدره فتخرج منه هو الذي شعر كأنّما دسّها في أعماق أعماقه !! لقد كانت أوّل امرأة تعانقها روحه و تسكر بها و تنتشي بعد عائشة ، يظلّ ينتظر اللّيل بطوله و السّجائر تتآكل على شفتيه الواحدة بعد الأخرى حتى إذا بزغ الفجر يمّم نحو الشّاطئ .

أخذته إغفاءة مفاجئة عندما وقعت على خده أوّل قطرة نوء لهذا الموسم ، تأمّلها و سافر على قوس قزح المنبعث منها إلى ذلك الوقت من الليل ، عندما كانت بين ذراعيه، لم ينتبه كم مضى من الوقت و هما كذلك لكنّ أولى قطرات المطر رشقته معلنة نهاية لذّة لحظاته.

كانت قد غطّت في نوم عميق عندما مال بها على ذراعه ،حار فعلا واعترته لبكة وارتباك لكنّ المطر اشتد ما جعله يحملها بسرعة إلى سيارته ،كما الجثّة أمال رأسها على الكرسي الخلفي وهي تشدُّ على رقبته بقوة.. مال أكثر ...أكثر !!

ما يزال يتذكّر جغرافيا جسدها و ما تزال خريطته مرسومة على مقلة ذاكرته ، ما يزال كلّ شيء كما تركته فيه أيضا فحتى ريقها ما يزال مذاقه نفسه بين أليلف شفتيه !

كيف اختفت فجأة و هل كانت حقيقة. وهل تراها شعرت بما شعر به ليلتها أم أنّها إحدى العاهرات المتعوّدات على مثل تلك الأفعال.

****

" بغض النّظر عن الرّاحل ..الرّحيل بعض من الموت !! "

كان نصف القلب مزدحما والنّصف الآخر خاليا من كلّ شيء ، وطعم الرّيق مرّا بحلاوة كعكة توت بري حامض ،وقفت على الشاطئ قرابة عام من الشّرود ،أحسست ببرودة و انطفاء رهيبين ، ألقيت السّمع لصرصرة الرّيح في عظامي ،كان مجلجلا لدرجة أنّه حال دون وصول صوت روحي أذن قلبي ،و كانت الأمواج تضرب جدار فؤادي فتهزّه بشدّة..حاولت من خلالها التّنصل منّي لكنّني كنت مهترئة و هشّة كناي قديم في صندوق كلاسيكي تعزف عليه العناكب العجوز ببطئ وترقص أخرى على نغم الحزن الدّفين رقصة شاعرية غير مدروسة الخطوات . وبقدر ما كانت حبّات الرّمل راضية بذلك الحمّام الزّبدي الدّافئ بقدر ما كان قفصي الصّدري ينبئ بانفجار عنيف قريب ..

رحيل عمّي محمّد عن بيتنا فجأة ورّثني حزنا عميقا ، استجديته البقاء تلك اللّيلة لكنّه قال أنّ زيارته قد طالت وأنّ هناك من يحتاجه أكثر منّي .. غمغمت في حزن لكنّني تماسكت ولم أبك أمامه ،عندما دخلت غرفتي أحسست أنّني عدت مرّة أخرى وحيدة ..كيف اعتدت عليه بتلك السّرعة ،كنت في حاجة ملحّة لمن يفهمني مثله أنا التي لا يفهمني و لا يفهم ما أخطّه أحد..ارتميت على بطني فوق السّرير ورحت أجهش بالبكاء لأسمعه خلفي يردّد دعاءه المأثور بصوت منخنق ، لم أرفع رأسي لأكلّمه ، لذلك أحسست وقع نعله وهو يرتّد راجعا..

نمت على تلك الحال من الحزن لأرى عمّي محمّد في منامي ، كفتى في

العشرين بنفس طول أبي وعباءته البيضاء التي رحل بها ، فاتحا ذراعيه أقصاهما كأنّه يردّد تعويذة فتح باب سرداب ما ، لحقت به وأحسب أنّه في المنام لم يلحظني أو ينتبه لخطوي خلفه ، كنت أشكّ بيني وبين نفسي أنّه لم يفعل هو الذي يكتشف سرّ تردّدي في الكتابة عندما أضع القلم على البيضاء ثمّ أعيد سحبه ..بدا الطريق طويلا معتما و كانت عباءته البيضاء مرشدي الوحيد لمكانه ، فجأة انفلق النّور في ذلك الدّيجور واختفى عمّي محمّد مع بروزه ، بحثت عنه بعينيَّ مطوّلا ومن فرط انشغالي بذلك لم انتبه لجمال المكان الذي وصلت إليه ،لقد كان جنّة وإن كنت لم أر الجنّة إلا من خلال قوله تعالى وأحاديث نبيّه ، لكنّني أعتقد أنّه كان كذلك لأنّ فيه ما لا عيني من قبل رأت ولا أذني من قبل سمعت ولا خطر على بالي ...لكن ..أين عمي محمّد الآن !

شرعت الأرض تتحرّك من تحتي بينما ترتّل جدران روحي عبارات السّنون الماضية من عمري ، حلّ السّواد فجأة في تلك القضبان وقد كانت هناك... نعم ..قطعة من عباءة عمّي محمّد عالقة بأعلى شجرة أغصانها سوداء ملتوية تمنّيت لو أنّني أستطيع الوصول إليها لأحتفظ على الأقل بجزء من عباءته ..و لمجرد التّفكير بذلك ارتفعت رجلاي لاإراديا من على الأرض فوصلت إلى هناك ،جذبت القطعة لأهوي دفعة واحدة نحو الأرض و هي تزداد طولا و تمتد حتى غطّتني بالكامل .. استيقظت مرعوبة لأجد الصّبح قد تنفّس عن غيوم داكنة ..كأنّ الشّمس استحت أن تطل علينا بعد رحيله ..

****

" إنّ مسافة ما بين القلب والسّعادة هي ذاتها مسافة ما بين القلب والألم ..وإنّ الألم ليجد طريقه إلى القلب من نفس الطريق التي تجدها السّعادة إليه !!

عندما استيقظت في صباح ذلك اليوم لم أجد أختي على السّرير بجانبي، كنت قد انتقلت للنّوم وإيّاها بعدما قصّت عليّ تلك الكوابيس التي تخيفها و تنغّص عليها كريم نومها ، الوقت ما يزال مبكّرا ما جعلني أشكُّ في خلوّ مكانها منها خاصة بعد الحديث الذي دار بيننا ليلة البارحة قبل النّوم..

لقد قالت إنّها ستخرج للبحث عن ذلك العجوز الخرف ، لا أعلم ما الذي يجعلها متمسّكة ببقائه عندنا ، تقول إنّه الوحيد الذي يملك المفتاح الذي سيفتح لها باب الأبيض وطبعا لم أفهم ما قالته ما جعلني أردّ ككلّ مرّة سريعا بـــ"مريضة " فهو لا يثير فيَّ إلا الرّعب ، يكفي أنّني لم أخرج إلى المرحاض ليلا بمفردي طيلة إقامته عندنا مخافة أن أجده واقفا كشبح في الرّواق ، اللّعين لقد بثّ في قلبي الخوف مرارا خاصّة عندما ناداني باسمي يوم زيارته الأوّل لنا .استغربت كيف عرفه دون أن يخبره به أحد لأكتشف بعدها أنّه قرأه في مذكّرة تلك الغبيّة.

مكث بيننا أسبوعا ، بذلت فيه قصارى جهدي كي لا أختلي به أو تلتقي أبصارنا ببعضها البعض و ما أحسبه رحل إلا بعدما سمعني وأنا أحادث أبي ذلك المساء..حيث كان أبي يقلّب دفاتري وأنا أراجع في المطبخ ..مؤكّد انتبه إلى أنّني لم أجرؤ على البقاء بمفردي في غرفتي..لذلك سألني :

- رشاد .. لماذا كلّ هذا الخوف من الرّجل ..إنّه مسالم جدّا !!

لم أعقب على قوله ،رفعت عيني أنظره لبرهة ثمّ عدت و حشرت رأسي داخل دفاتري ليواصل النّفث على تلك النّار التي تضطرم بين جوانحي منذ أسبوع .

- أختك لماذا لا تخافه ، تقضي معظم وقتها وهي تبادله أطراف الحديث وتحاول الاستفادة من حكمته في الحياة ..

لا أعلم لماذا شعرت كأنّما تطايرت ألسنة النّار لتخرج من فمي وربما أذناي أيضا ، فقد تحوّلت في ثانية إلى تنين !!

- ... لست مضطرّة - على ما أظنّ- على تحمّله ..فهو ليس أحد أقاربي كما أنّني لا أريد أن أكون كتلك المريضة ذات الدّماغ الخرب ، ثمّ لماذا اختار بيتنا فقط ليمكث فيه...إن أردنا أن نحسن إليه فلا داعي لإحضاره إلى هنا ..هل سنحضر كلّ متسول نريد أن نتصدّق له إلى بيتنا ..ستصبح دارنا عندئذ بيتا للرحّمة !!

كنت قد انتبهت لجبين أبي وهو يتقلّص بعد كل كلمة أتلفظ بها لكنّني لم أستطع التّحكم في تلك النّار التي لا بد أن تحرقهم كما تحرقني ..

دخلت أمّي المطبخ وهي تحمل آلة التّحكم بيد وتضع سبابة يدها الأخرى على شفتيها مشيرة لي أن أصمت .

- تخافين أن يسمعني.. أليس كذلك؟ ...ماذا تخشين؟ أن يكون للمتسوّلين بعض الكبرياء ..بربّك كيف سيترك كلّ هذا النّعيم الذي لن يحلم به و إن مدّ يده في أغنى دول العالم هه !!

تكلّمت وصوتي يعلو أكثر فأكثر من شدّة الغضب ثمّ رحت أضرب دفاتري

على الأرض بقوّة لأشعر بكفّ أبي الغاضبة وقد طبعت على خدّي الأيمن، وضعت عليها كفّي ليأتيني كفّ أكثر حرارة على الجهة اليسرى ...هذا هو أبي لا يرفع صوته ليسكتني بقدر ما يرفع كفّه لتلتصق بوجهي .

حملت دفاتري و يمّمت نحو غرفتي و عند الباب التقيت ذلك العجوز، أدركت أنّه سمع كلّ شيء وتمنيت أن لا أجده صبيحة ذلك اليوم...وقفت قبالته ، بادلته نظرات حقد و مقت و تمنّيت لو كنت تنّينا حقيقيا لأنقضَّ عليه وأبتلعه طازجا دون مضغ ...

لكنّني و عندما لم أجده صبيحة ذلك اليوم ، تمنيت لو أنّني دعوت الله بأمنية أكبر وأحسن !!

اليوم هو عيد ميلادي السّابع عشر ، ليت أختي كما كلّ عام تتذكّره لكنّها لن تفعل، أصبحت كالمجنونة لا هم لها سوى حبيب وهمي و عجوز أخرق و الكتابة ..و تبّا لهم جميعا..

لكنّني على ذلك أحبّها بشدّة فهي ذلك الجزء المضيء منّي ، وإن كنت أكثر من توبيخها فلأنّني أريدها أن تعيش الواقع كما هو كي لا تتألّم كثيرا ، أكاد أجزم أنّ جفنها لم يطبق ليلة البارحة فقد استعبرت كثيرا.. كان ضوء المصباح منعكسا على قرّة عينها المستعدة لسكب الدّمع في أيّ لحظة.

بداية دردشتنا كنت قاسية معها كعادتي ..نادتني باسمي همسا وأعلم أنّها كانت ستذكر شوقها له بعد ذلك كما هو عهدها منذ عامين..

- إيّاك أن تتفوّهي بها ..

صمتت قليلا ثمّ قالت دفعة واحدة ...

- لماذا تقسين عليّ !!

ابتسامة الحزن تلك على شفتيها تجرح أعماقي لكنّني أدّعي القسوة أكثر وأقول ..

- تعلمين أن ما تفعلينه هراء ، أنت تربطين نفسك بوهم ، تفكيرك وطريقة رؤيتك للعالم كلّها خاطئة ، الواقع شيء والأحلام شيء آخر علينا أن نعيش الواقع كما هو ، ونترك الأحلام للقصص و الرّوايات و الأفلام !!

- لكنّني ...

- لا تستفزيني..هذا ليس حبًّا إن هذا إلا مرض نفسي ..أظنّ أنّه عليك استشارة طبيب فورا ..

قلت ذلك و استدرت للجهة المغيرة و أنا أكرّر "مريضة ..مجنونة "

وبالكاد سمعت له صوتا بعدها إلا نشيجا مكتوما أعلم أنّه يذبحها ولا تعلم أنّه يذبحني..أعمق وأكثر !!

لم أعد أرى شيئا غير الأسى على وجهها كأنّ أحدهم وضع وجها آخر بدل وجهها ، فيما مضى كانت بسّامة ضحّاكة لا يهدأ لها بال حتى تغزل السّعادة بوجوهنا و لا ترتاح حتى يكون الجميع كذلك و كنت أغبطها على تلك القدرة الجبّارة في إدخال السّرور إلى قلوبنا نحن الثّلاثة ، لذلك أمقت اليوم ما هي فيه وأقسو عليها فأنا أشعر بالألم لأنّنا فشلنا جميعا في جعل أعماق روحها تبتسم !!

كلّنا نذكر آخر مرّة ابتسمت بل ضحكت فيها ملء شدقيها و كانت تطير سعادة ، كان ذلك يوم التقته ،حسبتها وأمّي فراشة لخفّتها ..غبطتها كثيرا يومها فهي و بحكم أنّها كاتبة بارعة في رواية أدقّ التّفاصيل قد

قصّت علينا اللّقاء كأنّه سابقة !! كانت تردّد مرارا أنّ الله يحبّها أكثر مما تستحق لأنّه وهبها سعادة أكبر من أن يطيقها قلبها.. سألتها يومها في دهشة و سخرية :

- وهل يحبنا الله أكثر ممّا نستحق!!!

أطرقت قليلا ثم أخرجت لسانها لتغيظني ، بينما كنت أفكّر في سرّي بماذا سيحدث معي أنا الأخرى كي أعلم أن الله يحبّني أكثر ممّا أستحق !! أو أنّ الله كأبي وأمّي يفضّل بعضنا على بعض... و اليوم أفكّر كيف خذلها الله رغم تفكيرها البريء حينها !! و أعود فأتذكّر قولها كلّما ذكّرتها بذلك " الله يبتلي أحب عباده إلى قلبه !!" فأعجب كيف أنّها تبني الحزن و السّعادة على ذات الموقف بنفس الأساس " حبّ الله " !! بينما لا أحتمل أنا مطلقا فكرة أن يؤذيني من أحب حتى وإن كان الله ، حتى وإن كان الغرض من ذلك اختباري !!

كثيرا ما تأكدت أنّها إن بقيت بنفس هذا النّمط من التّفكير فستخسر الكثير ، تظنُّ هي أنّنا يمكن أن نعيش أحلامنا في الواقع وأنّ كلّ واحد يحمل عالمه بين يديه يتحكّم فيه كما يشاء ، وأنّ المثالية لا تعدو عن كونها بعض التّصرفات التي ترتفع بنا من بشريتنا إلى الملائكية وأنّها أسهل بكثير مما نتوقّع ..فما نحتاجه فقط هو أن نفعل ما نفكّر به عميقا بداخلنا ونخرجه إلى الواقع !!

مجرّد التّفكير في هذا المواقف الماضية السّخيفة يرهقني لذلك رحت أتلهى عنها بالدّردشة على الفايسبوك لأجد أنّها نشرت على جدار صفحتي:

" أذكـر ..نعـم أذكـر ..كنّـا نكـره الزّمـن كرهـا شـديدا ،فنصليـه إثـم طولـه وفراغـه عذابـا عسـيرا، تقعدينـه أنـت عـلى أجمـل كـرسي في المنـزل بينـما أغسـل أنـا شـعره الأشـعث الأغبر ثـمّ تسرحينـه أنـت جيّـدا لنصنـع بـه سـويا جدائـل مـن الفرحـة ..كنّـا و مازلنـا غبيتـين ، بـذرة واحـدة تنبـت في عالمـين مختلفـين ، أحدهـما يعـرج نحـو المشـاعر و الأحـلام و الآخـر متغلغـل في العقـل و الحقيقـة و رغـم بعدهـما يلتقيـان في نقـاط عميقـة ، عميقـة جـدّا !! رشـاد !! ..توأمـان نحـن بعمريـن مختلفـين .. عطـر الشّـمس ينسـاب مـن عينيـك ليتـسرّب إلى عينـاي .. أعلـم أنّ مسـافة الزّهـور بيننـا شاسـعة و أعلـم أنّـه علينـا أن نتنفّـس الألم أكـثر كـما أعلـم أنّـك أقـوى مـن غمـرة نجـوم سـمائية شـاردة لذلـك ضعـي يديـك عـلى تلـك النّقطـة التـي أبعـدت عنهـا يـدي علّهـا تتفجّـر في قلبـي "

تبـا !! وكأنّهـا تقـرأ أفـكاري الآن ، وعـلى ضخامـة الشّـعور الـذي تحدثـه كلماتهـا في صـدري ، أعلّـق بإيموجـي سـاخر و أغلـق حسـابي !!

****

"استسلم و ارتخي ،كأنّك لا تملك شيئا غيرك..و لا تملكك !!"

أتذكّر عندما احتويت السّماء بذراعي،كان ذلك مع بدايات الفجر فكأنما تنفّس اللّيل شمسه بداخلي فاستنشقتها و بقدر ما كان الأمر لذيذا لم أكن أشعر به لأنّني كنت فارغا منّي .في لحظة ما ، بل ذات يأس حسبت الشّمس عكسي تضيء للنّاس كي يسعدوا ، لكنّني آن التقمتها روحي أحسستها دموعا ليلية محترقة ، تكوّمت في كتلة متوهّجة لتخبئ خيبات ليليّين مرهقين ،أرقين .

مرّ شهر وأنا ألحق ذلك الشّعور اللّذيذ في صدري ، حتى النّجوم آوت إلى ركن مهترئ من السّماء وبقيت تتلاشى الواحدة بعد الأخرى لتغرب من خلال ثقوب روحي ، و كنت ألحق القمر الذي نامت فيه عيونها حتى وجدتني أمام بيت كبير كثيرة أنواره، جميلة زخرفته ، شعرت بهيبة عظيمة ، بالإضافة إلى الخوف الشّديد ، كأنّما رأيت الملائكة ترجمني و تطردني بعيدا عن ذلك المكان الطاهر ، من دون شعور منّي بكيت ، بكيت كثيرا ، ليس من أجل البتر الذي أعانيه في حياتي و لا من أجل ذلك الشّعور الذي فقدته برحيل عائشة أو تلك الفتاة التي ضاجعتها قبل أيام .

اختلط الأمر عليّ و رأيت كأنّما جثت كلّ الأشياء ساجدة من حولي ففزعت لصوت الأذان الذي انطلق بصلاة الفجر "الله أكبر الله أكبر " منذ أن كنّا صغارا و نحن نسمع هذه الكلمات و لأنّني مسلم بالفطرة لم أفكّر قطّ في معنى" الله أكبر " الخفيّ إلا السّاعة ، كنت أحسّ أنّني

أعاني أكبر هموم الدّنيا و مشاكلها و أنّ الطريق معتم بحيث لن أجد و لو سراجا ضئيلا يهديني إلى مناي ،كيف لم أفكر أنّ الله أكبر من كلّ ما أعانيه ،أكبر من أهوائي، من أمّي ، من عائشة و من فتاتي المفقودة التي فارقتها آن اللّقاء.. أحسست بهوّة عميقة تحت ركبتي و قدمي ،ثقيلا جدّا كنت وكأنّما يد الله تستبقيني وأنّه يشدُّ على كتفي بقوّة ، و أخرى شعرت كأنّما ذنوبي الثّقيلة تحاول الغور بي في أعماق الأرض و كنت أبكي و قد اختلط مخاط أنفي بمدامعي...

- هوّن عليك ..الله أقرب من مخاوفك.

عندما التفتُّ إليه ، اعترتني رعشة غريبة إذ ظننت أنّني رأيت شبحا أو أحد الملائكة أو الجنّ، حملني من على الأرض وضمّني إليه فتحوّل الظلام في عينيَّ إلى النّور ، هل هو حقا ملك!؟ لحيته البيضاء الطويلة و عيناه الغائرتان المتعبتان من فرط التّسبيح ووجهه المنير كلّها علامات توحي بأنّه كذلك !

- الله يا ولدي سيفرح بعودتك إليه وبحاجتك للوقوف في حضرته .. اذهب إليه ألق بين يديه مخاوفك ...هيا !!

أخذني معه لبيت الوضوء ، توضأ بينما اغتسلت و لم أنبس بكلمة ..كنت أرمي للسّكينة التي يشعر بها و للثّقة التي لمحتها في عينيه وهو يتحدّث عن الله . كان هذا الحلّ الأخير لي فقد ضاقت بي السّبل حتى إنّي لم أجد بابا أدقّه.. مرّ أكثر من عام و أنا تائه في سراديب الحياة المخنقة ،أتجرّع التّيه غصبا..لأدرك لاحقا أنّه لم يكن آخر الحلول بل كان الحلّ الأصل و أنا من كان تائها عنه !!

عندما قبّل جبيني الأرض، أحسست كأنّما الدنيا تعانقني من جديد ،لأوّل مرّة أشعر أن آلة التّحكم في جسدي ليست بيدي ،بل بيد من هو أقوى منّي بكثير. مرّ شريط حياتي سريعا ليقف عند لحظة لم تظهر جيّدا كأنّها سحب من نور تمطر لآلئ بألوان مختلفة على جسدي ، تلك السّكينة يا الله !!كأنّني كنت أغور داخل الأرض بينما تلحق بي وديان دموعي . حدّثت الله مطوّلا عن الفقد الذي أحسّه اتجاهه و دعوته أن يغفر لي تقصيري ناحيته ، طلبت منه أن ينبت الشّمس مجدّدا بضلوعي ، أن يغمس فؤادي بنوره أن يغسلني من الذّنوب و الخطايا و أن يغفر لي خاصّة خطئي مع الفتاة التي التقيتها مؤخّرا ، رجوته أن يمنحني فرصة لتصحيح خطئي معها ، ناجيته أن يساعدني في إيجادها وبقيت على حالي تلك ما شاء الله أن أبقى...

صباحا و بصعوبة استطعت فتح عيوني وقد تراقصت شمس الأصيل على جسدي ،أحسست بهما ثقيلتين و منتفختين و تؤلمانني بشدّة .

- ...و أخيرا أفقت !

قبل برهة خلت كلّ شيء مرّ بخاطري حلما لذيذا لكنّني عندما رأيت ذات الملك بلحيته البيضاء أمامي عرفت أنّ ما حدث كان حقيقة..وضع يده على خدّي ثمّ قال:

- أحسبك بخير فقد انخفضت الحرارة ، هيا بني قم و اغتسل ثمّ تعال لتناول الفطور..

- لست جائعا..

- صحيح أنّك قد تشبعت نور الله صباح اليوم ، لكنّك مريض

وعليك أن تأكل.. لقد أغمي عليك و أنت ساجد وسط نشيجك حتى ظننتك أسلمت روحك.

- سيدي !؟ أنا لست مريضا ،كان هذا لأنّني لم أتناول شيئا منذ يومين .. لا تقلق سأكون بخير.. والآن عليّ الرّحيل...بعد إذنك.

- ستستمر بالبحث!؟

دحجني بنظرات ريبة ما إن طرحت سؤالي الأخير ثمّ التفت يمنة ويسرة كمن يفتّش عن مخرج للطوارئ.

- لقد كنت تهلوس بذلك وأنت نائم.. على كلّ حال لا تقلق من ذلك يا ولدي ، فمولانا جلال الدّين الرّومي يقول "ما تبحث عنه يبحث عنك !!"

جملتي الأخيرة هدّأت من روعه ، فابتسم ثمّ قام .

- شكرا جزيلا ، لن أنسى معروفك أبدا .

- سامي...انتظر !!

التفت نحوي ، أشرت له أن يجلس حذائي ،مددت يدي إلى الدّرج ثمّ ناولته المصحف ، شرد على غلافه كمن يراه لأوّل مرّة ثم رفع رأسه إليّ مبتسما ، و كان سيشكرني مجدّدا عندما قاطعته.

- سامي! ؟ العتمة التي هنا (أشرت إلى فؤاده) لن يزيلها إلا هذا ، تذكّر أنّه و بهذا فقط تبدّدت ظلمات الجاهلية و أنار الكون ، اقرأه واستشعر أنّ الله يكلّمك في كلّ آية و وحدك ستلاحظ كم من الأشياء ستتغيّر... ابحث عن المصابيح التي تضيء بها زوايا قلبك المعتمة ، علّق قناديله في كلّ زاوية حتّى إذا وجد الشّيطان إلى قلبك طريقا بدّد سعيه

ذلك النّور. الله يا سامي لا يحبّ أن تصغر مكانته في قلوبنا و إذا حصل ذلك فحتما سنعيش في طفش وضيق و كدر، ارض بحياتك كما هي واستسلم لقوة الله وقدره ، و حاول أن تسعد نفسك و من حولك ، فجّر الإيمان في قلبك وقلب من تحب والله سيهديك من فوق ويمهّد الطريق أمامك.. تذكّر أنّ الحياة قصيرة.. يكفي عتمة .. دع النّور يتفجّر بداخلك...

لم أجد ما أردّ به عليه ، أحسست باحتقان شديد في صدري وحلقي، كنت وأنا أحمل الكتاب أرتجف كموسى بين يدي الله وهو يعطيه الألواح ليعود بها إلى قومه ،كان المصحف الشّريف في يدي ثقيلا جدّا . في مكتبة أمّي كان هناك الكثير من المصاحف و رغم أنّ الكثير من الكتب جذبتني إلا أنّني لطالما كنت بعيدا عن كتاب الله ..

تجمّعت في عيني عبرة كابرت كي لا تنطلق ، قبّلت المصحف... ثمّ خرجت من هناك..دون أن أستدير فأشكر الشّيخ مجدّدا..

****

"يحدث أن نغلق أعيننا لا لننام و لا لنرتاح ولا لنتذكّر شيئا نسيناه ..و لكن لنرى بوضوح !!"

لم أك أعلم أنّ الرّصاص يعبث بالأمعاء لتلك الدّرجة ثمّ ينبت و يلتف على جدران الرّوح، يضغط عليها أحيانا، يرخي أخرى، يعصرها ،يفتّتها إلاّ عندما زرت الطبيب النّفسي لأوّل مرة. كان ذلك بعدما رويت لرشاد عن تلك الكوابيس التي تخلع جسدي عن عظمي وشدّة اشتياقي لعمّي محمّد وبعض الأعراض الأخرى . قالت إنّني لابدّ مريضة نفسيا وكلّ الأمارات توحي بذلك. جلبت عنوانه من الأنترنت وزرته ذاك الصّباح . وصلت باكرا حيث لم يكن هناك غير عاملة النّظافة وهي تمسح الأرضية في تذمّر ، انتظرت لوقت طويل مع أنّني حاولت أن لا يحصل ذلك. دغدغت رائحة المنظّف أنفي و كان كلام الموظّفة عن مشاكلها المهنيّة و المنزليّة والشّخصية قد بدأ يرغّبني في الفرار.

بعد لحظات دخل أحدهم ،رجل نحيف طويل الشّعر ، سعيت لتجاهله لكنّني لم أقدر، بريق ما في عينيه يوحي بالموت ...جلس بهدوء و بقي كذلك بالكاد يسمع له زفير فأخرجت هاتفي وبدأت أكتب :

" لابدّ أن يندم الزّمن على ما خلّفه في قلوبنا ،لابد أن يقف يوما على المقصلة لينال شرّ الجزاء..كيف لا وقد قتل فينا كلّ جميل .حتى تلك الزّهرة السّوداء التي نبتت بصدرنا قد لفّها بعض الرّبيع الباكي و ذلك النّوء أصبح معفّنا لأرواحنا بدل أن يكون مطهّرا .. عليك اللّعنة أيا زمنا وئدت فيه كلّ أمالنا و أحلامنا و أعضاؤنا كالحجر الصّلد... "

- تفضّلي.

سلّتني من ركام المشاعر والنّشوة التي كنت سأصل إليها فلم يفرغ ذلك الانفعال بصدري و علمت أنّ هذا سيحصل بالدّاخل...

طرقت الباب برأس سبابتي طرقا خفيفا ثمّ دلفت الغرفة لتبرز عيناي تلقائيا فقد كانت..عالما !! هل يا ترى كلّ عيادات الطبّ النّفسي واسعة و مزيّنة كهذه ، بحثت عن الطبيب بعينيّ في أرجاء المكان فلم أجده ، مشيت قليلا نحو اليّسار حيث ثلاث أرائك بيضاء على شكل دبٍّ قطبي مبتسم و خلفها زجاج شفاف نحت على أنّه جبال الجليد .. انفصلت صورتي عليها إلى أوجه عديدة..فخفتني !!

- و أخيرا وجدتها ...

اقتلعني صوت صرخته من خوف لخوف أكبر منه قبل أن يعتذر وهو يربّت على قفاه مبتسّما.

شككت كثيرا في أن يكون نفسه الطبيب الذي سمعت عنه فقد بدا مخبولا بشعره المنكوش و هندامه الفوضوي ، يرتدي نظاراته باعوجاج و زنّار سرواله غير مقفل ناهيك أنّ جزءا من قميصه كان خارج سرواله حيث يظهر أنّه قد خرج من المرحاض لتوّه !! و مع كلّ ذلك لم يغيّب شعر لحيته غير الحللوق ملامح وجهه الشّابة .

متأكّدة من أنّه شعر باستغرابي من شكله فابتسم ابتسامة واسعة و قال وهو يمدُّ يده يصافحني .

- مرحبا .

أومأت مبتسمة و لا أحسب أنّني كنت أقوى على الحديث كقوّتي على الفرار وقتئذ..أغلق الباب ثمّ ارتدى مئزره وقد طلب منّي الجلوس .

- كيف وصلت باكرا رغم زحمة الطريق هذه الأيام .. حالة الطرق هذه الأيام تثير الغثيان.

- ...أمقت الانتظار .

وهو يدور في الغرفة عدّل مواضع العديد من الأشياء وهو يغمغم بكلمات لم تكن واضحة فهمت منها أنّه يلوم موظفته فعجبت أن يهتم شخص فوضويٌّ مثله لترتيب المكان ونظافته ، مرّر يده على الأريكة قبل أن يجلس و كانت أوّل مرّة ينظر فيها إلى وجهي و أعتقد أنّه أطال النّظر قبل سؤاله التّالي .

- اسمك ؟

لم أجبه فرفع رأسه عن مدونته و قال وهو يبتسم :

- اسمك ..من فضلك ؟

ولم أجبه أيضا تلك المرّة ، لا أدري السّبب ولكنّني كنت أشعر أن اسمي بعيد جدا عن ذاكرتي و أنّني لن أستطيع استحضاره بتلك السّرعة سليما ،كان معتقلا ، أجل.. فقد غلّت أحرفه بطرف ذاكرتي بإحكام .لاحظت استغرابه الشّديد من ردة فعلي ما جعلني أحير ردّا .

- لا عليك ..ماذا عن سنّك ؟

نظرت إلى قلمه المنتظر إجابتي و عجبت كيف أنّه لا يعلم عنّي هذه الأمور التّافهة أنا التي قارعت عالم الأقلام حتى باتت تعرف عنّي أتفه التّفاصيل .

- يوم !

رفع عينيه من فوق نظارته و قد قوّس حاجباه مستغربا لكنّه لم يعقّب

و إنّمـا طلـب منّـي أن أشرب حبّـة مهـدّئ و التّمـدد عـلى سريـر كان هنـاك و إغـماض عينـاي .

- لا داعي لأن أغمضهما فهما كذلك دائما .
- لا بأس ..أريدك أن تغمضيهما .
- حسنا .

شـعرت بـه وهـو يحـدّق بي ثـمّ وهـو يمـشي إلى البـاب و ينـادي عـلى المريـض التّـالي .

كان سـقف الغرفـة أبيـض ناصعـا عندمـا أطبقـت عينـاي بعضهـما عـلى بعـض لكـن سرعـان مـا تسـلّلت العتمـة إليهـما و عندهـا شـعرت كأنّ دخانـا أسـود يخـرج مـن صـدري لينتـشر في أرجـاء المـكان...

"ابق عينيك على النّور لتعبر كل هذا الظلام "

جلال الدين الرومي

بعد كلّ تلك المسافات التي يقطعها الواحد منا نحو نفسه ، سيظن أنّ الأمور ستكون أحسن، بل أسهل ،بل أجمل و لن يتوقّع أو يخطر على باله أبدا أنّ الأقدار ستنقلب فالموت الذي كان يستعجله و يتمناه، سيركض نحوه يوما وأسرع مما يتخيّل؟ سيحاول الهرب منه بكلّ ما أوتي من وسائل ،سيحاول إصلاح زجاج النّدم المكسور ولن يجد حينها إلا الدّموع .

السّعيد وحده من مات ليعيش حلمه ويتمكّن من الطيران أبدا ،لا تصدق مقولة أنّ الموت واحدة ، فالموت يركع لأولائك الذين قاوموا اغتصاب الحياة الدّامي كلّ ثانية، أولائك الذين أشعلوا الشّموع تحت جلودهم المهترئة لتنير غصبا حياتهم ،أولائك الذين في كلّ مسام زرعوا باقة من الأزهار وحين لم يجدوا لها سقيا فجروا لها بحار دمائهم.

لا تكن رقما فارغا...

أحدهم ،ولد ...عاش قليلا فمات...

عش لهدف و إن كان ساذجا غبيا في عيون النّاس..

فقطعا ،ليس هناك كثير من الوقت لتعيش فيه أحزانك ، وتقيم لها عزاء طويلا عريضا ،لا قطار الحياة سينتظر نهاية عزائك ولا الفرص التي جاءتك زمن عميت عنها بدموعك ... منتظرة إياك حتى تجفّف دمعك...

قم ،عانق الحياة بقوّة ،أرغمها على أن تشرق شمسك دوما و لا تترك اغتصابها لك يدميك من غير أن يخلّف جديدا في حياتك !

احبل بعد كلّ اغتصاب ..وأنجب النّجاح !

الفصل الثّاني

رواية" برزخ الرّوح "لـــــ : أحلام كامل .

"ما وراء الشّمس ندب جراحات لا تندمل !"

وسـط عـرش الـرّوح اسـتقرّت ال(أنـا) عـلى كرسـيها، بينـما بقيـت سـواد تحـاول إقناعهـا في العـدول عـن إجـراء اختبـارات أخـرى لكنّهـا بـدت حازمـة في قرارهـا خاصّـة عنـد قولهـا الأخـير :

- غالبـا مـا تكـون قراراتنـا الأولى عـن تهـوّر ، لأنّنـا لم نفكـر جيّـدا قبـل اتّخاذهـا أو لأنّهـا كثـيرا مـا تكون ناتجة عـن مواقف الغضـب أو الفرح المفرط.

- مـا كنـت لتتّخـذي هـذا القـرار لـو أنّ الأمـر متعلّـق ببيـاض !فقـط عندمـا يتعلّـق الأمر بي، تعاودين التّفكير...أكـره لحظات النّقاء الّتي تمرّين بها .

- تعلمـين أنّنـا جميعـا نخضـع لقـوّة أعظـم منّـا ، بالـكاد أثبـت عـلى رأي هــذا مــا تفكــر بــه الآن ...و مــا عــليّ إلا الانقيــاد .

– – –

تـرى كـم مـضى عـلى غيـاب الشّـمس !! و لمـاذا لم أعـد أشـعر بالزّمـن في هـذا العـالم المعتـم الخـالي مـن الألـوان إلا الأسـود بتعرّجاتـه ،كالأخـضر والأزرق المائلـين للسّـواد منهـما إلى لونهـما الجميـل ، الحنـين يتغلغل في هيكلي المتماهـي بـكلّ الأشـياء ،فـراغ مبهـم ،لم أعـد ذلك الجسـد الذي تعيقه الأشـياء كالجـدران والأشـجار والجسـور، صرت هيـكلا شـفافا أشـبه بخيـط مـن النّـور، أطـير في اللامـكان و اللازمـن، تصحبنـي الملايـير مـن الأسـئلة التـي لا أجوبـة لي عنهـا ،أكثرهـا بـدارا إلى رأسي ، مـا هـذا العـالم !؟ أوليـس نحـن جئنـا إليـه بإرادتنـا! ؟و مـادام كذلـك ، أيُّنـا يسـكن الآخـر، أنحـن مـن يسـكنه أم أنّـه من

يسكن بداخلنا! ؟ ومن هؤلاء الذين يحيطون بنا؟؟، كيف يصبحون فجأة جزءا لا نملك لنا من دونهم فصلا؟ ،وكيف يصبحون في أوقات أخرى غرباء عنّا بالكاد نذكر كيف التقيناهم، وأين وهل بإمكاننا رؤيتهم مرّة أخرى.

- لا أجوبة للأسئلة العميقة ، فلا ترهقي نفسك بالّتفكير !

كنت معلّقة من رجلي على جذع خيوط من الضّباب و رأسي مقلوب للأسفل عندما جاءت سواد، لا شيء من الذي يدور بخلد الواحدة منّا يخفى على الثّانية و بما أنّني أنقذتها من الانمحاق فقد توطّدت عرى صداقتنا.

- متى سيكون ذلك!! ؟

قلت بحماس كبير وقد عرفتُ ممّا يدور بخلدها قبل أن تخبرني به أنّ أناي ستختبرني بالخروج إلى عالم البشر على شخصيتي الجديدة .

- تبا، لهذا أكره هذا العالم ، إنّه يلغي كلّ المفاجآت السّارة.

- أنا سعيدة... لم يبق الكثير... أخيرا سأشهد ميلاد شمس جديدة بداخلي..سأعود إلى عالمي أقوى مما أنا عليه .

طرت عاليا ورحت أدور من الفرح ، بينما تنظرني سواد فرحة ، و سرعان ما أسرعت إليّ تشاركني فرحتي.. كنا كذلك عندما اعتراني شعور غريب ،حطّت أجنحتي بسرعة على أرض روحي، لحقتني سواد وهي تتأمّلني باستغراب وتستفسر السّبب ... أجبتها بصوت مريب :

- ما الذي تخفينه عني! ؟

- و هل أستطيع إخفاء شيء عنك،أنت تعرفين كلّ شيء يدور بذهني.!!!

- رغم ذلك... هناك ما تخفينه عنّي ،أشعر به عميقا... هنا.

عندما أشارت لصدرها عرفت أنّ حاستها تلك ستهلكنا.

- لا أحد يستطيع معرفة ذلك !! نتائج بعض القرارات لا سلطان لمعرفتها إلا بالوقت !!

حدقتْ في عينيَّ مرتعبة ، ما يزال نفس الحزن ينمو في عينيها، ضمتني على حين غفلة منّي وبقوّة..شعرت بجسدينا يتداخلان عميقا، كانت تدرك مما يدور في أعماقي أنّني أخشى فراقها ،أخشى أن تقرّر في أيّ لحظة التّخلص منّي للأبد، ثمّ إنّ العودة إلى عالمها على شخصيتها الحالية لن تكون بالسّهلة عليها ، سينكرها الجميع لسرعة تغيّرها ، وسيزعجونها كثيرا بأسئلتهم التي لن تنتهي !! لن تتمكّن من التّواصل معهم على النّحو الماضي و هذا أكثر ما يخيفني...لأنّهم قد يوقظون في روحها الحنين إلى بياض ماضيها.

بعد زمن غير مدرك و توارد الكثير من الخواطر المتصارعة استدعتني أناي، عندما طرت إليها شعرت بذلك الشّيء بداخلي يسحبني إلى الوراء و قد انتباتني دوخة ، ترنّحت أجنحتي و رحت أتهاوى يمنة ويسرة، تسارع نبض قلبي وضاق النّفس فيه و تقلّص داخل ذلك الفراغ المهيل بصدري ،كأنّما كانت كلّ المواقف الماضية سيئّها و حسنها تضجّ بداخلي، أصوات رهيبة أحسب أنّها لتلك الأشباح التي أرتنيها سواد قبل التّحول.

هل سأستطيع التّخلّص منها أم أنّها ستتكاثر و تتضاعف !!!

داهمني شعور بالاختناق، صاحبه سعال مرهق ، أحسست بالغثيان ثمّ بدوار رهيب ، اختفى الضباب من عيني و كلّ السّواد بتعرّجاته... غبت عن الوعي و لم أستفق إلا على صوت سواد وأنا ممدّدة

عنـد ال"أنا"...عرفتهـا مـن العـرش ذو اللّـون المجـدول بياضـا وسـوادا. سـألتني إذا مـا كنـت بخـير، أومـأت بعينـين شـبه مفتوحتـين أن نعـم، تبادلتـا نظـرات مريبـة ولأوّل مـرّة لم أفهـم معناهـا أو إلى مـا توحـي، لأوّل مـرّة لا أفهـم نفـسي و رغبـاتي، لا أفهـم مـا أريـد ، و لا مـا لا أريـد ، لذلـك كنـت خائفـة ومتوتـرة جـدًّا، ولذلـك كنـت مريضـة جـدًّا !!

بقيـت هنـاك عنـد الزّاويـة الضّبابيـة معلّقـة في هـواء مقيّـد، لا قـدرة لـه عـلى ولـوج أنفـي ولا أنـا بالقـادرة عـلى تحريكـه فإدخالـه !! فعـلى خفـة جسـدي الجديـد كنـت ثقيلـة ،كأنّمـا كان ذلـك الـشّيء في صـدري يمتصّنـي فأشـعر بي أهـوي داخـل هالـة سـوداء تنتهـي إلى نـور يتوهّـج مـن خـرم إبـرة. وكانـت أنـاي كلّ مـرّة تنظـرني في صمـت متوتّـر، عندمـا أومـأت لسـواد أن تلـج جهتهـا مـن السّـواد فيهـا .

عـاودني السّـعال مـرّة أخـرى وكذلـك الـدّوار ،لم يكـن ذلـك طبيعيا أبـدا ،الهوّة مـن تحتـي مـا تزال تتسّـع وتتعمّـق وعبثا كنت أتمسّـك بالـلّاشيء عندما تزداد قـوّة جاذبيتهـا ،خـرم الإبـرة كان قـد بـدأ يبتعـد ويتضـاءل ،لم أفهم مـا يحصل معـي إلا عندمـا دنـا صوت أناي و سـواد كهمس بعيد يلفّـه الصدى من أذني ...

- أترين بؤرة النّور والظلام هناك !! ؟

بصعوبـة أومـأت لهـا بنعـم، إذ أنّ نوبـة السّـعال ازدادت حـدّة . أمسـكَتْ بوجهـي وتوسَّـطته بـين كفّيهـا، طلبـت منّـي التّركيـز معهـا لأننّـي كنـت مشـتّتة و عبثـا كنـت أحـاول !! ، إذ أنّ الهـوّة كانـت تـؤزّني و تزلزلنـي ،كنـت أشـعر بـأنّ جسـدي خائـر لا سـلطان لي عليـه و كلّ حركاتـه لا إراديـة ، عندمـا شـدّت عـلى وجهـي شـعرت كأنّمـا هـو الوحيـد الـذي أملـك وأنّـه قـد انفصـل

عـن بقيـة جسـدي ،أردت أن أصرخ لأتخلّـص مـن فائـض الهـواء المتكـوّم في صـدري، لكـنّ الاحتقـان بداخلـه منـع صعـود الحـروف إلى حلقـي ...

- اسـمعيني جيـدا ، هـذه ولادة عسـيرة ، هـي انسـلاخ لروحـك مـن عـالم لآخـر لذلـك عليـك أن تختـاري مـن أي بـؤرة تخرجـين حتـى وإن بـدا ذلـك مسـتحيلا و بدتـا شـديدتا الضيـق، عليـك أن تكافحـي لذلـك...

فقـط عندمـا قالـت جملتهـا الأخـيرة فهمـت الغايـة مـن بـؤرتي النّـور و الظلام التـين تـزدادان بعـدا وضآلة...وفهمـت أنّنـي في مرحلـة جديدة مـن اختبار آخر جاء صوت آخر خشن مخيف، قالت فيه جهة السّواد لديها .

- صدقينـي يمكنـك البقـاء هنـا وتجنّـب كلّ هـذه المعانـاة فـلاشيء هنـاك غـير ضنـك آخر...الأجـدر بـك أن تتوغّـلي في سـوداوية روحـك !! هـذا العـالم الأرعـن لا يسـتحق الـتّردد عـن السّـواد!!

- كل نور لا يزيل عتمة لا يعوّل عليه !!

ردّ عليهـا صـوت رخيـم هـادئ بمقولـة ابـن العـربي ، ذلـك الصـوت أعرفـه جيّـدا قبـل اليـوم لكنّـني لا أريـد أن أعـيره انتباهـي خاصـة بعدمـا تحدّثـت سـواد فأنـا أصبحـت أثـق بمـا تقولـه أكـثر بعدمـا رأيـت مـن هـذا العـالم و سـمعت.

فكّـرت في كيفيـة جعـل دوامتـيْ الظـلام والنّـور تقتربـان نحـوي أو كيفيـة خروجـي أو حتـى اقـترابي منهـما و مؤكـد علمـت ذلـك مـا جعلهـا تشـدُّ عـليّ أكـثر ، أخبرتنـي أنّـه لا يمكننـا أن نسـير عـبر طريقـين معـا في نفـس الوقـت، وأنّـه علينـا أن نختـار طريقـا واحـدة ، فالطريـق الواحـدة قـد تـؤدي إلى أكـثر مـن مـكان واحـد و العكـس صحيـح، فقـد يـؤدي أكـثر مـن طريـق إلى

مكان واحد، لكنّ السّير فيهما معا في ذات الوقت مستحيل ... غمغمت في داخلي أن هذا ليس وقت الفلسفة ،ليتك تشعرين بما أعانيه الآن ،أنا أتألم ، أتمزّق ...

- كيفما كانت الطريقة عليك ولوج بؤرة النّور، لأنّها الطريق الوحيد الذي سيأخذك نحو المكان الذي تريدين الذّهاب إليه...

- لا تخدعي نفسك، أنت لا تريدين ولوج هذه الطريق من الأساس ...البياض في هذا العالم لا يسوق إلا الحزن و الألم !! شعرت بغضبها وقلقها يتزايد من طريقة إفلاتها لرأسي و كأنّها تريد أن تضع حدّا لهذا الصّراع الذي نعيشه .

أغلقت عيني بصعوبة و حاولت استحضار حلّ ما ، أن أكونه للحظات لكنّ الأمر ازداد سوءا... عندما بدأ غيظ سواد يتدفّق في صدري و أحسست ببياض الماضي تنظرني مشفقة ، دنت منّي أكثر وقالت وهي تنظرني بابتسامة خائفة ،دامعة ،حزينة ،ممزقة ،متأمّلة " ابق عينيك على النّور لتعبري كلّ هذا الظلام " كرّرتها كثيرا وصوتها كلّ مرّة يعلو أكثر ...في البداية كنت أسمعه بعيدا كصدى يرتدُّ من أعلى جبل لكن مع تكرارها له شعرت به يقترب، والعجيب أنّه لم يكن يلج أذني بل ذلك النّورس المذبوح بصدري...

فهمت ما ترمي إليه بياض فحاولت بكلّ ما تبقى من طاقتي التّركيز على بؤرة النّور ، ركزت أكثر.. وأكثر.. و أكثر ، شعرت بهما تجذباننني كلّ واحدة إلى جهة ، كانتا ستشطران أناي إلى قسمين، كلّ واحدة منهما تريد أن تثبت أنّها الأصل فيّ ، شعرت أنّهما إيّاي معا ويستحيل أن

أتخلّى عن أيّ منهما ... فجأة لاح لي شكل غير واضح المعالم ، لكنّه بدا مألوفا ، سمعت بياض وهي تخاطبني بصوت فرح أنّ هذا ينجح...
أدنت أناي سواد منها، سحبتها للخلف في وجل ،لم أولهما اهتماما و زدت تركيزا مع الشّكل المنبثق من بؤرة النّور تمعنت به جيدا، بدأ يظهر بوضوح أكثر وأكثر لأراك من خلاله أنت كما عهدتك قدّا وابتسامة و بنفس بريق عينيك . اتّسع النّور عمّا كان عليه و عادت بياض ودنت منّي بينما جحظت عينا سواد حنقا ودوّى صراخها غضبا، أحسستها دخانا ينفجر في قلبي ، دخان بصور الماضي المؤلم القريب... صور لم تزدني إلا إصرارا على ولوج بؤرة الظلام ..
ولا أدري كيف وبمقدار مرعب وغير متصوّر من الألم قرّرت أن لا أخرج بدوننا جميعا... كنت أوقن أنّه لم يكن حلّا مناسبا لي وأنّه لن يعود عليَّ إلا بألم مضاعف ، لكنّني تثبّتُّ منه، جمعت كفّاي بمساواة مع النّورس بصدري وصليت طويلا ، لأجدني أنزلق و أتماهى داخل جزأين من بؤرتي النّور و الظلام لأولد في عالمٍ ذاتيٍّ آخر أو لأولد في عالمي الذي جئت منه بشكل مختلف ومغايّر تماما ، يحمل بين ثناياه مقدارا معتبرا لم يكن قبل من السّواد!!
في تلك الدّوامة، صدح صوت روحاني غريب "المسافة، الآخر و الرّوح "و لا أدري كيف فهمت المغزى منها على اختصار ألفاظها.

***

" الالتفات إلى الخلف قد يذهب ببريق المستقبل وقد يصنع من الآن والمستقبل ماض آخر، جديدٌ و مغاير !! "

أصبح كلّ شيء كالليل في عيناي و قد فتحتهما على سماء باردة لا حياة فيها، انزلقت قليلا إلى أمامها لأهوي في فراغ عميق ،تأملت كثيرا إثر ذلك، رغم أنّني لم أكن أكثر من مجرد طيف يتسربل بين الأرض والسّماء، تغلغلت إلى أنفي رائحة لا تخطئها ذاكرتي ،في البداية جاءت مصحوبة بصوت صفير وكانت بعيدة ،اقتربت لأتحسّسها أكثر وأتشرّبها بمسامات روحي ، اقتربت أكثر ...و أكثر ، و لكم كانت لذيذة وزكية. لم أكن أعلم من أين و لا كيف أبدأ رحلتي مجدّدا ، ككلّ من يفقدون أشخاصا كانوا في عيونهم كلّ المستقبل !؟ كلّ ما كنت متيقنة منه أنّني لا يجب أن ألتفت إلى الخلف وأن أتقدّم علّي أتقاطع مع أمانيَّ ورغباتي في طريق ما،أحسستني كما الغبيّة أغوص في التّيه على أشكاله المختلفة، بياض يقول لي " الالتفات إلى الخلف يذهب ببريق المستقبل" وسواد يعاكسه " الالتفات إلى الخلف يصنع من الآن والمستقبل ماض آخر، جديدٌ و مغاير !! " و يعلو هذه الفوضى، الدليل الوحيد الذي أملكه في هذا العالم، المسافة ، الروح ، الآخر ...وفي خضم كلّ هذا كنت أجد أنّ هذا العالم بسيط جدا خاصّة فيم يتعلّق بفلسفة الماضي والحاضر... بسيط لدرجة أنّ الأمام كان خلفا يوما والخلف كان الأمام، يولدان من بعضهما البعض . لا فرق فيه بين أن تنظر للخلف أو الأمام، مادام كلاهما يؤدي للآخر...وكان هذا التّفكير ساخرا وساذجا في الآن نفسه .

تلبستني الرّائحة هذه المرّة، كنت خائفة جدًّا من استخدام جناحيْ روحي ومخيّلتي ،لم أكن بعد واثقة من أنّهما ستتمكنان من التّحرك في هذا العالم ،خاصة و أنّني لم أتزوّد بأيّ دليل ،فكلّ شيء جاء مباغتا، كأنّما نبذت من عالم عار لآخر أشدّ عريًّا على غفلة من أمري...

يا الله!! ؟

إنّه نشيد الموج ،أدركت ذلك ، لم يكن هناك مجال للشّك في أنّني كنت سأصل إلى هذا المكان ...البحر!! تلك الإليـاذة التي ما يزال العمر يغزل حروفها ولمّا تكتمل ، إنّه ذلك الكبرياء الباذخ في التستّر ، إمّا تعشقني وإمّا أبيدك وأتوّهك بأمواجي...

جميل أن أبدأ رحلتي من هذا المكان الذي طالما على بعد وقرب شاركته آهاتي ، أنا ابنتك يا بحر !!بعض من ملح عظامي بداخلك ، أنت من يسكن إليّ آن اضطرابه، لا أنا ولا أنت زرنا بعضنا آن الهدأة ،لطالما كنّا هائجين، غاضبين، حاقدين و ناقمين ..أنت على الهيبة رغم القيود وأنا على الحياة رغم الرّضا !!

كان الوقت صباحا والصمت ما يزال يسكن المدينة الخيال ، جلست على الرّمال المبلولة وتركت الأمواج تلاعب رجلاي وكم شعرت بالألم في ذلك المكان بصدري ،منبع النّور، لأنّني لم أكن أشعر بشيء أبدا، كأنّما فقدت حاسة الشّعور بالأشياء لم أتوقّع أن يطال هذا الأمواج أيضا ،شعرت بها وقد تلبّسها الغضب فراحت تركم أطرافي بقوّة ،فتنفذ من خلالها لتعود فتكرر نفس الحركة ودونما فائدة. ..

جذبتهما غاضبة ،محزونة ورميتهما بعيدا، بعض من الدّمع يمازجها وقد ترقرق نحو جزرها... ارتفعت روحي المخنوقة إلى فوق ! ،فوق ! ، فوق! حيث الفراغ و الامتلاء كلّه... فوق ! حيث البعد و القرب، حيث اللاشيء وكلّ شيء...فوق ! حيث الله!! ؟

الشّمس!! كم تبدو جميلة وهي تتغنج بحمرة خدّيها ،عانقت البحر ثم تسطَّحتْ عليه لتغطيه بوهجها كلّية ،يا سبحانك يا ربّ!! ؟ما تلك الألوان...لطالما عشقت الغروب، أترى لذلك لم تمنحني الحياة فرصة رؤية الشّروق أبدا !!

****

" تأمّل خلق الله ومحاولة قراءة خواطرهم المؤلمة لعذرهم..جزء من الإيمان !!"

كان الصّخب في اللافراغ الذي أطوف فيه قويا، ما جعلني أضيع في خواطر ذلك الكم من البشر المتكوّم في المحطة ، و عند الطرقات ، هناك فقط وعندما رأيت ذلك الحبيب الذي انحنى رأسه وكاد يلتصق بالأرض أدركت لماذا خلق الله النّدم، وعندما رأيت تلك الكدمات على ذلك الطفل الذي انتزعت أعضاؤه فوق المشرحة، عرفت لم خلق الله القصاص، في تلك الفتاة الممسكة ببطنها المتكوّر أمامها مبتسمة ، رغم أن الله كان قد أخذ زوجها قبل أيام فقط، عرفت لماذا خلق الله الرضا ،في أولائك الأطفال المشردين الذين يتسوّلون بين الأزقة يشحذون بعض المال، عرفت لماذا خلق الله الشّقاء ،في تلك الدّمعة التي تحدّرت في طرف عيون تلك العجوز التي رميت للشّارع بسبب كنّة لم يحسن ابنها تطويعها، عرفت لماذا خلق الله العقاب ، ومنها ومن غيرها جميعا أدركت أنّ في الحياة لا شيء يخضع لقانون الخلود ،وأنّ كلّ شيء فيها دول،وأنْ لهذا خلقت الجنّة والنّار ، و كان قانون المسافة مسيطرا عليّ كليّا، فكم من عجوز أردت أن أساعد فتهاوت يدي و توارت يداه بداخلها، وكم من دمعة هممت أمسحها فتسربلت يدي لتعود من غير مشقة ولا عناء... وهذا ما جعل آلامي تتضاعف ، جعلت أجول في عالمي ما شاء الله أو الحياة الجديدة التي اخترتُها لي أن أفعل ولا علم لي في أيّ بحر تدور عقارب السّاعة، فقد استوت عندي الأنوار والظلمات ،بينا تترنّح عقارب قلبي بين الفينة والأخرى ،أقودها إلى غير وجهة، أحاول

أبكيها فلا أجد إلّا ثقبا ذو حدقتين، لا قوّة له إلا على إبصار دواخل مهترئة، ممزقة، وأخرى راضية سعيدة ، أبصر العالم بحدقة تقودني إلى أشخاص تعبوا من كثرة الأقنعة التي يرتدونها ،أشخاص أضناهم التّمثيل على بعضهم البعض ،يخشى الواحد أن يعرّي عن روحه المتعبة ،العفنة ولو قليلا، مخافة أن تنبعث منها رائحة تزكم الأنوف ،لذلك تراهم ما إن يدلفون أبواب منازلهم حتى يعلّقون تلك الأرواح على مشاجب الألم، فتتقاطر أنفسهم المزيفة على البلاط كلّ لياليهم، ليدخلوا سراديب الحقيقة وهم يلهثون لفرط ما أضناهم الزّيف و الخداع الذي دأبوا ممارسته عند الالتقاء بعضهم ببعض ،أو يرمون بأنفسهم بين أذرع أسرّتهم فلا غيرها يحتمل تلك الرّوح المثقلة بأعباء الحياة. وبالمقابل تجد بعض الأفراد يفضلّون الإلقاء بأرواحهم على مقدّمات سجاداتهم ، يجثون في تسليم وخضوع تام ،تحشرج أرواحهم بين يدي ربّهم وهم يلقون إليه بأثقالهم ليبدلها لهم خفّة وسكينة ،ليحملها عنهم أو يكفّر عنهم تلك الخطايا التي اقترفوها ،وشتان!! بين الفريقين!

كالعادة، لم أتمكن من تحديد احداثيات الزّمكان الذي به أصول وأجول.. ما جعلني أعود للمكان الذي فتحت فيه عيناي لأوّل مرّة ،جلست هناك وأنا أنصت لهدير الموج الغاضب تارة، وأعود فأنكفئ على نفسي و بعض الذكريات المترسّبة في خيالي ،كيف لم أعرف الوجهة إلى أسطع الأماكن في قلبي !!،لا أذكر ولو شيئا بسيطا ، كيف يمكن لقانون المسافة أن يسيطر لهذا الحدّ حتى في عالم الدواخل! فحتى ونحن حزمة من المشاعر لا يمكنّني أن أعرف حيثياتك ومكانك.

توسدت الهواء والأحزان وأنا أفكر في دليل ألجأ إليه ،أبحث آثارا تدلّني عليك أقتفيها ، فلم أذكر دليلا أعانني منذ قدومي إلى هذا العالم المفرط في التناقضات والغموض إلا ذلك النّورس الوردي بين جوانحي، فليس غيره ساعدني لحدّ السّاعة ،إمّا قبل أو أثناء تحوّلي ،وأيضا عند قدومي إلى هنا، أغمضت عينيَّ على نور الشّمس وزرقة البحر و تنهدت بعمق،فشعرت أنّ كلّ النّور اختفى ليهجم عليّ ذلك السّواد الباذخ ،المكابر ،حاولت أن أتخيّل النّورس وقد شقّ تلك العتمة ، وحقّا توهّمته كأنّه الحقيقة،لكنّه لم يكن إلا خيالا مفرطا، وضربا من الوهم اللّذيذ المبتغى.

ملأني اليأس واسود كلّ شيء في عيني وبدأت أستشعر أنّ الزمن يطول بي كلّما ولّى جزء من اللّيل وأعقبه طرف من النّهار... وكلّ تفكيري منصب عليك كذكرى مجردة من الصورة تتحرّش بذاكرتي الجوفاء ،أو كشعور لذيذ يتملّكني الوقت كلّه إلا قليلا عندما أنغمس مع حالات تفوقني قهرا ،تفوقني شوقا، تفوقني تمزّقا ،وتفوقني عطشا...

"المسافة ،الآخر ،الروح " إذا كانت المسافة واضحة، فكيف بالرّوح والآخر!! أتراه هذا هو السّر !!وإن كان فكيف سأعرف وأتأكّد ،"لا لا ليس القدر على هذه القسوة ليرسلني إلى عالم أتوه فيه "،" بلى.. لربما أراد أن أتخلّص من إحدى ثقوب النّقص فيّ ، ففي كلّ الأحوال يستحيل إلى هذا الحدّ تميّزي واختلافي !! " تبا لهذه الخواطر جميعا !!! هل عليَّ أن أنهض وأحلّق باحثة! لكن... عمّ سأبحث؟

و مع ذلك قمت مجددا وفي أذني نغم حزين غير بعيد ، استسلمت له دون أدنى مقاومة ، شيء مذبوح بداخلي بدأ يستيقظ لا إراديا ، كلّما

منعت نفسي وجدتني أدنو أكثر لأشتمها كألذ رائحة أبدا ما استعذبها وتعشّقَها أنف ذاكرتي . عندما رأيتها ... أيقظت صورتها في ذهني ذكريات كانت شاردة ، مبعثرة ،كانت تصرخ بصوت مكتوم مذبوح وعلى جنبات قلبها أجنحة بيضاء خضبتها حمرة قاسية !!، بدا جرحها غائرا وعميقا ، تكوّمت على الأرضية كما جسد بدون روح، ولسان قلبها يتأوّه ويئن ، بدا كلّ شيء موصولا ببعضه في ذاكرتها، فلاشات سريعة تومض و تتداخل ...

دوّى شيء بداخلي... عندما تذكرت!!

كما في ذلك اليوم، على نفس هذه الحال ، شيء ما ، كان يدور بعقلي، الكثير من النّوارس المذبوحة ،وحكمة الله المجهولة تزيد من كثرة وحدّة الخناجر على أعناقها ،كان يُذبح بشكل مريع ، مجزرة للنّوارس، كلّما ذبح أحدها تغيّر لون الدّم إلى الأسود ،لم يبق إلا لونان ،أبيض وأسود متمازجان وبينهما برزخ من اللاشيء... يمنع الواحد منهما الآخر من الاختلاط به ،هذا ما جرى!! أنا بحاجة إلى جرعة أخرى من الألم، علّه يجعل هذه العتمة تزداد فتخفي ذلك البياض الأرعن المزيف ،اقتربت أسألها ، حركتها بقوّة وجعلت أضربها ومن كلّ الجهات، أن قومي، لاشيء يستدعي هذه المجزرة!! ،قومي ، كلّ الأشياء التي ترحل، أشياء لا تستحق البقاء !! ،قومي هناك من سيجبر كسرك.!!..لكنّ خواطرها كانت أقوى.. والأفكار السّوداء بداخلها كانت أقوى، لذلك بقيت على حالها الممزّقة طويلا..

في تلك اللّحظة تحرّكت مشاعر مجهولة بداخلي ، هناك تماما، حيث لا تصل الدّموع أبدا ،هناك ...هناك أعمق حيث ينبعث الألم ولا يمكن

لأي يـد أن تصـل لتسـتأصله! هنـاك عميقـا... حيـث تلـك السّـماء تحـت الأرض السّـابعة و تلـك الأرض فـوق السّـماء الثّامنـة، مليئتـين بجميـع الألـوان التّـي تـرى ولا تـرى ،هنـاك حيـث تلـك الألـوان التـي نشـعر بهـا ونتذوّقهـا ونلمسـها ،هنـاك حيـث الجميـع ولا أحـد ،هنـاك... حيـث اللـه .

وكأنّمـا كانـت خواطرهـا مفتاحـا جعـل شـيئا غـير مرئيـا بصـدري ينبجـس وينفتـح عـن آخـره ، " لقـد تركنـي ،نعـم... لقـد تركنـي! " كأنّمـا غصـت بداخـل ذلـك الثّقـب بصـدري ورُجَّـت نـوارسي بقـوّة ،و في دوامـة، درت طويـلا إلى أن فتحـت عيناي...عـلى نفـس المشـهد ونفـس الجسـد الملقـى عـلى السّرير...تأمّلتـه مجـدّدا ومليّـا، لأجـد أنّـه أنـا وقـد هزمـت بعـد محاولـة وقـوف فاشـلة!!

****

"ويسألونك عن علاقة الحبّ بالرّوح ..قل أنّى فكاك قطرات المطر وقد إئتلفت ببعضها قطرة.. قطرة !! "

الحـبّ روحـان يتداخـلان ببعضهـما متـى مـا رنّ جرسـه في قلـب أحـد العاشـقين ،الحـب لا يعـرف الحضـور والغيـاب وليـس اسـتجابة لوخـزة غريـزة لا تتعـدى الأعضـاء الجنسـية للذكـر والأنثـى ،الحـبّ أنـزل مـن الجنّـة عـلى أجنحـة ملائكـة الأرزاق ليُقـذف عـلى شـكل شـعلة مـن النّـور في أرواح البـشر ولا دخـل للعقـول والقلـوب فيـه، لذلـك إذا سـألوك عنـه صحّـت الإجابـة بقولـك اقتباسـا عـن قولـه تعـالى " ويسـألونك عـن الحـبّ قـل الحـبّ مـن أمـر ربي ومـا أوتيتـم مـن العلـم بـه إلا قليـلا "

الحـبّ لا يسـأل! ولا يجيـب! وإذا حـلّ لا يرتحـل! عزيـز أبي! لا يحـبّ أن يكـون نسـيا منسـيا و لا يعجبـه متجاهلـه والمسـتهزئ بـه، يتلهّـى عنـه قليـلا ثـمّ يخاتلـه فيقـذف بنفسـه في عقـر روحـه ، و يغـور في عمقـه فيؤلمـه ويسـعده في آن ، ويدلـه صاحبـه فيجعـل لا يظهـر لـه أسـعيد هـو أم يتألّم!!.. يجمـع بـين كلّ المتناقضـات ! فـإذا قلـت(لا) قصـدت(نعـم) ،و(لا أريـد) لا تعنـي إلا أنّـك(تريـد)، في الحـبّ(لا أدري) تعنـي(أدري) ، و (ابتعـد) تعني(اقـترب)، في الحـبّ (أكرهـك) لا تعنـي إلا أنّنـي(أعشـقك) و (لم أشـتقك) تعنـي (أنـا أمـوت أسرع بـك إليّ!) وهـذا كلّـه للحـبّ وليـس لغـيره!

و الـرّوح إذا أحبّـت اغتصبـت إليهـا نصـف روحهـا الآخـر عنـوة، لتجعلـه يحيـا إلى جانبهـا، وفيهـا و بهـا ومعهـا ،وهـذا مـا فعلتـه. كان عـليَّ أن أسـافر إلى مخيّلتـي لأعيشـه إلى الأبـد ، بعـد أن حرمنـي منـه الواقـع مؤقتـا ، فهـل سـأعود بـه، أو بدونـه ،أو بـه بدونـه!

هـذا مـا كان يجـول في عمقـي كـروح ضالـة في عـالم الحـب سـابقا ،وهـذا مـا فتحـت عينـي بأصواتـه، لأجـدني قـرب مشـهد لأشـدّ مـا عشـقته روحـي، سريـر معطّـر بالخزامـى الـبريّ المنـدّى ،تنـام عليـه قطعـة مـن روح اللـه ، ينبـض جانـب صدرهـا الأيـسر بطمأنينـة رقرقـة زخّـات المطـر على الحشـائش الخـضراء ،كمـلاك كان ممـدّدا هنـاك ...منعتنـي الدهشـة مـن الدّنـو فرحـت أتأمّلـه مـن عـلى بعـد أميـال مـن الشّـوق ، أهـذا حقـا هـو أم أنّهـا لقطـة لذيـذة سرعـان مـا سـتنجلي إذا مـا دنـوت ، تضخّـم جناحـا النّـورس بصـدري حتّـى لكـدت مـن الفـرح أتمـزّق وأتـلاشى ، لا أعلـم كيـف؟ لكـنّ خيطـين مـن النّـور انبجسـا مـن تينكـما الحدقتـين بـرأسي ،كانتـا براقتـين جـدّا ،لأوّل مـرّة أرى نـورا يبعـث نـورا أقـوى منـه، أهـذه هـي الـرّوح! أتراهـا القاعـدة الثّانيـة! "الـرّوح" وهـل تبـكي الأرواح!

الـرّوح ، تلـك التـي طلـب منّـا اللـه أن لا نسـأل عنهـا، لأنّ لا أحـد عـلى علـم بهـا سـواه ،شيء مـن اللـه فينـا ،رابـط قـويّ منـه يتدفّـق بداخلنـا ، فهـل ينبغـي لمـن يملـك جـزءا مـن اللـه أن يحـزن !! أن يقلـق!! أن يخـاف!! طاقـة مثلهـا عظيمـة ،عظيمـة جـدا والدليـل عـلى ذلـك أنّ ذلـك الجسـد لا شيء بدونهـا ،يتقلّـص ،يخـضرُّ، فيـزرقُّ ، فيتبنفسـج ،فيـذوب، فيتـلاشى .ولأنّنـا نحـن البـشر مجبولـون عـلى معاكسـة مـا نؤمـر بـه، فأبـدا مـا توقفـت عـن السّـؤال عنهـا ، ظانـة والظـنّ قطعـا خاطـئ أنّ اللـه أراد مـن خـلال التّنبيـه عـلى عـدم السّـؤال عنهـا، أن نفعـل ذلـك ، لأنّـه يعلـم منـذ البـدء أنّ البـشر لابـد يفعلـون مـا ينهـون عنـه !!

داعـب نـور الشّـمس وجهـه، فجعـل يتمطّـط في سريـره ،فتـح عينيـه ببطـئ

شـديد ،ثـمّ أعـاد غلقهـما سريعـا ،دنـوت مـن النّافـذة وجعلـت أحـاول إبعـاد أشـعّة الشّـمس عـن وجهـه، وجعْلـه يسـتظلُّ بظـلّي ولم أكـد أفـرح بذلـك إلا و قـد اسـتبق الحـزن الفـرح لـدى بـاب قلبـي فسـبقه، إذ أنّ الشّـمس كانـت قـد نفـذت مـن خـلالي إليـه .

كان كأجمـل مـا رأت عينـي ، لم أرد أن أضيّـع تلـك الفرصـة التـي منحتهـا لي روحـي في تأمّله...فهـي نـادرا مـا تـأتي كاملـة !! دنـوت بحـذر وجعلـت أنـزل ببطـئ لأحـطّ عـلى جسـده ،مـددت يـدي نحـو وجهـه، حاولـت أن ألامـس شـفتيه عـلى طريقتـي بأطـراف أنامـلي ، أن أضـع راحـة يـدي عـلى وجهـه ثـمّ أنـزل بأطـراف أصابعـي عـلى دقائـق تفاصيلـه ،عينيـه، فخديـه فأنفـه فشـفتيه ولكـن يـدي سرعـان مـا تلاشـت عـلى ملامحـه !!

****

" الهوى الذي في صدرك لمحبوبك هو ذات الهوى الذي في صدر محبوبك لمحبوبه ..

و كذلك آلام فقدان الهوى إذا بالقلب هوى !! "

الآن

في عمق الحقيقة ...

يطفو الألم ،

يتلاشى قليلا...

يبدو أوضح وأعمق أخرى...

يتبدد.. يبدو..يتبدد...

ف،

يبدو

و المعركة أبدية !!

نعم، معركتي مع الألم ،ظهوره واختفائه أبدية !! ،فالآن مثلا تقمّصني الألم و مازجني لحدّ الانسحاق...فقبل وقت قصير استيقظ من سريره فتح حسابه، تبادلا بعض كلمات الغزل ،ثمّ خرج ومنه هي لم تخرج!!، تسكن خياله تماما كما يسكنني ، تخطر على مخيلته فيبتسم كالمدله، يتفقّد حسابه كلّما سنحت له الفرصة أو خلقها، يبحث عنها بين المدردشين ،و في كلّ الحالات حضرت هناك أو غابت يترك لها رسالة ، يعبئ فيها أشواقه وحنينه ويدكّها بعضها على بعض !!

وليس كلّ ذا ما كان يشدّ على أعصابي غيرة وحنقا وغيظا، إنّما تلك الخارطة التي كان يرسمها لمستقبلهما في زهو شديد وبهجة ...

الآن مثلا، يتخيّلها بكامل ألقها وتأنقها وقد دخلت من باب الحافلة، يفتح منخاريه عرضهما وطولهما ليستنشق أريج عطرها الحقيقي المتوهّم...

"أنا هنا يا روحي ،اشتقتك أيضا.. و كثيييرا..."

كانت هذه رسالة قصيرة واردة منها، بحماس فتحها فقرأها ثمّ عاد متابعا عمله...بنشاط أكبر !! بفرح أكبر !!...و بألم في قلبي أكبر !!

مضت أيام فسنون، و هما على نفس الحال ، يهاتفها يوميا من ساعتين إلى ثلاث... وربما أربع... لأنّني بالكاد أعرف مقدار الوقت من آخر ما يقولانه قبل إقفال الخط بأن أربع ساعات و أحيانا أكثر، قد مضت دون أن يشعرا بها لفرط ما قصيرة هي لحظات المسرّة !!

جسدي الشّفاف، بالكاد يدرك خارطة الزّمن. إذ يتمدّد على فراغ قلبي وينخره ،كنت ما أزال ألحقه من مكان إلى آخر عندما فهمت ممّا يخطر بباله أنّه سيتقدم لخطبتها ،تقلّصت عضلاتي غير المرئية ،وشعرت بوخز مؤلم في قلبي،ضاقت حفرة النّورس كثيرا بينا تضخم هو كأنّما أراد أن ينفجر ، شعرت به يمزّقني ، ويشق أوصالي ليتمكّن من خلق فراغ يسعه ،شعرت بريشه يدغدغ حلقي فيشعرني بغصّة واحتقان أليمين ، سرعان ما يزدادان تجذّرا وعمقا..

- "غدا تصبحين لي! "
- أسعيد أنت!؟
- ليس كثيرا، كنت سأعيش هذه اللّحظة عاجلا أم آجلا !ومع أي أنثى في العالم غيرك !!

-

آآآه... أيّها المحتال ، هكذا إذن ...تصبح على خير.

يتسرّب الحديث شلالا من الحمم داخل أذناي ،أشدّ عليهما ،أتفادى سماع كلّ ذلك، أحاول ذات الوقت أن أغلق عيناي عن المشهد ، أتلهى عنه ببعض اللاشيء .. لكنّني.. بالكاد أقدر، إذ أنّ الصوت أقوى و يتردد، والمشهد أوضح ويتكرّر، و لا سلطان على الخيال إذا سرح في الواقع ...تحت سلطة سوادي !!

****

" لن تنتشي بشيء من السّعادة ..وإن في خيالك !! و أنت تحاول الاقتراب من شخص لا تملكه !!"

مطلقا لا تسير كلّ الأمور التي نشتهي كما نريد ،ربّما لنتعلّم من الحياة ثقافة المنع وأنّنا مطلقا لا نأخذ كلّ الأشياء التي نشتهي !!وإلا فكيف ستكون الحياة دار اختبار !!

قضيت اللّيالي اللّيلاء وأنا أراقب قسماته، الحقّ المشروع الوحيد الآن لي!!، تأملتُ تلك الابتسامة التي تسطّحت على وجهه ،شيء من النّور كان ينبجس من حدقتاي ،و رغم الألم كنت سعيدة ،و النّورس بداخلي كان هادئا، حاولت لمس وجهه ولكنّني استدركت أنّه مجرّد طيف قبل أن تصل أناملي إليه فسحبتها ، وسحبت معها كلّ ما أردت فعله ،وضبطت في مخيلتي بند المسافة (لن تنتشي بشيء من السّعادة ..وإن في خيالك!!...و أنت تحاول الاقتراب من شخص لا تملكه!!)

رنين منبّه القدر أيقظ حواسي المستغرقة في التّأمل ، لقد قررت بعد ليلة البارحة ،مشاركته يوم سروره بكلّ تفاصيله أو لنقل إنّني مجبرة على ذلك ،فبالكاد أعرف مكانا آخر آوي إليه، منه مهربي وإليه ملجئي و لا خيار لي في كلا الخيارين.

جاء وقت الظهر بسرعة لم أستسغها ، حممته بيديّ غير الظاهرتين، ساعدته على ارتداء ثيابه ،عطرته ، نظرنا سويا إلى المرآة ، الضحك في عينيه والدّمع في عينيْ... مسحته و ابتسمت...برضا !!

وبينما كان يسير إليها والخاتم في يديه ، تسير أحلامي بقدمين قرحتهما

الجروح نحو القمة ، الجميع فرح... حتى أنا! ، أدنى الخاتم من يدها... تقدّمت ، يد تمسك بيده تستجديه التّراجع وأخرى تباركه ، عين تتوسّل عينيه الرّحمة، وأخرى تتمهّل أحلامي، أدخل الخاتم في بنصرها الأيسر، رأيت أحلامي وقد هوت بيمنى عيناي...صفّق الجميع على دخول الخاتم... إلا أنا...فقد صفقت على دخول الخاتم .. وانتحار أحلامي...

أليس من المفروض أنّ كلّ هذا من حقّي! أليس المفروض أنّني من كانت يجب أن تعيش هذه اللّحظة ...كلا كلّ شيء لم يكن ،كتب الله له أن لا يكون ،،،لكن ماذا عن التّمزق في أحشائي! ماذا عن الألم !!

يجيب صوت سواد السّاخر بداخلي (إيه ... طبعا ،قال له الله كن !!)

يرد عليه صوت بياض (إنّه الابتلاء ،فصبرا !!)

يتصارعان ، تشدّ إحداهما الأخرى ،تلطمها ، ترميها أرضا وتركلها ، تدميها و تحرقها، كلّ منهما تريد إقناعي، إحداهما بأن أنقم وأكره و أتمرّد والأخرى بأن أمتلئ حبا ورضا بقضاء الله ...وأتألم! أتألم بشدّة!

تارة أفرّ على جناح بياض إلى آلام النّاس ،أشدها ألما فالأشد أحاول نسيان ما يعتريني من الموت اليومي ، ألحظ سمّية ،صبية في الرّابعة عشر سنة ،جذابة المنظر ، والقدّ ، بهية الطلعة حلوة المعشر ،أبحر في زرقة عينيها ، شعرها الأشقر الطويل، فأجدني أسبح في قطعة من الجنّة، أتسلل لأعماقها، لخواطرها ،فأجدها صبية كفيفة ،تجاهد في الحياة باسم الله، لا يفتأ لسانها يذكره ،تزاول أعمالها يوميا ،وبنفس الجد والأمل، أسمى طموحها أن تحفظ كتابه، رغم ما تجده من صعوبة في ذلك بين قريناتها المبصرات.

أتطلّع غير بعيد إلى وسيلة ،فتاة في الثانية والعشرين، تمت خطبتها على حبيبها بعد كبد عظيم ،واجهت فيه التقاليد التي تتبناها عائلتها بعدم تزويج البنت من الشّخص الذي عشقته وخانت الله وأهلها من أجله رغم مبادلته لها الحبّ ورغبته في السّكن إليها ، لأنّ كلّ من بالحي قد سمع بقصتهما وجلب حسبهم وصمة العار للعائلة، طبعا لم يسألها أحد عن مشاعرها نحوه، بقدر ما سألوها عمّ إذا كانت قد مارست معه شيئا من المحرّمات ، ضربوها ،أرغموها على الزواج بقاصد لها لا يعرفها ،لكنّها استطاعت أن تقف في وجوههم و تنال مبتغاها الذي وجدته قد أبدلها بأخرى في الوقت القصير الذي كانت تكابد فيه للحصول عليه..
أذرف وإياها ما تحجّر من الدمع في عيني، وألعن بؤسي على حبيب لم يكن قدري .و ليس لي معه حيلة!

****

لم أبك لم أصمت لم أنهض *** ولم أرقد و كلّي تاه في أجزائي
فجيعتي بك أنّني تحت الثّرى *** روحي و من فوق الأرض أعضائي

أحمد مطر

كنت خضراء تماما كربيع جاء مبكرا ، السّماء تحيط بي من كلّ الجهات بزرقتها والنّسيم يمرّ بيسر عبر مسام جلدي ، الماء في عيني يتدفّق غزيرا ليعود فيتسرّب داخل شراييني.
لا أذكر... صدقني ...جاء الإعصار بغتة فهيّج بحيرة البجع التي كانت تسبح بداخلي ، و تسكنني ،كان غاضبا بينا يحملق في اخضراري ،تعاهدنا على البياض ،على الطيران معا حتى النّهاية ،وها أنا ذي أنكث بعهدي .
أشعر بدوار غير طبيعي في رأسي ، بجعاتي تحاول رشقي بالقبل الأخيرة، لكنّ الإعصار كان قويّا ومدوّخا .
يا الله !؟ أنا لا أحبّ الخيانة عاهدتها على الأبدية، كيف سأجعلهما تنمحق الآن و تزول كأنّ لا ميثاق كان بيننا .اقتربت إحداهن تتخبّط وسط قوّة الإعصار ثمّ صلّت داخل الهواء النّقي الصادر من جسدي و سرعان ما فاضت عيناها بالدّمع الذي أحسسته ينسكب في قلبي ساخنا ما جعلني أشاركه البكاء، ضممته طويلا وأنا أحاول جعله يتقبّل فكرة عدم قدرتي على السّكون بداخلي ،"هناك فيَّ تقبع الظلمة بشكل مروّع و عليّ أن أتخلّص منها "أخبرته و أنا أربّت ما بين عينيه بحنان وقد كان دافئا كعهدي به .

اقـترب الـسّرب جميعـا هـذه المـرّة و غطـا كلّ جسـدي بياضـا وبـدأ ينشـد أناشـيدنا المعتـادة ،كان نشـيجا حزينـا ،لأوّل مـرّة تنشـد بجعـاتي بهـذا الكـمّ مـن الحـزن ، كلـمات أنشـودة الرّحيـل كانـت ممزّقـة و تتماهـى في هـالات جسـدي لتصـل إلى عظامـي فترجّهـا رجًّـا عنيفـا حتـى لكأنّهـا تـكاد تكسرهـا كسـورا لا تجـبر... امتـلأت بالنّـور الـذي انسـل بـين البجـع لكـن و عندمـا عـاد الإعصـار طـار كلّ البجـع و أصبحـت عاريـة ، عـاد الـدّم وغـار في شراييـني و تضـاءل صـوت النّشـيد مـع تطايـره رغـما عنـه...

هنـا لفضتنـي الأرض بقـوّة ، لتخـرج تلـك الآهـة العميقـة مـن فـؤادي ،أحسسـت كأنمّـا ولـدت لتـوّي وكان الأمـر مريعـا ولذيـذا في الآن ذاتـه . نفـس الـدوار والغثيـان مـا يـزال و رأسي يترنّـح يمنـة ويسرة...انتبهـت لوجهـه الفوضـوي مجـدّدا بلحيتـه وشـعره المنكـوش !! عندهـا فقـط أدركـت أنّنـي مـا أزال ممـدّدة في عيـادة الطـبّ النّفـسي .

- ما اسمك! ؟

الصـوت نفسـه بالسّـؤال نفسـه ، اسـمي !! لمـاذا لا يفهـم أنّنـي بحـيرة عاريـة طـار عنّـي بجعـي صرخـت في وجهـه.

- " لمـاذا يطـرح الجميـع ذات السّـؤال ، هـو.. هنـاك ..قبـل عـام ،أيضـا طـرح السّـؤال نفسـه "

أحسسـتني في حالـة تخديـر عامّـة و شـديدة ، مغيّبـة عـن الوعـي تمامـا ، أضفـت بعـد قهقهـة طويلـة مجنونـة مصحوبـة بالدّمـوع " أنـا أحـلام ،أحـلام كامل...أحـلام كامـل و...فقـط."

مـا أصعـب أن تهـزأ ضاحـكا مـن ألمـك ، أن يجتمـع حبـل الضّحـك والحـزن

ليعدماك. "لكنّني لست غبية ، لن أجيبه نفس الإجابة.. تعالت قهقهتي أكثر ..وأكثر !

عندما طرح السّؤال التّالي.. انتابتني دوخة أشدّ من التي كنت أعاني منها من قبل ومعها رغبة جامحة في البكاء ،لم أقو على كبتها فبكيت، بكيت حرقةً وألمًا ،كأنّما كانت المدافع تصوّب لفؤادي فتخلعه عن مكانه ،وتقذف القنابل إلى دماغي فتفجّره ، اختلطت الصور بعضها ببعض في ذاكرة جميع خلاياها حبلى ، وكان المخاض عسير الطلق و بحاجة لقيصرية على جناح السّرعة.

- هيا أحلام ، لنبدأ من البداية ...ماذا حصل..! ؟

- أحلام كامل ، واحد وعشرون سنة ، طالبة أدب عربي .

صمتُّ طويلا ثمّ أضفت:

- " نعم أتذكّر ..كنت صغيرة ،أركض خلفه و كان طويلا ونحيلا يرتدي معطفا أسودا و بنطلونا بنفس اللّون ، تعلو رأسه قبعة ،كان يظهر ويختفي فجأة ...

- من! ؟

- شششششـــــ - أشرت إليه واضعة سبابتي على شفتي - لا يحبّ الأسئلة ،يتكلّم ،يثرثر ،ثمّ يرحل ،يحبّ السّماء ليلا ، وعند الشّفق ، يتأمّلهما طويلا و بعمق ،ثمّ يحدّثني عنّي بشكل مميّز بريء ،يخبرني عن أشياء لا أعرفها ولم أكن أنا نفسي لأكتشفها فيّ . في البداية كنت أخاف البقاء وإيّاه بمفردي لكنّني تعوّدت عليه وصرت أنتظر بشوق رجوعه بعد كلّ اختفاء مفاجئ. قال مرّة أنّني ابنة الشّمس من القمر

في إحدى لقاءاتها به عند الكسوف .لم ينظر لي أبدا ، ولا أنا نظرت في غير عينيه وهما تعانقان السّماء . وتتوحّدان مع الشّمس والقمر ..أحيانا ،كان يزورني ليلا ،يروي لي عنّي وكيف أنّني سأصبح كاتبة مشهورة .يحضر لي صورا من المستقبل .كنت أسعد كثيرا بذلك .اختفى مرّة مطوّلا ،حزنت بشدّة ،خفت أن لا يعود ،كنت عند كلّ مساء أفرش السّجادة وأرفع يدي إلى الله وأنا ألهج بالدّعاء ،راجية منه بكلّ صدق وبراءة أن يرجعه من أجلي... ولأنّ الله لم يردّ لي دعاء ، رجع ،لكنّه لم يكن كعهده ،كان باليا وحزينا ،ضعيفا وممزّقا ،ضممته بشدّة ،أحسست لأوّل مرّة أنّني يمكن أن أخبئه تحت جلدي وأدسّه في أعماق روحي ،لم يكن الهواء يمرّ إلى رئتي إلا بعدما يعبر رئتيه ، لذلك كان يصلني مذبوحا و ضئيلا ،و مع ذلك كنت سعيدة به .

أحيانا ...كان يركض مطوّلا.. لدرجة أنّني لا أتمكّن من اقتفاء آثار خطوه، وأخرى كان يمشي ببطئ شديد ،لدرجة أملّ معها الانتظار خلفه . كان قاسيا وحنونا في الآن ذاته، لكنّه لم يعد يحدّثني عنّي ،كما في السّابق ،سكن الصّمت دواخله... أحسست أنّنا أصبحنا واحدا عند أحد المنعرجات، أحسستني ظلّه لأنّه كان أجمل من أن يكون ظلّي ، كلّما كنت أشير إلى نقطة في جسدي ، أستحي لأنّني كنت أشير بدلا منّي إليه ، أجدني أقف أمام المرآة لأجمّلني فلا أرى سواه .أجمّله ،ألبسه معطفه ، كذا أضع على رأسه قبعته مبتسمة ،ثمّ يمضي .. أمضي...نمضي !

- هذا يكفي! ؟...أريد أن تعرّفيني على أحلام ...من تكون! ؟

غلبت حشرجة الدّموع صوتي فخرج منخنقا.

- لا كينونة لنا بعدما نحبّ ، نصبح جميعا تابعين للحبّ!

- بلى... أحلام هنا ...كانت و ما تزال موجودة، لها ماض ومستقبل لكنّها لم تعد تبصرهما ،أحلام متجمّدة في مدّة زمنية محدّدة وعليها أن تذيبها لكي تتحرّر من سطوة الجليد وت مضي إلى هناك حيث يجب أن تكون...

- أنا أحب أن أعد عمري بالأيام ...أتعلم ... كان أبي دائما على حق عندما قال أنّني ابنة يوم..

- لم !؟

كنت أحاول قد المستطاع أن لا يتشتّت انتباهي فقد كانت ممتلئة وفارغة في آن واحد وهي تقفز عبر صفحات عمرها كفارسة تمتطي جوادا أبيضا و تمسك عصا سحريّة، لم أكن أجيد التّوغل في الدّواخل بعد لكنّ أحلام كانت عارية ، عارية لدرجة أنّني كنت أغوص ثمّ أطفو ثمّ أعود فأغوص أعمق ، لأجدني على السّطح دون شعور منّي .

- لأنّني أذكر كلّ الأيام السّعيدة الّتي عشتها في حياتي ...

- ما رأيك أن تشاركيني بعضا منها ! ؟

حاولت أن لا يتشتت انتباهي علّني أعيد لروحها الحياة من خلال ماضيها و ما رابني أنّها و في معظمها بسيطة حدّ التفاهة:

" أوّلها كان يوم اشترى لي أبي الأدوات المدرسيّة.. كان يوما لا ينسى ، محفظة وأقلام وكراسات ومعلّمة وصف .. ثانيها...كان يوم كتابتي لأوّل قصّة في حياتي ،كانت لذيذة رغم أنّني لم أعرها أيّ اهتمام في البداية..

ثالثها كان يوم صليت الفجر و جدّتي ،كان فجرا مميّزا ،آخر مرّة أراها فيها تتحرّك ،أذكره كأنّه الآن ، نهضت وهي تئن ، توضأت ثمّ افترشت السّجاد وبدأت بالصلاة ،كنت قد قمت بعدها فتوضأت ثمّ عدت للصّلاة بجانبها بينما كان الضّوء خافتا جدّا ،كراهبتين وسط الظّلمة كنّا و النّور ينبجس منها، رمقت أصبعها عند التّشهد الأخير ، وددت تقبيله والارتماء في حضنها لكنّها سرعان ما سلّمت وراحت تسبّح . لا أعلم السّبب وراء ذلك الكمّ المنجرف من المشاعر لكنّه كان لذيذا ، فقد خلت للحظة أنّنا في أبهة خضراء بينما الفراش يحيط بنا وهو يرفرف عاليا أحسست بذلك بعمق في داخلي و عندما سرت وإياها إلى سريرينا ،سألتها سؤالا غريبا غبيا كجميع أسئلتي :جدّتي من علّمك الصلاة! ؟ تعلمت جدتي الصّلاة بمفردها ، وفهمت من دردشتنا القصيرة بعد الصلاة أنّ لا أحد كان يحرص عليهنّ كي يتعلمنّ كيفية الصلاة الصحيحة بقدر قلقهم من عدم إتقان أعمال الطبخ والتّنظيف...أمّا الأخير...

- الأخير! ؟

نظرت إليّ ، توقف تزاحم الحروف عند شفتيها ،تجمّد الهواء من حولنا و لا أعلم كم من مرّة كرّرت كلمة السّؤال الأخير قبل أن تنفجر دموعها على خدّيها ...

- الأخير كان...كان يوم لقاءنا.

****

"أنا لست هذه البشرة أنا لست هذه الملامح لكنّي الرّوح التي تسكنها "

جلال الدّين الرّومي

"هكـذا كانـت البدايـة عـلى الأغلـب ،شيء ثقيـل جـدّا يجثـم عـلى صـدري، أسـود اللّـون فحمـي مخلـوط ببيـاض ناصـع يتماهيـان في بعضهـما برغبـة مـن شيء فـوق طاقتـي ، أحيانـا أركـض كالأبلـه بـلا سـبب و لسـاعات طويلـة، أحيانـا أخـرى أنـام لأيـام متتاليـة ،حتـى يخيّـل لي أنّنـي مغمـوس في علاقـة لا اسـم لهـا مـع النّـوم .

كنـت مولعـا بالحيـاة التـي أعيشـها و أنـا نائـم ،خسـاراتي هنـاك كانـت لذيـذة فنـادرا مـا تقصـم ظهـري أو تبكينـي ،نـادرا مـا تجرحنـي أو تـبري فؤادي.تمنيت أن أكـون دائمـا كـما أنـا النّائـم ،قويّـا ،مندفعا ،شـخصا مناسـبا لشـخصية ليسـت لي ،و لا تشـبهني .لذلـك كنـت أخـشى غسـل وجهـي إذمـا اسـتيقظت، أشـعر كأنّمـا يجعلنـي المـاء أنسـلخ عـن أنـا الحقيقـي ويعيـدني أنـا الأبله،أنـا الـذي لا أقـوى عـلى مواجهـة نفـسي بأسـئلة طالمـا رددتهـا بينـي وبينـي ،كررتهـا حتـى حفظتهـا ،و حتـى عـلى جـدران روحـي نسـختها !!

من أنا! ؟

ماذا أريد من ذلك "أنا" الذي أبحث عنه من خلال السّؤال رقم واحد!؟

هل وأين سأجده!؟

و إلى أين سآخذه إذا وجدته! ؟

قـد يبـدو الأمـر سـهلا ،مؤكـد هـو كذلـك.. لكـنّ التعقيد بداخـلي يجعلـه صعبا.

هـذا أنـا ...أحيانـا أحسّـني كائنـا فضائيّـا ،غـير مـرئي ،أمـرُّ بـين النّـاس ،أتغلغـل بداخـل أجسـادهم دون أن يشـعروا بي ،أحيانـا أقـف في منتصـف الشّـارع ،يمـرّون بي ،لا يبصرونـني ،أتنصّـت عـلى دردشـاتهم ،شـجاراتهم ، همسـهم ، رشـقاتهم لبعضهـم البعـض ، أشـاركهم تعاسـتهم ،سـعادتهم ،أنفـض عنهـم غبـار تعبهـم ،أمسـح عرقهـم ، بـل دمعهـم ، أعـدّل ربـاط أحذيتهـم ،أصفّـف شـعرهم.هكذا ، ظـل بائـس !!. أنتـشي كثـيرا إذمـا رأيـت أبـا يمسـك يـد ولـده خيفـة أن يفلتهـا وهـما يقطعـان الطريـق ،أو أُمًّـا تلملـم شـعر ابنتهـا داخـل القبعـة لتقيهـا حـرّ الصيـف ، كـما كنـت أسـعد ببعـثرة ذكريـاتي عـلى خطـوط يـدي وقراءتهـا مـن جديـد ، ثـمّ سـقيها بدموعـي كي تبقـى حيّـة في ذاكـرتي "

وأنـا راجعـة مـن عنـد الطبيـب النّفـسي تذكّـرت مـا رواه لي عندمـا طلبـت منـه أن يحدّثنـي عـن نفسـه ، قبـل أن تقاطعنـا رشـاد لتطلـب منّـا النّـزول كالعـادة، لمحـت الدّمـوع تتحجّـر عنـد طـرفي عينيـه وهـو يحـكي ، طلبـت منـه المواصلـة لكنّـه توقـف "لا يجـب أن ينتظرنـا الآخـرون طويـلا ، نواصـل فيـما بعـد!"

كان فيلسـوف الألم بـلا منـازع ، قبـل أيـام مـن مجيئـه عندنـا ظننتنـي أحـزن مخلـوق عـلى وجـه البسـيطة ،بـدأ ذلـك الشّـعور يتضـاءل ، طالما كنت أتسـاءل عـمّ تخفيـه أخاديـد وجهـه ويديـه ؟ مـاذا يسـكن بداخلهـما ؟ ألم يجـد أنـاه بعـد كلّ هـذا العمـر !! ألم يصـل بهـا إلى مـا يريـد ؟ سـألته ذات السّـؤال بعـد العشـاء ، لكنّـه اكتفـى بتأمّـل وجهـي تأمّـلا بعـثر مـن خلالـه الغيـوم مضيفـا عليـه الضّبـاب ولم يُبـق إلا عـلى رسـم ابتسـامته المطمئنـة التـي جعلتنـي أبتسـم بـدوري دونمـا سـبب وجيـه .

أصبح طيفه هو الآخر يسكنني ، يملأ فراغات لم أنتبه لها في دواخلي وأعماقي ،فحتى أنا لم أكن أعرف من أنا !!ولا ما أريد منّي !! ولا إن كنت سأجدني !! ولا إلى أين سآخذني إن وجدتني !!

- يا آنسة ، هاتفك يرن .

نبّهني صوت طفولي بريء يجلس حذائي إلى رنين هاتفي و كان نضال المتّصل..الصديق الذّكر الوحيد المقرّب إلى روحي ونادرا ما كان يتصّل بي لأنّ أغلب تواصلنا كان عبر الفايسبوك حتى إذا غبت طويلا عنه هاتفني ليطمئن عليّ..تخلّيت عن الجميع منذ مدّة طويلة ..لم أعد أجد في الحديث إلى النّاس ما يسلّيني فاعتزلتهم جميعا واكتفيت بنفسي.. بعض صديقاتي المقرّبات لمنني كثيرا على ذلك وبعضهن الآخر شغلتهن الحياة عنّي ..فكفينني شرّ السّؤال و الإجابة .

- أهلا نضال ،كيف حالك! ؟
- بخير ، ماذا عنك يا شريرة! ؟ أين أنت ؟ غبت طويلا ..
- أنا بخير ...في الحافلة ... ربّما نحو المنزل!
- بما أنّك لست متأكّدة من الوجهة ، مرّي ندردش قليلا.
- أووووه هذا صعب!!
- هيااا !! أقسم أنّ المستشفى لا يطاق ثمّ إنّني اشتقت الحديث إليك .
- حسنا ... قادمة.

كانت الصغيرة تراقبني وأنا أكلّم نضال و تبتسم عفويا ، بعثرت شعرها مداعبة ثمّ سألتها :

- ما اسمك ؟

- أمل.
- هممممم ...اسم جميل .. من سمّاك! ؟
- ماما

بـدا لي أنّهـا أحبّـت الحديـث إليّ ، نظـرت يمنـة ويـسرة أبحـث عمّـن يصحبهـا فلـم أجـد أحـدا.

- مع من تتنقّلين ؟!
- وحدي .

بـدت لي أصغـر عـلى التّنقـل بمفردهـا .نحيلـة و قصـيرة ، ترتسـم هالـة عريضـة سـوداء مسـتديرة تحـت عينيهـا المشربتـان بحمرة ..

- مرحباااااا ، خشيت أن لا تأتي يا عفريتة! ؟
- بلى... بدوري كنت في حاجة للحديث إليك.
- مـا بالـك !؟ دعينـي أرى عينيـك ، اااا كنـت تبكين ولابدّ فهـما محمرّتين ومنتفختـين ،تبديـن مريعـة لـن أتزوجـك إذا بقيـت هكـذا يعععععع..هـه !! حاولـت تلطيـف الجـوّ كعـادتي لكنّنـي أخفقـت إذ يبـدو أنّ حزنهـا أعمـق مـما تخيّلـت ، فهـي لم تبتسـم حتـى مجاملـة كعادتهـا . ارتمـت عـلى الكـرسي ثـمّ أسـندت رأسـها عـلى ظهـره وهـي تغمـض عينيهـا وسـط تنهيـدة طويلـة. جلسـت بجانبهـا صمـتٌ قليـلا و بمـا أنّنـي لا أتحمّـل رؤيتهـا كذلـك سـألتها .

- ما بك! ؟
- .....
- أحلام!!! ...أكلّمك !!

فتحـت عينيهـا ومالـت بصدرهـا قليـلا إلى الطاولـة أمامنـا حيـث كانـت هنـاك

بعـض قطـع البيـزا التـي تحبّهـا و كنـت قـد اشـتريتها كي نتناولهـا معّـا عـلى الغـداء المتأخّـر ، أمسـكَت قطعـة منهـا ثـمّ راحـت تخضمهـا ببطـئ لتنظـرني فجـأة منفجـرة بالبـكاء .

- لم على الجميع أن يعاني!! ؟
- ماذا هناك! ؟من يعاني! ؟ (قلت مستغربا)
- أمل .
- من أمل!!

وضعـت قطعـة البيـزا عـلى الطاولـة و بقيـت تتأملّهـا حتـى ظننـت أنّهـا سـتخترقها بعينيهـا بينـما عـادت للـوراء لتتذكّـر الموقـف شـقّت ابتسـامة بريئـة وسـط دموعهـا .

- أمـل جميلـة يـا نضـال.. ابتسـامتها كفلـق الصبـح و عيناهـا بلـون الشّـمس المنبثقـة مـن الغيـم الشّـديد البيـاض الـذي يسـبح في السّـماء شـديدة الزّرقـة ، التقيتهـا في الحافلـة و أنـا في طريقـي إليـك تتنقـل المسـكينة بمفردهـا وعمرهـا لم يتعـدّ التاسـعة لتبيـع الخبـز عـلى أرصفـة الشّـوارع المأهولـة ،بينـما قريناتهـا يرتـدن المدرسـة ،كـذا تبيـع شـتّى أنـواع الحشـائش أيـام الأسـواق الشّـعبية في قـرى مختلفـة.

تخيّـل !عندمـا سـألتها عـمّا إذا كانـت ترتـاد المدرسـة طأطـأت رأسـها حزنـا و قالـت أنّ ذلـك غـير ممكـن لأنّـه ليـس هنـاك مـن يعيـل أمّهـا المريضـة الماكثـة بالمشـفى ، هـي لا تعـرف أيـن أباهـا و لم تـره أبـدا.

اشتد نشيجها وأصبحت الكلمات تخرج متقطعة من بين شفتيها.

- هذا يكفي،كفّي عن البكاء فهناك من هن أبأس حالا منها.

- أنا أعلم .. لكنّها صغيرة! لم قد تضطر إلى العمل بدل الدّراسة !

- لقد أخبرتك أنّ أمّها مريضة و لابد يكون مرضها خطيرا وإلّا لما اضطّرت للخروج للعمل. ادعي الله من أجل أن يحفظها و أمّها ، هذا أحسن من أن تبكيها.

- مهما بلغ مرض أمّها، ما كان عليها أن تكون أنانية لتجعلها تعمل في سنّها تلك وفي ظروف صعبة كالتي نعيشها ،الأولاد يختطفون يوميّا في الشّوارع ،ماذا إن حصل هذا معها أيضا و ماذا لو تمّ اغتصابها و ماذا لو...

- بربّك ! هذا ليس مبرّرا لعدم الخروج للعمل فكلّ شيء بيد الله ثمّ هذا أفضل من أن تشحذ المال من النّاس أعطوها أو منعوها . الدّراسة في حالتها لن تغيّر شيئا في الوقت الرّاهن..لا تجعلي عاطفتك تغلب منطقك .

صمتتْ و لم تعقب و لم أكن أريد أن أجعل جرحها يزداد عمقا أنا الذي كنت أدرى منها بحال الطفلة و أمّها .

- لماذا أشعر أنّك تخفين عنّي خبرا آخر وأنّ هذا ليس السّبب الوحيد لهذه الدّموع!؟

- ما الذي يمكن أن أخفيه عنك !!

- أحلام!!

- ماذا!

- أين كنت! ؟

ابتعدت عنّي بنظراتها إلى قطع البيزا وراحت تقلّبها بأناملها دون أن

تتنـاول شـيئا منهـا و قـد سـافرت بذهنهـا بعيـدا وقالـت وهـي شـاردة :

- زرت الطبيب النّفسي هذا الصّباح.

- تمزحين !!

- أبدا...

- لقد كنت ضدّ الفكرة ..كيف غيّرت رأيك ؟

- رشـاد قالـت أنّ ذلـك مفيـد و أنّـه سـيجعلني أتحسّـن ..لم أعـد أتحمّـل نعتهـا لي بالمريضـة ،كـذا بعـض صديقـاتي ...صحيـح أنّنـي مقتنعـة بأنّنـي لسـت كذلـك لكنّنـي اتّخـذت مـن الزّيـارة سـبيلا لإثباتـه.

- هذا هراء !!

- أرأيت !!

- " بما أنّ لا أحد عشق بذلك الشّغف قبلك ،نعتوها مرضا !!" هـذا مـا تعتقدينـه أليـس كذلـك !! باللـه عليـك !!؟ أمـا آن لـك أن تنسـيه صدقينـي هنـاك أمـور أهـم منـه يحسـن أن تشـغلك حاليـا.

- مـا ذنبـي إن كنـت أجـد لـه وسـط انشـغالاتي وقتـا ، مـا ذنبـي إن اتخذتـه شـغلا وقـت راحتـي أيضا...نضـال هـو نفَسي...عليـك أن تفهمنـي... أنـت بالـذّات و الآن عـلى الأقـل !

- يـا مجنونـة هـو لا يفكّـر فيـك أبدا..يعيـش حياتـه سـعيدا مـع أخـرى، أقـلُّ مـا يمكـن أن تحسّي بـه نحـوه الآن هـو المقـت والكـره و الحقـد.

- لا تفعل هذا بي ..أرجوك...يكفي أنّني أعلمه .

- لكنّهـا الحقيقـة ، هـذا مـا يجـب أن تفكـري بـه حاليـا أو لا يجـب أن تفكـري بـشيء يخصّـه أصـلا .. هبـي أنّـه مـات !!

- أف !..أف !..أفففففففف ! أبغي رحيلا بعيدا دائما.

- تبّـا مـا أغبـاك !هنـاك أنـاس أشـقى منـك عـلى وجـه الأرض لكنّهـا مليئـة بالأمـل .. أنّي لـك مقارنـة حزنـك الضّئيـل بأحـزان النّاس...تعـاليْ معـي ..هيـا قومـي ..أريـك شـيئا.

تحـوّل وجـه نضـال المطمـئن فجـأة إلى وجـه مـليء بالغضـب ،شـدّ عضـدي وسـحبني كالمجنـون عـبر الـرّواق ، صعـد بي السّـلالم بسرعـة أكـبر ، عنـد أحـد الغـرف توقّـف وقـال بأنفـاس متسـارعة .

- أنظري إليها ..هيا انظري

****

" لا يعيدك للمكان مرتين إلا القدر !! "

دلفت شقتي وأنا أشدُّ المصحف إلى صدري كمن سرق شيئا ثمينا لا مخبأ له إلاّ هذا المكان الذي لا يعلم سرائره إلا ربّه ..وضعته على الطاولة أمام سريري و هممت بدخول الحمّام حين وقع بصري على هاتفي القديم و لم أصحبه معي منذ خروجي من الشّقة قبل عام ، تفقدته لأجد رقم أمّي و قد أرسلت العديد من الرّسائل تطمئن من خلالها عن حالي كما اتّصلت أكثر من مئة مرّة حسب علامة الزائد باللّون الأحمر المضافة إلى الرّقم نفسه بالإضافة إلى أرقام أخرى لا شك أنّها من استعملها .

رميت به فبي على السّرير و قد أثقلني قراءة ما كتبت ..عانقت عيناي ضوء المصباح الذي امتد لفرط تعبي إلى خيوط منيرة من الأشعة بألوان قوس قزح ، تلك الألوان التي تحبّ أمّي تأمّلها ، أذكر جيّدا عندما رسبت في الصّف الثّاني من التّعليم الابتدائي وقد صعقتها النّتائج التي لم تهتد لعلّة تدنّيها وهي التي كانت تسرف ما تسرف لتعليمي الخاص والدّاخلي حتى أنّ أصدقائي كانوا يتفاكهون وهم يتغامزون عليّ مشبّهين إيّاي بالعلماء القدامى الذين يتخذّون لكلّ علم مرافقا خاصّا وليتها كانت تعلم أنّ هذا وحده سبب أكثر من كافٍ لرسوبي المتكرّر ، أن أشعر أنّي ابن مديرة المدرسة الذي لا ينقصه شيء أمر موتّر فكثيرا ما أسمعهم يتلامزون حولي هنا وهناك أنّ ابن المديرة لن يكون في حاجة للتّعلّم أصلا ، هذا الأمر كان ينبت شجرة الحنق في نفسي ويغذّيها فيجعلني أسلّم ورقة الامتحان خالية من أيّ إجابة.

ذلك اليوم سألتني السّبب وهي تهزني هزّا عنيفا داخل مكتبها بصوت غاضب حزين في الآن ذاته و إن كنت لأشفق عليها من ذلك إلا أنّني حينها كدت أزلقها ببصري من الغيظ الذي تترجمه بالتّحدّي فلا أشعر إلا وكفُّها البارد يحترق ساخنا على وجهي وفي أماكن متفرّقة من ظهري و مؤخّرتي . ونحن نعود بسيارتها إلى المنزل و الصّمت سائد وسيد بيننا ، ركنتْها على حافة الطريق ولم نكن قد وصلنا البيت بعد ، تنهدت بعمق ثمّ سألتني العفو بصوت رقيق لا يشبه صوتها قبل قليل، لم أجبها برغبة واضحة في إغاظتها أكثر، أنا الذي لم أنظر منذ انطلاقنا من المدرسة إلى وجهها ، شعرت كأنّما أطالت دراما الاعتذار فرحت أستسرعها و حينها.. رأيت شيئا غريبا...كانت عينيْ أمّي تعانقان ألوان الطيف من بين الغمام، لقد انعكس في الدّمعتين المستقرتين في طرف عينيها كما لم أره يوما على صغر سنّي...و قد برزت الألوان في كبريائها الفاخر...لا أدري كيف أصف ذلك الشّعور لكنّني أحسست أنّني توحدت مع أمّي يومها توحّدا عميقا وكأنّما أغنى هذا المشهد عن كلّ الحديث و الصراخ الذي تمطرني به كلّما رسبت في أحد امتحانات ..

" قوس قزح ظاهرة فيزيائية ناتجة عن تحلّل وانكسار ضوء الشّمس خلال قطرات المطر..."

" الجهاز الهضمي قناة طويلة ومتعرّجة تبدأ بالفم وتنتهي بفتحة الشّرج. وهو الجهاز المسؤول عن هضم الأغذية حيث يحوّل جزيئات الغذاء المعقدة والكبيرة إلى جزيئات أصغر قابلة للامتصاص..."

همست مستغربة : " مادمت تحفظ كلّ شيء ، لماذا سلّمت الأوراق فارغة!!"

لم أجب، فمضينا وكلانا أعلم بما في داخل الآخر من عذاب و عتاب !!
بعد حمام أفكار ساخن ، و صراع مرهق قررت بعد حادثة الشّيخ أن أمنح أمّي فرصة أخرى.
زرت بيتنا بعد غياب عام كامل لأشعر وكأنّني لم أفارقه قطّ ، عطر أمّي مازال ينبعث من الدّرج ..كم كانت جذابة و فاتنة !!
- سيد سامي !!
عرفت صاحب الصوت من الوهلة الأولى ، إنّه حارس العمارة الذي كان على ما يبدو من هيأته منشغلا بحمل أكياس القمامة !! كان على غير عادته في التّعامل معي ولم أستغرب ذلك بعد الذي حدث بيني وأمّي قبل عام ...سألني بعد تحيّة باردة مريبة عن حاجتي من هذا المكان فأومأت باستغراب وعتابٍ من يريد أن يستفسر عن سبب حشر أنفه في موضوع عودتي ، فواصل محرجا " يعني ...قلت في نفسي ...ما حاجتك من المكان بعد وفاة المرحومة !!"

- سامي ...أعلم أنّك لم تعد تحبّني ...أعلم أنّني أخطأت ...لكن لا تتركني ..أرجوك... أرجوك بنيَّ .
لقد كانت الصورة واضحة جدّا كأنّما هي فيلم يعرض على جدار دماغه و هو يقود سيارته إلى وجهة غير معلومة...كان يومها يجمع حاجياته فوضويا وعلى عجلة بالغة ، رغبة في الخروج من المنزل وتفادي دموع التّماسيح – كما كان ينعتها – ونشيجها المعتذر، بينما كانت تشدّ على ذراعه و تستبقيه فيلقي بها بعيدا لتعود إلى مثلها مرارا ، تتمسك به و

تستجديه أن يغفر لها و أن لا يرحل ، أن يرحم دمعها وحاجتها إليه فهو كلّ ما تبقّى لها في الحياة بعد أن نبذها الجميع ، لكنّه أحكم على قفل الحقيبة و خرج من دون أن ينبس ببنت شفة،لحقته إلى الباب و على الدّرج فالسّيارة و بقيت تشدّ على بابها...و هي تجهش باكية ..

- لكلّ مشكلة حلّ ..أرجوك لا ترحل ...

اقتلع يدها من على الباب وفي صمت بارد وكما الرّيح شقّت السّيارة فراغ الشّارع ولم يبق إلّا جسدها الملقى على الطريق ويديها وهما تستجديان عودته ...

- كانت تتحدّث عنك كثيرا في أيامها الأخير وتسألني مرارا عبر الهاتف إن كنت قد زرت المنزل في غيابها ، كما أنّ أزمات الرّبو كانت تزداد حدّة مع الأيام حتى أنّ الطبيب كان قد منعها من سياقة السّيارة خوفا من الأزمات المباغتة...أخبرتني إحدى الجارات التي كانت تبيت عندها، أنّ حالها تأزّمت أواخر أيّامها ، فنادرا ما كانت تتوقّف عن البكاء و هي تحاول التّواصل معك ، لكنّ لا أحد كان يطمئنها عنك إلّا موظف البريد الذي كان يخبرها بأنّك كنت تعود لاستخراج المال من حسابك ...أنا لا أعلم بالضّبط ما الذي حصل بينكما لكنّ رحيلك عنها ما قضى عليها يا بني.

- سامي !!

- هذا هو سامي ...إذن !!

- قلت لك ارحل عن بيتي أيّها الخسيس...

هـذا الموقـف لم يغـب عـن ذاكـرتي و كأنّـه يحـدث مجـدّدا حقيقـة كلّـما تذكرتـه وأنّي لي أن أنـسى الرّجـل البديـن الـذي صودفـت بـه و أمّـي عنـد بـاب منزلنـا ، صدمـتْ عندمـا رأتنـي و حـارت فعـلا ، بينـما راح يسـخر منّـي ، كـدت أهشّـم أنفـه عندمـا قـال جملتـه الأخـيرة و أنـا أطـرده مـن البـاب.

- قويٌّ... ابن الحرام هه !!

ثمّ يلتفت إلى أمّي مواصلا :

- ألن تخبري سامي عمّن أكون !!

سـألتُ أمّـي مسـتغربا عـن هويّـة الرّجـل المجنـون لكنّهـا كانـت تتوسّـله أن يسـكت مـا زاد الأمـر ريبـة في صـدري !

ارتفـع صوتـه بينـما أمّـي تحـاول إيقافـه ، قـال بوضـوح إنّـه زوجهـا السّـابق و إنّهـا قـد خانتـه مـع عشـيقها السّـابق ، الـذي رماهـا ككلبـة بعدمـا اسـتوفى نصيبـه منهـا .

اتّجهـت ببـصري إلى أمّـي في انتظـار أن تنفـي قولـه لكنّـه واصـل بصـوت متهكّـم :

- أووووو ...حرااااام ، ألم تخبري عزيزك عمّن تكون والدته بالتّحديد!!

- سامي ...إنّه يكذب ...لا تصدقه !!

قالتهـا بنـبرة خائفـة ،مرتبكـة ، باكيـة ، عرفت من نظـرات عينيها اللتـين أعرفهما جيّـدا أنّهـا تكذب..عـلى العكـس منـه هـو الـذي كان يتحـدّث بـكلّ ثقـة :

- أنـا أكـذب! ..حقـا ..أيـن عائلتـك إذن؟ لمـاذا نبـذك الجميـع و حرّمـوا عـلى أنفســهم مقابلتــك و محادثتــك .

- أمّي ...بم يهذر هذا المجنون !!

- لا تصدّقه سامي ..نعم إنّه مجنون ...نعم ..مجنون يا ولدي !!

أفلتُّ قبضتي من على سترته و قد دوّخني قوله ..و صرخت فيها :

- إذن لماذا هو هنا إن كان ما يقوله لا أساس له من الصّحة !!

علّق مستهزئا بضحكة مشوّهة متكلّفة:

- إن لم تخبرك هي بالحقيقة...فسيخبرك بها والدك !!

- ما الذي جاء بك إلى هنا !؟ ما الدّاعي لإخباري بالموضوع ؟!

- لأنّنـي أمقتّهـا ..أمقتهـا كـرّر بغضـب ، و أريـد أن تمـوت قهـرا و حزنا...أنــت لا تعلــم مــاذا يعنــي لرجــل مثــلي أن تخونــه امــرأة.

نظـرت لوجههـا الممـزّق وقـد كانـت تـئن مـن فـرط البـكاء ، حـرت فعـلا ، هـل يمكـن أن أصـدق أنـا الـذي لطالمـا فكـرت أن أمّـي لم تـرضى بمعاملة أبي السّـيئة و بـضرّة جديـدة فطلبـت الطـلاق، أنّهـا تركـت زوجهـا لتواصـل حياتهـا مـع عشـيقها الـذي تركهـا بـدوره ...أأصـدق كلّ هـذا والنّاطـق بـه رجـل بالـكاد رأيتـه في حيـاتي ، رجـل متوحّـش أرسـلته شـياطين الحقـد لينتقـم مـن أمّـي إفسـادها حياتـه!إذ يبـدو أنّـه قـد أحبّهـا هـو الآخـر ! عندمـا قـال جملتـه الأخـيرة و هـمّ مغـادرا بصـق عليهـا و هـو يلعنهـا فلـم أتمالـك نفـسي فانهلـت عليـه ضربـا حتـى صرعتـه .

اتصّـل بعـض الجـيران بالشّرطـة التـي جـاءت لأخـذي ، بـتّ في السّـجن عندمـا جـاء طليـق أمّـي ، عشـيقها السّـابق و...أبي !!صبـاح اليـوم التّـالي وقـد كان

بـدوره شرطيـا ، سـلّم عـلى أمّـي ثـمّ سـألها التّفاصيـل ، تحدّثـت بارتبـاك بينـما كان زوجهـا السّـابق عـلى الكـرسي المجـاور و الكدمـات تمـلأ وجهـه ..

لا أقـسى مـن شـبح المـاضي عندمـا يلاحقـك مـن مـكان لآخـر فيقـضي عـلى حـاضرك و مسـتقبلك ولا أقـسى مـن الحيـاة عندمـا تكيـل لـك الألم مضاعفـا فأمّـي التـي تزوّجـت رجـلا لم تحبّـه للتّخلـص مـن عشـق سـابق تعـود بعـد زواجهـا فتحـنّ لـه و تمـارس معـه طقـوس حبّهـا و إيّـاه ، أمّـي التـي أبـدا مـا تخيّلتهـا مريـم العـذراء لفـرط مـا كانـت مثاليـة وملائكيـة ! أمّـي التـي لم تتّخـذ صديقـا ذكـرا في حياتهـا بعـد أبي رغـم جمالهـا ! أكتشـف عـلى كـبري أنّهـا أبـدا لم تكـن مـلاكا و لطالمـا كانـت ...خائنـة !!

وجدتنـي أقـف مجـدّدا عنـد الشّـيخ ولا أدري لمـاذا ترمـي بي الأقـدار بـين يديه، رويـت لـه قصّتـي مـع أمّـي و قصّتـي مـع الفتـاة التـي التقيتهـا قبـل شـهر. لقيـت منـه لينـا عـلى عكـس مـا اعتقدتـه مـن كلّ الملتزمـين ، كان مسـالما جـدّا إذ طمأننـي أنّ كلّ شيء سـيكون عـلى مـا يـرام ثـمّ تـلى عـلى مسـامعي قولـه تعـالى " قـل يـا عبـادي الذيـن أسرفـوا عـلى أنفسـهم لا تقنطـوا مـن رحمـة اللـه إنّ اللـه يغفـر الذّنـوب جميعـا إنّـه هـو الغفـور الرّحيـم " فشـعرت باطمئنـان و سـكينة .. صلّينـا معـا و بـتُّ اللّيلـة عنـده ونحـن نتسـامر لوقـت متأخّـر مـن اللّيـل .

****

" و قد تختفي بعض الأحزان لمجرّد مقارنتها بمواقف النّاس الأشدّ حزنا !!"

وأنـا في طريـق العـودة إلى المنـزل أحسسـتني امـرأة مـن ظـلال ، اختفـت كلّ الألـوان مـن عينـي حتّـى ذلـك اللّـون الأسـود الـذي طالمـا بقـي مترسّـبا داخلهـما عنـد اختفـاء الألـوان ،كان كلّ شيء فارغـا بينـما مـا يـزال نضـال بعـد كلّ عـشر دقائـق يتّصـل بي ليطمـئن عـلى حالتـي.. " لا تحمّـلي الحيـاة أوزار حـزن أنـت مـن يفتعلـه ، البقـاء عـلى مـا أنـت عليـه مـن التّخلّـص منـه خيـار أنـت مـن اختـاره أنـت مـن اخـترت التسـليم و الاستسـلام ، لا تكـوني ضعيفـة و خانعـة إلى هـذا الحـدّ وكفّـي عـن لـوم نفسـك و أنـت تنظريـن إليـك عـلى مـرآة مكسـور ، توقفـي بربّـك ..توقفـي عـن هـذه الخزعبـلات التـي تفكّريـن بهـا ، عليـك طـرد البـوم الـذي عشّـش ويفـرّخ في دماغـك ذاك الأبلـه ..بعيـدا " كان نضـال عـلى حـقٍّ كـما الجميـع أحـزاني ضئيلـة جـدًّا مقابـل أحـزان العـالم، عندمـا شـدّني مـن عضـدي وهـو يصعـد بي الـدّرج انتهينـا إلى غرفـة في آخـر الـرّواق حيـث كان جسـدٌ ممـزّقٌ ، ممسّـدٌ عـلى أحـد الأسرّة الزّرقـاء ، امـرأة يسـتلقي الوهـن والضّعـف عـلى جسـدها وتحتهـما اتّسـعت هـالات مـن السّـواد المائـل نحـو الخـضرة و قـد مُـدّت ذراعيهـا لا إراديـا مـن شـدّة الوهن.

- هذه أمل !!

صرخت في نضال ليأتيني جوابه مخجلا ...

- نعـم ..هـذه أمـل ، أمـل التـي كنـت تلومـين عائلتهـا التـي سـمحت ببيـع الخبـز عـلى أرصفـة الطرقـات ، تلـك أمّهـا ..لوميهـا الآن ..هيـا لوميهـا !! كان غاضبـا جـدّا لدرجـة أنّ وجهـه احمـرّ كـما لم يحـدث يومـا أبـدا وكان

يحرّك يديه عشوائيا وهو يتكلّم بصوت يعلو كلّ مرّة أكثر ...ويقسو كلّ مرّة أكثر.

- تلك أمّها ..تعلمين ممّا تعاني !!مؤكّد لا !! ...فأنت لا تنظرين إلى العالم إلا من صدرك المتعفّن ولا تطلين على النّاس إلا من الثّقب الأبيض الصّغير المتبقّي من سواد أحزانك.

من وجهها عرفت ما تعاني منه ، كان السّرطان قد فتك بجسدها كليّة ، تساقط شعر رأسها و حاجبيها و ليس ذلك ما هالني بل أمل و ابتسامتها على وجهها لا تزال ..

- انظري ..برأيك أليست ابتسامتها كافية لجعلك تخجلين من نفسك و من ضآلة همّك...

أقدّر خوف نضال الشّديد عليّ .. أتفهّم كلامه الجارح الذي كان يهدف من خلاله استدراكي لنفسي قبل ضياعي .

- ....الشّيء الوحيد الذي يستحق حزنك هي عائلتك أمّك وأباك فماداما بخير عليك أن تكوني سعيدة..كوني بخير من أجلهما فقط يا غبية...

خرجت من المشفى مسرعة ، دموعي وحدها ما لحق بي ، أحسست بنظراته الحزينة تدثّرني من بعيد و بصلواته و هي تناجي الله أن أتخلّص مما أنا فيه..

أمضي...

سأمضي... بدونك.. سأستمر... سأعيش مستقبلي.. سأكون بخير صدقني...

- أتظنين!! ؟

- متأكّدة ...
- لكنّك تحبينني..
- و إن يكن .. الحبّ وحده لا يكفي !!
- بلهاء ، ما قاله نضال تعرفينه منذ البداية..و ما هذه إلا فترة و تتخلّصين من فكرة طردي من رأسك وعقلك..

كان طيفك يعلن التّحدي في صدري أنّني لن أتمكّن من التّخلص منك، لكنّني أحسُّ أنَّ أشياء كثيرة ستتغيّر خاصة و أنّ الزّمن كفيل بجعل جميع جروحنا تندمل.. وحده الزّمن كفيل بإخفاء ندب القلوب ، هو الوحيد الذي يملك سمّ قتل الذّكريات المترسّبة في أعماقنا وإن كان ترياقها موجودا ففعاليته لا تعدو على إعادة بعض الصّور الجارحة أو المفرحة الخالية من شعور أزمنتها العذراء...

- أهلا ..(رددتُّ على أحد اتّصالاته)
- لم حتى الآن.. أقلقتني عليك .
- لا تقلق صديقي ،كنت في الحافلة وضجيج الرّكاب بالكاد كانت سيمكّنني من سماع صوتك..
- وصلت! ؟
- أمممم ...
- أنت بخير..
- أكثر مما تتصوّر..
- أنا آسف على ما فعلت وقلت لكنّك أخرجتني عن طوري ..ارتاحي قليلا وسأتّصل بك لاحقا...

- لا تحمل همّ شيء أبدا..حسنا.

ألفيت حجر أمّي دافئا كعادته عندما ألقيت برأسي الثّقيلة عليه و بكيت .كعادتها لم تسأل عن السّبب ربّما لأنّها تعرفه وربّما لأنّها لم تعد تجد له حلا أو كلاما راقيا غير الدعاء الذي تجهر وتسرُّ به من أجلي ، لم يبعد مخاط أنفي ريح فستانها. وأنا أتوسد حجرها أدركت نعمة أن يكون لك حضن تلقي بجام جسدك عليه دون أن تخشى أن يرتدّ عليك يوما ، و يصبح شباكا تفتك بكلّ جسدك ..تخيّلت أمّي للحظة مكان أمّ أمل ، كيف كنت لأشعر حينها و كم ترى في العالم كأمل !!بل كم ترى في العالم في حال أسوء من أمل!...و هل عصاة لحدّ الكفر بنعم الله و استصغارها و الغفلة عن الكثير منها لمجرّد فقد واحدة منها .. جفّفت دمعي.. طبعت ابتسامة واسعة على وجهي ، قبّلت جبين أمّي وقلت بأمل :

- أنا من ستطبخ العشاء اليوم !؟

منذ مدة طويلة لم أدخل المطبخ لذلك بالكاد تذكّرت مكان وضع الأشياء فكنت في كلّ مرّة أسأل عن حاجة من الحاجيات تضحك ، لكنّ ضحكتها كانت مختلفة ...مختلفة جدا ..كتمام مزيج الحبّ و التّفاؤل !!

تذكّرت أنّني لم أر رشاد مذ دخلت المنزل ، سألت أمّي فقالت أنّها نامت من فرط التّعب عندما فتحت باب غرفتها وجدتها تغطّ في نوم عميق ، لم تتناول معنا العشاء لنفس السّبب ...رابني الأمر لكنّني ألجمت فضولي . لا صبر لنا عن الفوضى التي تحدثها رشاد في المنزل مع أنّنا نبدي العكس دائما ونتذمّر في حضورها إلا أنّنا نشتاق فوضويتها لمجرد غيابها عن طاولة

الطعام ليوم واحد ، زاد ذلك خلال الأيام الأخيرة..و هذا ما يربكني. بعد منتصف اللّيل استحال الجوّ بردا ، عندما قمت أغلق النّافذة فزعت برشاد تقف عند عتبة باب غرفتي..بدا وجهها على غير عهدي به ،عنّفتها على عدم إحداث ما يجعلني أنتبه لوجودها لكنّها لم تردّ عليَّ ولم ترفع صوتها بالصّراخ دونما سبب كعادتها فعلمت أنّها لم تكن بخير وأوّلت ذلك بمنشوري على جدار حسابها صباح اليوم.

- أنا من طردت العجوز عمّك محمّد..بسببي رحل !

بدت غريبة و جديّة على غير العادة.. علمت أنّها تحاول استفزازي و استثارتي لذلك حاولت أن أكون باردة وهادئة .

- أعلم !

تغيّرت تقاسيم وجهها إلى الدّهشة ،كنت سأخبرها أنّ صمتنا لا يعني أنّنا لا نرى ونسمع لكنّني اكتفيت بالجلوس إلى مكتبتي .عندما رحت أعبث بحاسوبي دون أن أفعل شيئا ، شعرت بها تدنو منّي ثم تطوّقني من الخلف...أحسست بذراعها ترتجف حول عنقي مقابل دفء كبير ينبعث من قلبها وقلبي ...

- ألن تعاتبيني! هل ستقتلينني بصمتك ..كالعادة!

- لن يغيّر العتاب شيئا... و في كلّ الحالات كان عمّي محمّد سيرحل أنت فقط عجّلت ذلك.

- لماذا لا أشبهك..أنت حنونة جدّا و لا تفعلين إلّا ما يناسب الجميع حتى وإن كان مهمّا بالنّسبة لك أو مخالفا لرغباتك بينما تمنعني أنانيتي من ذلك...

كنا ما نزال على نفس الوضعية عندما فتقت رشاد أكبر جراحاتي بقولها الأخير ، أكثر ما ألوم نفسي و أعاتبها عليه .. تحسدني هي عليه ، آن ذاك ملأني شعور غريب و أحسست برعشة الألم الدّفين يهتزُّ في أعماقي لكنّني كبحت نفسي...

- أخبرك بسر!؟ كثيرا ما صليت كي أشبهك..فكثيرا ما بدوت لي أقلَّ هشاشة و ذات شخصيّة قوّية..أنت تقولين ما بخاطرك مهما كان قاسيا ،المهمُّ أن يكون صائبا ،كما أنّك لا تضطرّين للسّكوت عن تفاهات البشر إذ لا تتحمّلين حرقها لك ، تفعلين كلّ ما يسعدك دون أن تهتمي لرأي النّاس فيه..صدقيني أنت لست بسوء ما تفكرين به اللّحظة..

ساد صمت صاخب بيننا ، هناك كثير مما نود البوح به ، لكنّنا لم نتجرأ على كشف الغطاء عنه ..

- أحلام...

- هممممم !!

- إذن أنت ترين أن لا أتراجع..وأن أمضي _ على حدّ قولك المعتاد_ قدما..

- نعم حبيبتي...إلا فيما يخصّ والداي ..عليك أن تعتذري !!

أفلتتني و جلست على سطح المكتب قبالتي و قد غيّرت الموضوع كليّة في تحمّس واضح :

- يوما ما سأترجم كلّ ما تكتبين للّغة الفرنسية و الإسبانية و الإنجليزية...

- " دعيني أنشر بالعربيّة أوّلا... " ردّدت بضحكة ساخرة

- لم لا ... طالما قرأتِ عليّ ما تكتبين، أراه راقيا و يستحق النّشر .

- و بالمقابل أرى أنّ ما أكتبه لا يرقى لأن يقرأ من طرف أحدٍ غيري، مواضيعه مبتذلة، و معانيه سهلة مباشرة و متناولة.

- إذن لا تكتبي عن ظواهر الأشياء.. أكتبي عن العوالم الخفيّة ..أو اخترعي عالما آخر أبطاله المشاعر والأحاسيس ..لا الأشخاص ، غوصي أعمق ، لا تكتبي ما حصل ، أكتبي ما تتخيّلين أنّه سيحصل ، عندها ستشفين مما أنت فيه... أشركي الخوارق ، تذكّري ما نشاهده في أفلام هوليود وكم يكون ذلك مدهشا و مثيرا للإعجاب. يوظّفون الخيال العلمي بشكل ملفت بينما ما نزال نحن نجترُّ نفس المواضيع ، الفقر والسّكن و الإرهاب ، نحاول الخروج من الماضي بإعادة استحضاره في المستقبل..فهمت !؟

أومأت موجبة و قد شرد ذهني بعيدا لتأتيني ضربة من كفّها على رأسي قويّة .

- أفهمت يا مريضة! ؟

رحت أمسح على أربّت وأنا أحاول ردّ الصّاع لها لكنّها فاجأتني بجملة غير متوقّعة :

- أنا غاضبة منك جدّا ، اليوم و لأوّل مرّة تنسين عيد ميلادي.

كأنّ هذا الكفّ كان أقوى من الذي ضُربت به على رأسي لأنّ هذا رجّ ذاكرتي رجّا...

- هاااا ! هذا صحيح ..اليوم هو السّابع عشر من أكتوبر.. أنا آسفة.. أعدك سنحتفل به غدا.

- صباح الخير أيّتها المريضة ، لا أريد، شكرا جزيلا ، تذكرّك للشّهر والتّاريخ معجزة علينا أن نشكر الله عليها على كلّ حال ..على الأقّل هناك دليل على أنّ دماغك الأخرق ما يزال يشتغل!

شعرت بأسى كبير ، كيف أنسى يوما مهمّا كهذا في حياة رشاد وأبدا ما تذكّرته و أعددت لها الحفل مفاجأة...

– – –

- رشاد ..! ؟ ما تزالين مستيقظة ، أليس كذلك! ؟

- ماذا تريدين...! ؟

عندما استدرت غاضبة بالسّؤال نحوها ، رأيت أحلام و هي تقف بصينية كلّ ما يبدو منها شمعة مضيئة ،عندما وضعتها على السّرير رأيت ما جعلني أنفجر ضاحكة ، فقد شكّلت العدد 17 بالأرز وزينته بأنواع مختلفة من الخضر و غرست وسطه شمعة ،كان يبدو ككعكة لكنّها من الخضر لا الفاكهة...والأرز لا العجين...

- ما هذا يا غبية! ؟

- منذ متى تطرحين أسئلتي التّافهة ، أنا الوحيدة التي يحقّ لها السّؤال عن الأشياء الواضحة! ؟

- لكنّ ما تفعلينه غباء ، قلت ساخرة وضاحكة في الآن نفسه

- من قال إنّ كعكة عيد الميلاد يجبُّ أن تكون من الدّقيق فقط و من قال إنّها يجبُّ أن تكون من الفاكهة لا الخضر ،طعم الأشياء و لذّتها منبعهما قلوبنا قبل أيّ شيء...

دائمـا تفاجِئنـي بمثاليتهـا ،أعجبنـي الموقـف كثـيرا، غنينـا سـويّا و أجـبرت عـلى تنـاول الأرز عـلى السّـاعة الواحـدة والنّصـف بعـد منتصـف اللّيـل .كان لذيـذا ولا أدري ألأنّنـي كنـت جائعـة ، أم لأنّـه -كـما قالـت أختـي- غنـيٌّ بطعـم السّـعادة. ..

لم ننـم تلـك اللّيلـة ، ثرثرنـا مطـوّلا و نحـن متمدّدتـين عـلى سريرينـا ،قمنـا بتمريـر شريـط طفولتنـا كـما جـرّت العـادة ،و نحـن نضحـك مـن أبشـع المواقـف ، أمتعهـا و حتّـى أشـدّها حزنـا . أجـل .. هكـذا وجدنـا أنفسـنا نضحـك عـلى أشـد مواقـف حياتنـا إيلامـا...

" نحـن شـفافتين جـدّا الآن و قريبتـين مـن بعضنـا حـدّ التّماهـي و مـع ذلـك لا أسـتطيع إخبـارك بمـا يوتّـرني ويقلقنـي.. " هـذا مـا كنـت أردّده بداخـلي دون أن أجـرؤ الجهـر بـه.

" رغـم كلّ مـا تحدّثنـا بـه لا أسـتطيع إخبـارك أنّنـي زرت الطبيـب النّفـسي اليـوم كـما طلبـت دائمـا "

غفـت رشـاد عندمـا تنفّـس الصّبـح و كنـت مـا أزال أسرح عـلى محيّاهـا البريء عندمـا رنّ هاتفـي ،ظننتـه صـوت المنبّـه في البدايـة لكنّنـي قمـت مفزوعـة إلى غرفـة أبي بعـد اتّصـال عائشـة...

****

" أنت حيث ضالتك سعيد !!"

كان محمّد رافعا يديه بالدّعاء في إحدى زوايا المسجد بعد صلاة الظهر عندما شعر بكفٍّ باردة تحطّ على كتفه الأيسر ، استدار فوجد عليّا ابن صاحب الدّكان المقابل للمسجد وهو يحمل بين يديه هاتف أبيه النّقال..

" الاتّصال الذي تنتظره.. يا عمّي محمّد "

لمعت عيناه واتسعتا فرحا وأملا وربما حزنا و خيبة ، فمنذ أيام كان قد زار مركز الشّرطة بحثا عن ضالته ، دحجه رجل الشّرطة عند غرفة الاستقبال ثمّ نهره مطالبا منه التّسوّل في مكان آخر..

كرّر دعاءه المأثور ثمّ بصق على مقربة من رجله و راح يسحق بصاقه بنعله المهترئ...

كان في أقصى حالات هدوءه لقد علمته السّنين أنّ الكلاب التي تنبح كثيرا لا تعض .

- لقد كذبوا عليك يا بني ...

اتسعت عينا رجل الشرطة دهشة ، بدا الشّيخ جادا من نظرة عينيه لا يشبه المتسوّلين في شيء.. إلا في ثيابه وصرّته المشدودة إلى عصاه..لم يعقّب و غاصت عيناه تحت هالة من السّواد ..

- ما علموك إيّاه هنا خاطئ ، تقلّصات الوجه والجبهة القاسية،كلّها دساتير غير مجدية ، وحدهم أصحاب الوجوه النّورانيّة من يفوزون بالدّنيا والآخرة..

- الله يهديك يا شيخ ، هذا الشّعب كالأسود تخفي أنيابها تحت

شـفتين دقيقتـين مكتنزتـين ، تتفرّسـك بهـدوء منتظـرة ردّة فعلـك وكيفيـة تعاملـك حتـى إذا وجـدت منـك هـدوء روع روّعتك...النّـاس في بلادنـا تربّـوا عـلى الهـرج ، إذا لم تسـبق لأكلهـم أكلـوك...

- للأسـف هـذا مـا آل إليـه حـال النّـاس ..لكـن يـا ولـدي ربّنـا فـرّق بيننـا بالعقـل و بـه وحـده قـد نقلـب موازيـن أشـياء كثـيرة... وكفانـا ديننـا تعلّـم كلّ طـرق المعاملـة...

- عمّي محمّد !؟

هتـف رئيـس الشّرطـة الـذي خـرج مغـادرا المركـز ، لم يتعـرّف عليـه محمّـد للوهلـة الأولى، و بصعوبـة انصاعـت ذاكرتـه لرغبتـه في تذكّـر ملامحـه . كان نفسـه الرّجـل الـذي انقلبـت سـيارته في مـكان قريـب مـن المسـجد ، حـدث ذلـك بدايـات شـتاء العـام المـاضي ، الانزلاقـات الأرضيـة تسـبّبت في خـروج سـيارته عـن السّـيطرة مـا جعلهـا تنقلـب بـه في أحـد المنعرجـات .

أقبـل عليـه الرّجـل يعانقـه ويقبّـل رأسـه ويذكّـره بخـيره و فضلـه الـذي لـن ينسـاه لـه... في حـين بقـي رجـل الشرطـة ينظـر مسـتغربا مـن رئيـس الشّرطـة الـذي أبـدا يكـون متجهّـما مـع الوافديـن للمركـز.. انسـل عـلى غفلـة نحـو مكتبـه وبقـيَ يسـترق النّظـرات مـرّة بعـد الأخرى..مخافـة أن يكـون الشّـيخ أحـد معـارف الرّئيـس ويشـكوه سـوء معاملتـه .

- ما الذي ساق شيخا مثلك نحو مركزنا! ؟

- - قضية قديمة مستطيلة ومؤلمة يا سليمان.

- تفضّـل إذن نضيّفـك قهـوة ونسـمعها، علّنـي أسـاعدك وأردّ لـك بعـض الجميـل ، لـو تـدري يـا شـيخنا كـم أحمـد اللـه كلّـما تذكّـرت إنقـاذك لي ذلـك

اليـوم ، لـولاك كان الـدّود قـد شـبع منـي الآن..

- احمـد اللـه فوحـده مـن لـه الفضـل في إنقـاذك... مـا أنـا إلا مبعـوث الأقــدار إليــك...

لم يـدر محمّـد مـن أيّ فصـل يبـدأ سرد قصّتـه فلوهلـة سـوّلت لـه نفسـه الاعتـذار و تـرك المـكان لكـنّ خشخشـة الورقـة في جيبـه ذكرتـه بقـول أحـلام "أنـت حيـث ضالتـك سـعيد"

- "تعلمـين يـا أحـلام!!؟" يقـول وهـما يتأمّـلان السّـماء معـا حيـث تزيـد النّجـوم سـطوعا وسـط ثقوبهـا المعتمـة " أنـا لم أضيّـع أنـاي كـما قلـت لـك سـابقا بـل أنـا سيّء لدرجـة أنّنـي خلّفتهـا بقسـوة ودونمـا رجعـة ذات سـواد " تذكّـر ملامحهـا الحـيرى وهـي تنظـر إليـه و تريـد أن تـزأر في وجهـه " يـا عمّـي محمّـد.. الحيـاة بسـيطة لم تعقدهـا لهـذه الدّرجـة، لمـاذا نلغـز إن كان بإمكاننا قـول كلّ شيء بنـصٍّ كلامـه واضحـا ومفهومـا " لكنّهـا لم تكـن تريـد فقـدان لذة شـعور مـا تجـده في الحديـث معـي بتلـك الطريقـة ، أحيانـا أحسّـها صـورتي المصغّـرة عـبر السّـنين ، أشـتهي انتشـالها مـما هـي فيـه مخافـة أن تبقـى عـلى صـورتي آن كبرهـا ،لكنّنـي أعـدل عـن رأيـي عندمـا أرى ذلـك الوهـج المقـاوم في عينيهـا ،لم أكـن لأتخيّـل ولـو للحظـة أنّ ذلـك القبـس النّـوراني سـيأتي عليـه يـوم وينطفـئ !

ستسـعد أحـلام كثـيرا إن أنـا وجـدت ضالتـي و وحـده هـذا كفيـل بجعـلي أحـاول ...فكّـر محمّـد..

- هيا إذن يا عمّي ،أخبرني ما يشغلك! ؟

لوهلـة وجـد خيـط بدايـة الحكايـة... أحـسّ بكـفّ طيـف أحـلام دافئـا وهـو

يربّت على كتفه مبتسما "هيا عمّي! ؟"

- قبل ثلاث عشرة سنة ،كنت أقطن مع زوجتي و حبّة عيوني ذات العشر سنوات ... و بسبب خلاف بيني وزوجتي تركت المنزل و قد أخذتها و إياها- لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين - والآن لا أعلم عنهما شيئا وأريد أن أعثر عليهما..

كان محمّد يتحدّث بصوت مخنوق متقطّع ،شيء ما في صوته كان يرتجف ، بين الحين والآخر كان يرفع رأسه ليختلس النّظر إلى عينيْ سليمان.."ربما يكون القدر إلى جانبي هذه المرّة إذ أرسل لي سليمان الذي ساعدته فيما مضى ، لربما شكّ غيره في قصّتي .تعلم يا ربّ أنّ كلّ ما أشتهيه الآن هو رؤية ابنتي و بعدها لا يهمّ ما سوف يحصل لي.. "

- و لماذا لم تسأل عنهما منذ ذلك الوقت!؟

أحسّ محمّد كأنّ شيئا من الزّيت قد بدأ بالغليان في حلقه ،كان قد حبك القصّة كاملة بحيث لا تترك مجالا للشّك في قلب سامعيها، لكن يبدو أنّ عدم اعتياده على الكذب سيفضحه..

- لأنّني همت على وجهي تلك الأيام ، و تعلم أنّ الشّيطان و الغضب يخيطان غشاوة على عين المرء .. أمّا الآن فأريد وقد مضى من العمر أكثر مما بقي أن أرى ابنتي قبل أن أوارى تحت الثّرى يا سليمان..

- حسنا..فهمت عليك يا عمّي، دوّن هنا اسميهما الكاملين وأسماء بعض أقربائهما ورقم هاتف زوجتك القديم إن كنت تحفظه و أرقام بعض معارفها ثمّ مرّ على الرّسام و صفهما له بدقّة ..إن أمكنك ذلك... مضى أسبوعان على ذلك ، هل بهذه السّرعة وجدوهما!؟

كان محمّد مشوّشا بشفتين مرتجفتين وقلب مضطرب كلّم سليمان على الهاتف ،لم يطل معه الحديث إذ أنّه بدا منشغلا ، أملى عليه بعض المعلومات وذيّل كلامه بجملة شكٍّ وتمنٍّ

- "أتمنى أن تكون تلك عائلتك يا عمّي محمّد!؟"

استقلّ محمّد أوّل حافلة نحو العنوان الذي أملاه عليه سليمان و كانت الملائكة تصلّي في رأسه و قلبه إذ لم يتوقّف و لا لحظة عن تكرار دعائه المأثور ، أحسّ كأنّما كان فؤاده يعتصر من الأمل و الألم ، ترى كيف أصبحت ابنته ؟ هل غيّرها الزّمن من بعده.؟..احتوى السّماء بتنهيدة طويلة مذبوحة أردفها بالعديد من سيد الاستغفار.. لكن ماذا إن كانت تلك عائلتي !؟ سؤال لا جواب له إلا الصبر على زحمة الشّارع التي لا تطاق حتى الوصول للمكان الذي أخبره به سليمان...

عند المدخل أخرج ورقة أحلام "أنت حيث ضالتك سعيد " وقف يتأمّلها قليلا إذ وصله صراخ من أحد الرّجال عند البوابة .

- ابتعد عن هنا ، التّسول هنا ممنوع...

لم يردّ عليه ، و همّ داخلا إذ شعر بكفّ رجل الأمن تشدّ دبر عباءته حتى كادت تخنقه..

- ألا تفهم ، هل رأسك محشو بالتّبن مثلا ، قلت إنّ التّسول هنا ممنوع.. ألن نتخلّص منكم... في كلّ مكان تقرفصون كالسّلاحف...

أحسّ محمّد بوخز مؤلم في قلبه ،لم أصبح الشّباب على هذه الدّرجة من القسوة!؟ أترضعهم أمهاتهم حليبا ممزوجا بالغضب والقلق والكراهية وعدم الاحترام!؟..كان على الأقلّ احترم شيبتي ، ألا يرى أنّني عجوز أرعن

غـزى الشّـيب شـعري و نخـر العجـز عظامي..لكنّـه لم يحـر ردّا ولم يكـن مزاجه يسـمح بإلقـاء محـاضرة في حسـن الخلـق ، فتبسـم بهـدوء قائـلا :

- زائر يا بني.. زائر لا متسول.

ردّ ساخرا مستهزئا :

- قديمـة ..قديمـة ...هلكتمونـا بهـا ، هاتـوا جديـدا... أعلـم أنّـك سرعـان مـا سـتدخل لتـدور كالنّحلـة في المـكان لتمـلأ صرّتـك..

- و كيف سأجعلك تصدّقني! ؟

ارتبك الرّجل ، لم يجد ما يردُّ به ، أيّ دليل سيطلبه ؟

- أرجـوك يـا بنـي ، هـذه فرصـة حيـاتي ربّمـا لـن تتكـرّر و سـأحرم مـن رؤيـة ابنتـي للأبـد فـلا تضيّـع وقتـي ودعنـي أدخـل فـما أنـا فيـه مـن الهـمّ يكفينـي، لا تـزدني هـداك اللـه..

- أقسم لك بربّ الكعبة أنّني لن أرحمك إن كنت كاذبا..

- ابتعد عن طريقي.. يا هداك الله..

تبـا لشـباب اليوم...كـرّر محمّـد وهـو يدفـع رجـل الأمـن بعيـدا .. تسـارعت نبضـات قلبـه كلّـما اقـترب مـن المـكان ، أعطتـه عاملـة الاسـتقبال رقـم الغرفة.. مـشى في الـرّواق بخطـوات وجلـة مرتجفـة.. كأنّمـا عـادت بـه إلى ذلـك اليـوم الـذي عـاد فيـه للمنـزل عـلى حـين غفلـة و قـد نـسي كشـف راتبـه الشّـهري ليجـدّد بعـض الملفّـات الخاصّـة بالعمـل ، مشـهد ذلـك اليـوم كان بوابـة نحـو حيـاة لم يخطـر ببالـه أن يلجهـا مطلقـا ، أدخلتـه في عـالم جديـد مـن الانعـزال و الوحـدة والرّغبـة في المـوت ولا شيء غـيره...

- هذه هي العائلة التي أعطوك اسمها يا عمّي..

كانـت عاملـة الاسـتقبال لبقـة للغايـة ، دلّتـه عـلى مـكان العائلـة و قفلـت راجعـة ،شـكرها بصـوت يرتجـف بينـما ألقـى بـصره عـلى الـرّواق ، شـعور مـا ألهمـه أن يبقـى بعيـدا..

بحلـق محمّـد في المـكان، فيـم بعـده و أبعـد مـما رأى عـسى ينفيـه لغـير مـا رآه ، تكهـرب جسـده ، تقلّصـت ملامحـه ، شـعر بـبرودة في أطرافـه... أيعقـل!؟ أيعقـل هـذا !؟

هذا أمين و...أحلام!!

****

"أدرك أنّني مرئي وعلى قيد الحياة ، فقط عندما أكبت قدر استطاعتي كلّ ما يتعلّق بي !!"

فرانز كافكا

كأنما صفعني أحدهم على وجهي أكثر من مرّة ، أتخطئ الشرطة إلى هذا الحد!!؟ كيف رمتني الصّدف إلى أحبّ كائن إلى قلبي ؟ أحلام بطولها،بألوانها ، بكلّ ألقها وحزنها وارتباكها تقف عند الرّواق و قد اتقدّت المشكاة في عينيها حرقة وألما كعادتها ، كأنّما لا حاجز بيننا و لا مسافة ، يتبدّد كلّ شيء إذ أراها و تتحوّل ذرّات الأكسجين إلى عدسة مكبّرة لصورتها فأراها على بعدها قريبة ، نعم، أحلام ...بابتسامتها الكريمة و روحها المكسورة المرحة..

- لا تتركني يا عمّي محمّد لقد ألفت وجودك بيننا...أشعر كأنّك أحد أفراد عائلتي لا غريب زارنا و سرعان ما سيرحل..

يومها أذكر ،كنّا في الحديقة عندما أرتني نجمتها و قد اتسعت توهّجا في ثقبها وقد أطفأت كلّ مصابيح الحديقة ، كانت رومانسية على غير عهدها و سعيدة بوجودي..حاولت أن أُفهمها أنّني ومهما كنت قريبا إلى قلبها فأنا ملزم بأشياء أخرى و أنا أنظر إلى عينيها وهي تتأمّل النّجمة و ظننتها لم تسمعني لكنّها استدارت إليَّ، علمت أن ذكاءها لم يستوعب أن يلزم رجل متسوّل يعيش حياة الترّف والبذخ في منزلهم بأشغال أخرى ، لم تسأل و لم أتعجب من ذلك . عادت تتأمّل نجمتها المستقرة في السّماء بصمت حاولت أن أخلق حديثا بيننا فسألتها عمّا إذا كانت قد كتبت

شـيئا جديـدا...

مالـت بيديهـا إلى المائـدة الرّخاميـة، توسّـطت وجههـا بـين كفيهـا وهـي تتنهّـد بعمـق ثـمّ تقـول بصـوت أقـرب إلى الهمـس..

- وهـل أسـتطيع التّوقـف عـن ذلـك.. لـو كان كلّ مـا في الكـون مـدادا لكلـماتي لمـا نفـدت..و لـو كانـت أحاسيسـهم مجتمعـة عـلى كفّـة و مـا أشـعر بـه عـلى كفّـة لرجحـت بهـا أجمـع..

- ههه تبالغين !!

بـبراءة ابتسـمت ثـمّ سـخرت مـن نفسـها بحركـة نصـف دائريـة مؤلمـة مـن شـفتيها و عـاودت تأمّـل نجمتهـا...

- أرغـب باعتـزال الكتابـة بعـد أن أنـشر روايتـي يـا عمّي..تعلـم طبعـا كـم أعشـقها و أنّهـا "أنـا" عـلى نقيـض كلّ الأشـياء التـي أحبّهـا و تشـبهني .. لكنّهـا تفضحنـي و تعرّينـي ..فأنـا قـد أكلّـم الجميـع بـشيء يعاكـس مـا أشـعر بـه لكنّنـي لـن أكتـب إلا مـا يختلـج في روحـي حقيقـة !! قـد أكـون أيّ شـخص آخـر عـلى الواقـع لكنّنـي لـن أكـون غـيري وأنـا أكتـب !!

- أفهمـك .. فالحـروف مـاء الـرّوح و دمـوع القلـب، كلّ حـرف يخلقنـا و يبعثنـا مجـدّدا ، سـنجنّ إن حبسـنا كلّ تلـك الأصـوات التـي تتكلّـم بـل و تـصرخ في داخلنـا ، تلـك الأصـوات التـي تتضاعـف عنـد الشّـعراء و الكتـاب حتـى لتـكاد تفصمهـم عـن الواقـع و عـمّا يريـد أن يكونـه كلّ صـوت منهـم . و أعلـم أنـا السّـبب وراء رغبتـك و أنـت محقّـة فيـه إلى حـدٍّ بعيـد فـأن تعـرّي المـرأة نفسـها لرجـل عـلى الـورق خيانـة أقـسى مـن تعريتهـا لـه عـلى السّـرير، عـلى الـورق نحـن أحـرار و لا نبخـل ، نصـف مـا نشـعر بـه حقيقـة ، نتـأوّه،

نضطـرم ، نشـنُّ حروبـا ، نعقـد زفّـات ، نفـكُّ علاقـات ،نغتصـب المسـافات دون أن يلومنـا أو يعاتبنـا أحـد عـلى العكـس مـن الواقـع ..عـلى الـورق نحـن أحـرار تمامـا .

- لا تتركنـي يـا عمّـي محمّـد..لا تخلّني..سـيعود الـدّود الأرعـن ليعبـث بجسـدي و كذلـك تلـك الذّبابـة لـن تتوقّـف عـن الطنـين و سـأضطر لإيقافهـا بنزيـف مـا ولابـد..

- بنيّتـي.. أعـدك لـن أفعـل و حتـى وإن خـرج جسـدي مـن هنـا فسـتبقى روحـي معلّقـة بـك تصـلّي مـن أجلـك دائمـا..

هـذه هـي أحـلام لا أحـد يعلـم سـبب ابتسـامتها فجـأة أو كيفيّـة تحـوّل تلـك الابتسـامة إلى غيمـة مثقلـة لحظـات أخـرى ..

- أنت بمكانة أب ثانٍ لي ، فلا تتركني !

نعـم ، هـذا مـا قالتـه يومهـا و مـا أزال أذكره "أنـت أبي... فلا تخلّنـي " لكنّ هذا مسـتحيل،كيف تكـون أحـلام ابنتـي دون أن أتعـرّف عليهـا أم أنّ السّـنين غيبّت ملامـح وجههـا عـن ذاكرتي..مـاذا عـن اسـمها هـل غـيروه هـو الآخـر... لكنّهـا في نفـس سـنّ ابنتـي و منـذ البدايـة أنـا أشـعر برابـط قـوي يجمعنـي بهـا .. لسـت غبيـا لأتهـوّر و أذهـب لضمّهـا و شـمّها كـما في صغرهـا و أنـا أخبرهـا أنّنـي أبوهـا فمؤكـد سـتضمّني بشـدّة و فـرح و هـي تنـادي عـليّ بـ ... أهـلاا يـا عمّـي محمّـد شـكرا لعودتـك... أمّـا أمـين ! فـإن أنـا أخبرتـه أنّهـا ابنتـي فسـيصادق عـلى جنـوني و لابـد..

" عـليّ أن أرحـل مـن هنـا " فكّـر محمـد ، ارتـدّ خائبـا.. مـشى قليـلا و هـو بالـكاد يشـعر أنّ تحتـه أرضـا يبسـا تحملـه ،كأنّمـا كان يسـير عـلى الهـواء و كلّ

خطـوة تهـوي بـه أعمـق مـن الأولى عندمـا تغلغـل صـوت أحـلام داخـل أذنـه..

- عائشة.. أين كنت لقد خفت عليك كثيرا..

كأنّمـا صفـع هـذه المـرّة أقـوى مـن ذي قبـل " عائشـة!!" تسـمّر في مكانـه ، جـرى المـاء في جسـده المجـوّف بسرعـة ليتحجّـر في عينيـه، فينهـال على خـدّه... بسرعـة اسـتدار بجسـده ، ليراهـا ..ليقـف عـلى ملامحهـا ..ليقبّـل جبهتهـا و خدّيهـا الحمراوتـين ، ليضمّهـا و يشـمّها ،ليلاعـب شـعرها مجـدّدا فتنـام عـلى سريـره و هـي ترضـع سـبابته كلهايـة ،لتكـبر أكـثر فـيروي لهـا قصـص بقديـدش و لنجـة بنـت الغـول ، مجليـة سـبعة ، فتنـام و هـي تضـمُّ كفّـه إلى صدرهـا بقـوّة خشـية أن يتركهـا بمفردهـا ، لتكـبر أكـثر فتقـصّ لـه هـي عـن الجميلـة و والوحـش ، الجميلـة النّائمـة ،سـندريلا وغيرهـا مـن القصـص التـي أصبحـت تقرؤهـا في المدرسـة ، والتـي لم يفهـم أحـد لم كان ومـا يـزال يـروّج لهـا و تنـشر إن كانـت قـد كتبـت لغـير نفـس المجتمـع ، فالمجتمـع العـربي يعـاني مـن مشـاكل المـاء والخبـز أكـثر مـن مشـاكل الحـبّ و زوجـة الأب والغـيرة و رمـي الأولاد في الشّـارع بعـد ولادتهـم ،الطفـل العـربي عـلى صغـره لا يؤمـن بوجـود سـاحرة شريـرة أو حنـون تحمـل عصـا ولا مصبـاح يفركـه ليخـرج منـه مـارد يحقّـق لـه رغباتـه ،بقـدر مـا يؤمـن بالغولـة التـي تخوّفـه بهـا أمّـه والتـي لا تـدري هـي الأخـرى لهـا وصفـا غـير أنّهـا أنثـى عـلى غـير شـكل البـشر ، تثـير الرّعـب والخـوف و تنـام بعينـين مفتوحتـين و تـأتي لأكل الصغـار إن هـم لم ينامـوا باكـرا أو عانـدوا و رفضـوا النّـوم وقـت القيلولـة.. الطفـل العـربي لا يؤمـن بالمـارد بقـدر إيمانـه بالجنّـي الـذي يـؤذي المؤمنـين ، و هـذا كلّـه يعـود إلى الثّقافـة الإسـلاميّة التـي يتشرّبهـا الطفـل منـذ قدرتـه عـلى

الـكلام ، إذ يحـرص والديـه عـلى تحفيظـه بعـض السّـور كالفاتحـة والإخـلاص و المعوذتـين ،كـما أنّ المحيـط العائـلي بعيـد جـدا عـن مثـل تلـك القصـص التـي كتبـت لطفـل البلـدان الغربيـة...

- اشتقتك يا عائشة ، اشتقتك يا ا بنتي! ؟

- بابيييييي!!....أنـا أيضـا اشـتقت إليـك ، أيـن كنـت كلّ هـذه المـدّة ، لمـاذا فعلـت ذلـك بنـا !؟ لمـاذا تركتنـا للرّيـح و العواصـف ، لمـاذا قسـوت علينـا يـا أبـت !!

- ها أنا قد عدت و ستعود المياه إلى مجاريها...

ليـت الأمـور بهـذه السـهولة ، فكّـر محمّـد عندمـا تخيّـل ابنتـه و هي تسـتقبله بذراعـين مفتوحـين ، أو ربّمـا هـذا مـا كان يتمنّـاه .كيـف لم يسـأل الممرّضـة التـي دلّتـه عـلى المـكان عـلى المريـض ، ولم هـم هنـا !..تراجـع محمّـد عندمـا تأكّـد و هـو يخاطـب نفسـه أنّـه ليـس مهيـأ لهـذا الموقـف بعـد ، رؤيـة ابنتـه بعـد كلّ هـذه السّـنوات حرّكـت في داخلـه فجـوة عميقـة مـن الحنـين ،أراد أن ينـسى مـا حصـل ويواجههـا لكنّـه أجـبن مـن أن يفعلهـا ، عـاد أدراجـه محزونـا و هـو يحمـد اللـه عـلى أن أنعـم عليـه برؤيتهـا عـلى الأقـل ،كـما أنّهـا بحـال جيـدة و مـا زاده طمأنينـة أن أحـلام و أمـين بصحبتهـا ، هـم أنـاس لطفـاء و مؤكّـد سيسـاعدانها ويعطيانهـا مـن الـودّ و المحبّـة الكثـير .مسـح دمعـه بطـرف كمّـه قبـل أن يسـأل ذات الممرّضـة:

- هل لي - من فضلك - أن أستعلم عن وضع العائلة! ؟

رمقتـه بنظـرة مسـتغربة مـا لبثـت أن تحوّلـت إلى نظـرة رقيقـة حنـون لمـا رأت مـن دمـع متحجّـر في عينيه..

- تعاني السّيدة آسية من التهاب في العظام و حمّى شديدة بسبب موجة المطر المباغتة ليلة البارحة...

"ظننتها ماتت..أيعقل أنّها نجت ذلك اليوم..الحمد لله الذي أعفاني من عقاب قتل روح!"

- و هل وضعها خطير! ؟
- جدّا...

دنّت منه و راحت تهمس و هي تنظر في أرجاء المكان مخافة أن يسمعها أحد:

- أحيانا ...أقول ليتها تموت لترتاح ، فهي في كلّ حالاتها شبه ميتة..
- لم أفهم...لم!
- منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة و هي تعاني من شلل كلّي بسبب خراب نخاعها الشّوكي...كلّ شهر تقريبا تصحبها ابنتها للمتابعة و إجراء الفحوص و لكن للأسف بلا فائدة... بالإضافة إلى بعض الأمراض التي صاحبت الحادث كفوبيا الشّاحنات والسّيارات و الجرّارات ... يمكنك أن تتخيّل ما تعانيه المسكينة.. أليس الموت أرحم لها ولابنتها التي لم تذق لذّة الحياة أبدا ...

لم أجد ما أعقب به ، أحسست بسكاكين تذبح فؤادي و بالكاد تماسكت و أنا أجرّ خطاي نحو الخارج...سمعت نداءات الممرضة خلفي لكنّني لم أعرها اهتماما...

لأكثر من عشرة سنوات و عائشة و أمّها تعانيان البؤس والشّقاء بسببي... لقد جعلتهما تعيشان الجحيم في حياتهما الدّنيا.. كيف سيغفر الله لي ذلك...كيف! ؟

"لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين."

****

"لمّا لم أجد مكانا ألجأ إليه من العالم ، عدت إلى نفسي ، فوجدت العالم!!"
بعد مرور يومين على حادث أمّ عائشة عدنا بها إلى البيت ، استسلمت بعد عناد طويل للبقاء عندنا ريثما تشفى أمّها ، لم تكلّم أحدا في اليومين السّابقين ولم يغمض لها جفن أيضا ، لذلك غطّت في نوم عميق بعد حمام دافئ .

فتحت حاسبي فلاح على يسار الشّاشة إشعار التّذكير بموعد الطبيب النّفسي ،لم أكن متأكّدة ممّا إذا كان عليَّ الذّهاب و ترك عائشة في مثل تلك الأوضاع الصّعبة ، خاصة و أنّها لا تملك الآن في هذا العالم غيري .

خطر ببالي عمّي محمّد و زاحمني إليه الشّوق في صدري..كم أطمئن كلّما أتذكّر أنّه و في مكان ما يصلّي من أجل أن أكون بخير ، هل وجد ضالته ؟ أتراه بدأ البحث ؟ أم ما يزال متقرفصا في الزّوايا بنفس جبنه و ضعفه ،ليته تريّث حتّى أقتني له هاتفا يكون حلقة وصل بيننا... سمعت صوت أنين عائشة بعد مرور ساعة من استسلامها للنّوم ، يبدو أنّ الكوابيس كانت تنتظر آن راحتها لتهجم على أحلامها.. " أبي... الشّاحنة... أمّي... " طوال اللّيل و هي لا تكرّر إلا هذه الكلمات .. لم أرد أن أوقظها ولم أستطع النّوم بدوري..

جهزت نفسي صباحا و لم أشعر إلا وأنا أركب الحافلة نحو طبيبي النّفسي...أعلم أنّ ذلك لم يكن تصرّفا لائقا لكنّني كتبت لرشاد أوصيها بعائشة و فعلت نفس الشّيء مع أمّي..كان الجوّ باردا و الحقيقة أنّك كنت الجزء الوحيد الدّافئ في صدري...

وجدتني لا إراديّا أبحث بين المتسوّلين عن عمّي محمّد ، لكن بلا جدوى

. ظاهـرة انتشـار المتسـوّلين في الشّـوارع الجزائريّـة غريبـة حتـى أنّهـا لتـكاد تكـون مهنـة كغيرهـا مـن المهـن التـي يجلـب النّـاس بهـا قوتهـم و البعـض يرجـع ذلـك إلى تفـشي الفقـر المدقـع و الحقيقـة أنّنـا لم نعـد نفـرق بـين المسـكين و بـين المتمسـكن ..وحـده عمّـي محمّـد المتـشرّد المختلـف فـأن تجـد رجـلا يتـشرّد كي يعـرّض نفسـه للمذلّـة و يكفّـر عـن ذنبـه نحـو عائلتـه موقـف يسـتحق لقـب المتـشرّد المتميّـز مـن جهـة ويملـؤني فضـولا لأعـرف عظمـة الذّنـب الـذي يسـتحق مثـل هـذا العقـاب ، مـن جهـة أخـرى !

يبـدو أنّنـي لم أكـن أوّل الواصلـين هـذه المـرّة فقـد كان نفـس الرّجـل الطويـل هنـاك بلحيتـه الكثّـة البيضـاء وشـعره الطويـل قـد سـبقني هـذه المـرّة ، ألقيـت التّحيـة وجلسـت بجانبـه فقـط لـكي لا أقابلـه و لا أضطـر للتّفكـير في مـا قـد يشـغله ، انتبهـت أنّـه كان مسـتغرقا في الرّسـم فبقيـت أسـترق النّظـر إليـه... أو لنقـل أنّنـي لم أسـتطع تحويـل نظـري عنـه لروعـة مـا رأيـت ...

- عبد المنعم يحيى...

نـادت المسـاعدة عـلى اسـمه ، فجعـل يقـوم مـن مكانـه ...تـرك الرّسـمة عـلى الكـرسي ،كـذا الألوان...حاولـت أن أنشـغل عـن اللّوحـة بهاتفـي ،بكتابـاتي ، بتأمّـل الجـدران ...بالغنـاء و أنـا أعبـث برجـليّ و أؤرجحهـا إلى الأمـام ثـمّ الخلـف... لكـنّ الفضـول كان يأكلنـي لرؤيتهـا أقرب...ثـمّ و ببسـاطة قمـت مـن مـكاني و جلسـت عـلى نفـس الكـرسي الـذي كان يجلـس عليـه و حملـت اللّوحـة..

"واااااااااو .. يا ربّ الجمال ..ما هذا!! ؟

لوحـة رائعـة بـكلّ المقاييـس، تعمّقـت أكـثر في اللّونـين ،شـعرت بالغيـاب الـذي

أخـذه اللّـون الأبيـض و المائـل للرّمـادي عـلى اللّوحـة برمّتهـا لتتوسّـطها يـدان ممدودتـان إلى بعضهـما و كأنّهـما تقاومـان كلّ منهـما لتشـدّ الأخـرى لكنّهـما لا تتمكّنـان مـن ذلـك ، بـدا أوسـط الأصابـع قريبـا جـدّا مـا زاد اللّوحـة حماسـا ، لم تكونـا واضحتـين بالقـدر الـكافي إذ بدتـا تائهتـين وسـط الظلال..لكـنّ الـذي كان واضحـا و مسـتعصي القـراءة أنّهـما و بقـدر مـا كانتـا تحـاولان الإمسـاك ببعضهـما بقـدر مـا كانتـا معـا تـتردّدان في ذلـك و هـذا مـا أضفـى عليهـا صبغـة التّناقـض..وكان سرّ جمالهـا و لا شـك !!

- إذا أعجبتك.. يمكنك الاحتفاظ بها .

بالـكاد انتشـلني صوتـه مـن عمـق اللّوحـة ، بـدا عـليَّ الاضطـراب و أنـا أعيدهـا إلى مكانهـا عـلى الكـرسي "لا... لا... أردت فقـط رؤيتهـا أقـرب ، آسـفة عـلى التّطفل..آسـفة حقّـا"

في هـدوء شـامخ دنـا نحـو عـدّة رسـمه و قـال و هـو يرتّبهـا داخـل حقيبتـه بصـوت مكابـر "عـلى كلّ حـال لـن تصحَّ لـك فرصـة كهـذه مجـدّدا فأنـا نـادرا مـا أتصـدّق بلوحـاتي.. "

عقّبت بانفعال و أنا أحرّك يدي عشوائيا : " ولم قد تفعل الآن!؟ "

- نـادر أن تحظـى لوحـاتي بالعشـق مـن النّظـرة الأولى و لم أرد أن أفسـد لحظـة حميميـة بـين معشوقين...لسـت شريـرا لتلـك الدّرجـة.

- أحلام كامل.. دورك.

تـرددتُّ كثـيرا ...قبـل أن أرى الرّجـل وهـو يدخـل اللّوحـة إلى الحقيبـة.. اعتـذرت منـه و أنـا أنـدب سـوء حظـي فقـد كانـت أجمـل مـا يمكـن أن أحصـل عليـه في حيـاتي..

قبل أن أدلف لغرفة الطبيب رجعت ببصري أنظره و هو يستدير عند منعرج الرّواق "ترى هل سأراك مجدّدا.. "

لم يستفسر الطبيب عن سبب تخلّفي عن الجلسة السّابقة ، مرّت الجلسة الثّانية أقلّ حدّة من الأولى فعلى الأقلّ قلت له اسمي كاملا دون تفلسف و كذا تخصّصي وغيرها من الأمور..

عندما خرجت أحسستني أحسن حالا ، استوقفتني الموظّفة عند الباب ، استغربتُ ذلك و دهشت أكثر لما رأيته بين يديها..

- لقد ترك لك عبد المنعم يحيى هذه اللّوحة...تفضلي
- إنّها نفس اللّوحة !..يا له من رجل!؟
- ..و هذه البطاقة أيضا...

قلّبتها و رحت أقرأ ما خطّ عليها . دعوة إلى معرض للوحات باسم عبد المنعم يحيى..كتب على ظهرها بخطّ يده " يسرّ لوحاتي معانقة حماس نظراتك ..وسأسرّ أكثر بقدومك !" إذن هو أكثر من مجرد هاوٍ!

فرحت كثيرا باللّوحة ذلك أنّها كانت تشبهني بنفس الألم و الرّغبة و بنفس الحزن !! انتابتني نشوة عميقة من الفخر وأنا أتأبّطها نحو المنزل، فكّرت كثيرا في الزّاوية المناسبة لها على جدار غرفتي ،شُغفت بها من أوّل نظرة ،كأنّما كانت جبر الكسر لروحي..عجيب كيف يعالج الفنّ جراحنا و يلامسها ، الكتابة و الرّسم و الرّقص والموسيقى و الفنون الأخرى، إنّها بتأثير الإيمان في قلوبنا و لا أحسب الله حرّم بعضها إلا لم تلقيه في النّفس من الاكتفاء والنّشوة الرّوحيّة و بالتّالي البعد عن نشوة طاعته و كتابه الذي يحقّق وحده بل يفوق ما تحدثه كلّ الفنون مجتمعة ، وإلا

فكيف يجد أعمق النّاس فنّا و أشهرهم أنفسهم عند الأطباء النّفسيين !! وتطمئن بذكر الله قلوب الذين آمنوا ..فلا تحتاج غيره !!

هذا التّفكير جعلني أوقف الموسيقى بصوت فيروز التي شغّلتها و أنا في طريقي نحو المنزل ، و في نفس الوقت يملؤني فضول التّفكير في مجيء رسام إلى عيادة الطب النّفسي...غرابته ، جدّيته ، تمّاما كنص إلياذة أو أسطورة.. لن يقتلني إلا الفضول أنا الدّقيقة الملاحظة ، أنا المضخّمة للأمور ، أنا الشّديدة الحماس و السّؤال !

- أتذكرين بعضا ممّا حصل في المرّة السّابقة! ؟
- هممممم ..كلّ شيء !!
- مثل! ؟
- الأطياف ..و الحزن العميق اللّذيذ الذي يسكنني...و هيكل مرتسم على ناصيتي لا يريد أن يمّحي..
- جيّد!! ؟ ... لنتحدّث أوّلا عن الأطياف! ؟

بعد صمت طويل قالت دون أن ترفع رأسها وهي تحرّك يديها، تشدّهما، تجدل أصابعها ، تشدّ بنطالها...كانت جدّ متوتّرة و مرتبكة..

- شيء لذيذ يسكن أعماقي لا داعي لإغماض عيني لتخيّل شكله ، أراه على كلّ هيئاته و في كلّ مكان وزمان، يلاحقني في الشّوارع ، الطرقات، على لافتات الدّكاكين، داخل الحافلات التي أركبها لا يغيب حتى عن مواضع سجودي و لا يكفيه كلّ هذا فيغتصب بعد ذلك النّوم من عيوني ويتسلّل لتلك الإغفاءات المخطوفة...أراه يتسربل مع الرّيح ليهزّ

أطـرافي، يتغلّغـل مـع الهـواء لحلقـي ثـمّ و في كلّ منعـرج يبتعـد فيـه عـن قلبـي يتقلّـص في جميـع خلايـا جسـدي ، يجعلنـي أنتـشي للوهلـة الأولى لكنّـه سرعـان مـا يشـلُّ جميـع أطـرافي ، يتكاثـف ،أشـعر بالغيـم والرّعـد والـبرق في داخـلي فأشـدّ عـلى رأسي، أكـزّ أسـناني، أعـضّ شـفتي لأمنـع الأمطـار لكنّهـا تنسـاب سـاخنة كمجـاري النّهـر عـلى خـدّي.

مجـرد اسـتذكار الموقـف كان قـد كـرّر حدوثـه تلـك اللّحظـة ،لكنّهـا لم تنتبـه لذلـك كانـت قـد دخلـت في نوبـة مـن النّشـيج الأبكـم وهـي تكـزّ عـلى شـفتيها ،تكتـم صـوت نحيبهـا ...و تشـدّ عـلى رأسـها بكلتـا يديهـا

- أحلام ..هذا يكفي!

فتحـت عينـي عـلى نـداءه الخافـت ، أمسـكت المنديـل الـذي ناولنـي إيّـاه ، مسـحت دمعـي وغرقـت في صمـت داكـن...

- منذ متى وأنت على هذه الحال ؟
- سنتين ...
- الحدث لا الوقت ..
- ...اليوم الأخير الذي تحدثنا عنه في المرّة السّابقة !!
- ماذا عن صديقاتك .
- مهـما كانـوا كـثرا ، إن لم يسـتطع النّـاس مـن حولنـا الوصـول إلى تلـك الأماكـن العميقـة بداخلنـا فسنشـعر أنّنـا وحيـدون حتـى ونحـن معهـم !!
- ماذا عن البجع و النّوارس...! ؟

ارتسـمت عـلى شـفتيها ابتسـامة لذيـذة مفاجئة..كـرّرت مسـح أنفهـا ثـمّ سرحـت بذهنهـا بعيـدا و قـد اكتسـحت عيناهـا لمعـة عميقـة و بريقـا أنـا

نفسي لم أفهم كنهه ، جدلية التّناقض عندها سريعة.. بعدها بقليل رفعت صوتها بضحكة.. ثمّ مسحت عينيها وقالت و هي تدور بهما في وجهي بحركة صبيانية ملفتة..

- أممم هذا سر...هههه !!
- و هل هناك أسرار بيننا!
- مؤكد...هههه !
- أحلام ههه !!!

بقيت كذلك أعاند طيلة الجلسة و كأنّما كلّ الضلوع المنكسرة في جسدي قد استقامت فجأة.. و التفّت نوارسي على فؤادي فجعلته راية بيضاء ناصعة ، حتى بجعاتي الحزينة قد جعلت تحشر رأسها تحت جناحيها و هي تترنّح عند بحيرتها في سكينة ملائكية ، أحسست بالرّاحة و بالنّشوة التي منعتني العودة للطبيب ... ، عندما فتحت في أحد المساءات حسابي وجدت رسالته ..

" أهلا أحلام!

كيف حال بجعاتك أحسبها ما تزال نائمة و لذلك هجرت القدوم إلى العيادة...أحببتك بذلك الإصرار... واصلي يا مجنونة.."

فكّرت كثيرا في الرّسالة و تخيّلت لها ألف معنى ومعنى إلّا المعنى الذي كان يدور في ذهني...ولم أرد على تلك الرسالة إلّا برمزي ابتسامة... أتسلّل بفضول لأرى علامة "قرئ" أسفل منهما ، لكنّه لم يقرأها...

****

"الخاطر الأوّل لا يخطئ "

ابن العربي

لأوّل مـرّة أسـتيقظ قبـل أن يـرنّ منبّـه هاتفـي و كأنّي بصـوت ينـادي عـليّ بـل يودّعنـي ، عـاودت الارتمـاء عـلى وسـادتي و أنـا أحـارب ذلـك الشّـعور الأرعـن في صـدري ، أنفيـه و أكذبـه!! تحسّسـت سـقف المنـزل كعـادتي كلّ يـوم، لقـد عـاد العنكبـوت لنسـج بيتـه هنـاك قـرب المصبـاح ، أبـدا لا يتراجـع أو يمـلّ مـن المحاولـة ، عكـسي تمامـا!

أغمضـت عينـي و أنـا أسـترجع بنهـم آخـر مـا حـدث معـي في معـرض السّـيد عبـد المنعـم ، فتحتهـما مجـدّدا بعدمـا تذكّـرت اللّوحـة! اسـتدرت يمنـة لأراهـا و قـد تربّعـت عـلى عـرش كتبـي فـوق المكتـب ،وضعـت كلتـا يـديَّ تحـت خـدّي و رحـت أتأمّلهـا ،يـدان ممدوتـان لبعضهـما البعـض ، وقـت رأيتـه يرسـم ظننتهـا وليـدة تلـك اللّحظـة في العيـادة لكنّهـا كانـت فـردا مـن أسرة عظيمـة و ذات عـدد معتـبر مـن اللّوحـات .

فقـد كانـت كلّ لوحاتـه كذلـك ، أبعـاض جسـد باللّونـين الأبيـض والأسـود ، عندمـا وقـف مرحّبـا بي ازدرت ريقـي خجـلا بينـما ابتدرتـه رشـاد بالسّـؤال و كنـت قـد أخذتهـا معـي بعـد إلحـاح منهـا :

- ألا تظنُّ أن هذا كثير على لوحة واحدة!

اسـتغربت جرأتهـا أو وقاحتهـا – لسـت أدري - فلكزتهـا بكوعـي أعاتبهـا طـول لسـانها ، و يبـدو أنّـه رآني إذ نهـرني:

- دعيها من فضلك ، أحبّ الجريئات أمثالها.

- أنا آسفة لكنّها غالبا ما تتكلّم قبل أن تفكّر!

رمقتني بنظرة حادّة غاضبة :

- لكنّها الحقيقة! الفنُّ أكبر من هذا! مملُّ أن نكرّر نفس الشّيء دائما ، روتين الحياة كافٍ!

- لكنّ الفنّ تعبير و التّعبير يختلف من فرد لآخر فكلٌّ و ما يشعر به .

- بربّك !!

- رشاد!

تجاهلني و وهو يوجّه حديثه إليها لتغوص عيناه في إحدى اللّوحات على الجدار خلفها :

- و هل الفنّ إلا لحظات و مواقف نحاول أن نقبض عليها بالنّوتة أو الرّيشة أو القلم أو الطين ، و هل الفنّ إلا استحضار شعور أو شخص غائب !

تغيّرت نظرة رشاد نحوه ، لاحظت عينيها و هما تلمعان ..سألته :

_ كيف..لم أفهم!

نظر نحوي :

- لكنّ أختك تفهم!

أحسست بنار الغيرة و قد توقّدت في صدرها ،لا تحبّ هي أن أفوقها و أتفوّق عليها و إن في الفهم .

- ألن تشرح لي !

- بلى صغيرتي .

- لست ملزما بذلك سيدي!

تجاهلني تماما هذه المرّة أيضا ليشرد مجدّدا في لوحاته .

- هـذه اللّوحـات سرّي يـا رشـاد! إنّهـا قطـع مـن روحـي! أعلـم أنّي سيّء جـدّا لأنّنـي بعثرتهـا كلّ عضـو في لوحـة ، لكـنّ الذّنـب قطعـا في قصـور ذاكرتنـا البشريـة ، هـي التـي لا تحتفـظ مـن أطيـاف مـن نحـبّ بعـد رحيلهـم إلا بأجزائهــم .

- إذن هي أعضاء لجسد واحد على هيئات مختلفة كما توقعت!

- نعم ..هي كذلك!

اقـترب مـن إحـدى اللّوحـات بـدا أنّهـا لوحـة ليـديْ فتـاةٍ جالسـة تقـرأ كتابـا .. واصـل حديثـه :

- هنـا التقيتهـا أوّل مـرّة ، في العـاشر مـن الشّـهر العـاشر عـام ألـف و تسـعمائة و ثـلاث و ثمانـين ، بـدا مـن لباسـها أنّهـا مـن غـير منطقتنـا ، لم أرهـا في القريـة أبـدا قبـل ذلـك اليـوم ، كنـت أعمـل في إحـدى الأراضي تلـك الأيـام ،أنكشـها ،أزرعهـا وأحصدهـا ،وأنـا أعـود مـن كلّ ذلـك في الحافلـة لم يكـن سـوى جانبهـا شـاغرا لكنّنـي عـلى ذلـك لم أجلـس لا خوفـا مـن أن أعكّـر صفـو جلسـتها برائحـة العـرق المنبعـث منّـي ولا مـن وصـول بعـض الوحـل إلى فسـتانها الأبيـض فلسـت بالـذي يأبـه لتلـك الأمـور خاصـة و أنّنـي كنـت أمقت خـروج فتـاة مـن بيتهـا أيّـا كان الغـرض و كذلـك كان كلّ أفـراد القريـة ، فكيف بخـروج هـذه الفتـاة و سـافرة أيضـا إلى الشّـارع ؟! بقيـت هنـاك بعيـدا أنافـس نظـراتي إليهـا ، يمنعنـي حيـائي تـارة و أمنعـه أنـا أخـرى.

بعدها راح يجول بنظره إلى جميع اللّوحات مرّة واحدة.

- و كم كانت لذيذة تلك الأيام التي كان همّي الوحيد فيها ، أن أتأمّلها إذ تذهب وتجيء من وإلى الثّانوية لأقتات على ابتسامتها أنا الذي يعيش على جوع البسمة منذ طفولتي...

- أتعني أنّ هذه كلّها صورها على الهيئات التي رأيتها عليها!

أنا التي كنت أمنع رشاد من السّؤال لم أستطع كبح أحد أسئلتي التّافهة.

- نعم ، اليوم و بعد ستة وثلاثين سنة قد استوفيت ديني و ارتحت من عبء سنوات مضت .. الآن يمكنني الخروج من هذه القوقعة!

- لم أفهم! أي دين تقصد!

- دين لقاء !!

- بربّكم أما زلتم تؤمنون بهذه التّفاهات!

- رشاد ! الزمي الصّمت رجاء و إن كنت لا تستطيعين قول كلمة مفيدة فاسكتي!!

امتعضت رشاد من توبيخي لكنّني لم أستطع المرور على هذه الأسطورة مرور الكرام.

- أي لقاء يا سيدي تقصد! ؟

- نعم _ تنهّد بعمق _ إنّه اليوم الوحيد الذي حادثتها فيه وجها لوجه بعد اختفائها المفاجئ لأيام إليها ، كنت أتفيّأ ظلّ شجرة اللّوز أيام إزهاره ، لم أشعر بها و هي تمرّ من أمامي فقد كنت منغمسا في رسم شجرة اللّوز و أشبه بحلم في حلم سمعت صوتها ، كوشاح حريري غلّف أذني شعرت به، ما أزال أذكر ما قالته وبنفس نبرته حتى اليوم ، فقد أطلقت ابتسامة متغنّجة ثمّ سألتني :

- رسمتك رائعة !

أشرت برأسي دونما كلام أن " شكرا! "

- هل يمكن أن ترسمني يا..!

- عبد المنعم ..

تأتأت كثيرا و بالكاد استطاع أن يخرج حرف آخر بعد اسمي ،كم ظالمة هي الحروف وقت حاجتنا إليها ،كم متكبّر ومتعجرف هو الكلام آنئذ !!

- عدني أن ترسمني يا عبد المنعم!

- أعدك..لماذا تكرّرينها في شك ههه!

و أخيرا قلتها إييه لقد قلتها و كم كان فرحي بها شديدا و هي ترحل مطمئنة بوعدي لها و كم كانت خيبتي مريرة وأنا أنتظر يوميا أن أراها وأتمكّن من رسمها..و الأكثر خيبة هو خيانة صورتها لذاكرتي فالبكاد زارني طيفها كاملا منذ ذلك اليوم !

- أين اختفت !!

- لا أعلم و لم أبحث عنها!

- لمااااااذا!!

- لأنّني لم أعرف أين أبحث!

- لكنّك لم تبحث! لقد كانت تحبّك!

أصيب بهستيريا ضحك مفاجئة ، ارتمى على الكرسي كمن أنهكته الدّنيا بصفعاتها المتكرّرة.

- أنا لم أكلّمها يوما على الواقع ،حديثنا الوحيد معًا كان ذلك اليوم !

- أهذا يعني...!!

- نعـم ، حـب مـن بعيـد هـي بالـكاد رأت وجهـي ، بالـكاد وقفـت عليـه ببصرهـا! وأنـا بالـكاد أنـسى وجههـا ،ابتسـامتها ،أناملهـا و هـي تمسـك بالكتـاب ، أقراطهـا و تلـك الشّـامة أسـفل عنقهـا ،بالـكاد أنـسى تفاصيلهـا العميقــة!

- سيدي!!

- لا تقلقي!

- و لم تتزوّج حتى اليوم ؟

- لا ههـه ..لقـد فعلت فوقتها بالكاد كانت عائلتـي لتتركني دون زوجة .

ابتسـم فابتسـمت بـدوري و بـأسى متأمّـل أمهلنـا لينـادى عـلى صبيـة آخـر الـرّواق ..ليقدمّهـا لنـا وهـو يضمّهـا إلى صـدره بـذراع واحـدة:

- هذه حنين...ابنتي .. أمتن رّابط لي بالحياة .

- أنا آسفة!

اعتذرت رشاد من السّيد عبد المنعم بعد تعرّفنا على حنين ..

- آه يـا رشـاد! لا تأسـفي فعـلى الأقـلّ تملـك صبيـة مثلـك روحـا نقديّـة، فـكلّ النّـاس هنـا مطبوعـون عـلى اللّافـن إلا قليـلا ، انظـري مثـلا لسـاحة معـرضي لم يـأت إلا بعـض أصدقـائي أو ثلّـة مـن متابعـيّ عـلى صفحات التّواصــل الاجتماعــي ، النّــاس في بلدنــا لا تتــذوّق إلا الطعــام يــا عزيــزتي! كانـت قصّـة عبـد المنعـم مؤلمـة جـدًّا أسـوء حتـى مـن قصّتـي أنـا الّتـي كنـت أظنّنـي نـواة الألم في الحـبّ والباقـي لبـاب ،أنـا الّتـي خلتنـي حقيقتـه و الباقي سراب ، أنـا التـي ظننتني...تبـا لظنّـي!

الآن فهمت سرّ البعد والتّقارب بين اليدين ، الآن فهمت جدلية الانجذاب

والتّنافر وسببها في اللّوحة !

- أحلاااام... أحلاااام! استيقظي.

صوت أمّي أرعب العنكبوت ،شعرت به و هو يهرول نحو اللّاتجاه من شبكته !

بقيت ما شاء الله أن أفعل في فراشي وبقيت أمّي تروح وتجيء لإيقاظي من عدم نومي وبقي العنكبوت يصول ويجول في بيته ، وبقيت ...أفكر بك!

****

"ومن يضمّد في آخر الصيد جرح الغزال !!"

أمل دنقل

لا شيء يجعلك تشعر بالتّعاسة كالتّشرد ، كأن لا يكون لك مأوى تأوي إليه ، أو عائلة تتدثّر بدفئها ، لا أب ، لا أعمام أو أخوال ، أشعر أنّني لا أعدو عن كوني ريشة تأخذها ريح الحياة أنّى شاءت ، يصدم أبي أمّي بشاحنة لمجرّد أنّه عثر على صديق قديم لها في المنزل أحد الصّباحات عند عودته المفاجئة إثر نسيانه بعض الأوراق ، دون أن يفكّر أنّ ذلك الصّديق لم يكن سوى ناظر المدرسة الابتدائية التي كنت أدرس فيها و كانت أمّي تعمل بها قبل زواجها منه وقد جاءها يومها بمبلغ مالي استلفه منها أيام كانا يعملان معا.

لذلك أكره والدي كلّ يوم أكثر ، أكره استهتاره وأتعمّد العبث بلذيذ الذّكريات الجميلة التي عشناها سويّا و تدنيسها ..أكره أبي تماما كما أمقت أحمد ، الذي ما يزال يتّصل بي بين الحين والآخر كي يستعلم عن انقطاعي المفاجئ عنه ، قطعا علم أنّني قرأت رسالة خطيبته وإلا لماذا يلّح في السّؤال عنّي ، أو ربّما يفكّر ومعه حقّ في ذلك أنّ عاهرة مثلي لابد أن تنصاع في أيّ لحظة لرغباتها وحاجتها الملحّة للمال و كأنّه لا يعلم أنّه الذّكر الوحيد الذي مارست معه الرّذيلة.. أو هكذا أظنّ فلا تلبث صورة الرّجل في السّيارة تستفزُّ ذاكرتي و لكنّني لا أتمكن من تذكّر ملامحه تماما ، ذلك أنّها كانت المرّة الأولى التي أسرفت فيها بالشّرب.. كما أذكر أنّني و لهول شعوري بالحزن والغم قد تناولت حبّة مخدّر من تلك التي يتعاطاها أحمد بعد خلوده للنّوم..

أكاد أجنّ كلّما تذكّرت ما أفعله و أحمد ، فكيف إذا فعلته مع رجل غيره..أبعد الفكرة عن دماغي كما أبعد فكرة أنّني لم أحِض هذا الشّهر، أتأمّل وجه أمّي التي لم تتفوّه بكلمة منذ أيام ، أنتبه لصوتٍ عجوزٍ في الغرفة المجاورة ، دون فضول منّي في معرفة من يكون ، أتأمّل حال الأسرة التي أقيم عندها ، مشاكلهم فأستحي أن أضيف إليهم مشاكل أخرى ، أغوص أعمق في تفاصيل أمّي ، أفكّر في المنحى الذي ستنحوه حياتي إذما قرّر الرّب أخذها منّي.. أؤمن أنا أنّها الحاجز الوحيد الذي يمنعني من ارتكاب حماقات أكبر ، أفكر في أنّني لولا وجودها كنت قارعت العديد من الشّبان وأصبحت أكثر الفتيات عهرا مقابل نزر قليل من المال ..أقلق أكثر بشأن تأخّر دورتي الشّهرية ، أستقبل مكالمة جديدة من أحمد ، أقلق أكثر على أمّي و بالمقابل من ذلك أمقت أبي كلّ لحظة أكثر وأكثر !!

بدت على أمّي حركات ضيق ، فبدأت تتمدّد وتتقلّص في مكانها ،حاولت تهدئتها لكنّ الأمر بدا فوق طاقتها . طلبت منّي همسا أن أدنو منها ، ثمّ بدأت تتحدّث و بصعوبة فهمت ما تقول : " والدك ، والدك لم يذنب أبدا حبيبتي ، لطالما كان والدك بريئا ...حادث الشّاحنة كان بسببي ... هيثم كان الرّجل الذي أحببته "

- أمّي لا ترهقي نفسك ، لا داعي لإجهاد نفسك في تبرير ما حصل يومها.
- بلى يجب أن أفعل ، محمّد بريء ، أبوك بريء .. لقد كان خطأ والدي ، فهو من منع تزويجي من هيثم ، لأنّه كان ابن ألد أعدائه و هدّد إنّه سيتحمّل إثم و وزر بقائي عانسا طوال حياتي على أن يزوّجني

به.أحببنا بعضنا كثيرا و كنّا ما نزال نعمل في المدرسة ، نقضي معظم الوقت معا و لشدّة طيشي و ولعي به وقتها سلّمته نفسي فحملت بك و عندما وصل الخبر مسامع والدي زجّ به في السّجن ،كنت ابنته الوحيدة ومدلّلته و لم يتخيّل أن أمرّغ أنفه في التّراب بتلك الطريقة..فضّل والدي معاقبتي بتزويجي من محمّد على كبره وكثرة زيجاته وطلاقه على تزويجنا رغم معرفته بحملي فرضخت بعد محاولات عديدة للفرار لقرار والدي وتزوّجت والدك..كانت ولادتك موافقة للشّهر السّابع ما جعل الأمر يبدو لمحمّد عاديا فقد ظنّ أنّه ستر عليّ الفضيحة أو هكذا أفهموه و لم يعلم أو ينتبه لفرط تعطّشه للولد رغم شكّه ممّا كان يلاحظه من نفوري و عدم شبهك بأحد منّا أنت التي تشبهين أباك هيثم ...

مرّت الأيام سريعا و عندما زرت مدرستك في الصّف الثّاني فوجئت به حاجبا في نفس الابتدائية ، تحدّثنا مطوّلا عن زواجي و عنك وعن مقرّ سكني وعن سبب عدم بحثه عنّا ولأنّ المشاعر بيننا كانت نفسها ما تزال زارني تلك الصبيحة ولم تكن المرّة الأولى ..سمع أبوك - أعني محمّد - كلّ حديثنا فثارت ثائرته وقرّر التّخلص منّي و منك بل قتلنا لذلك فررت بك وحصل ما حصل ...أبوك لم يخطئ يوما ، الخطأ كلّه منّي . أخشى أنّني لن أعيش أطول أو تسوء حالي ، لذلك بنيتي ابحثي عن محمّد فلم أشكّ للحظة أنّه أحبّك أكثر من والدك البيولوجي ، الذي فضّل دائما البقاء في الظّل ...ابحثي عنه و اطلبي منه أن يصفح عنّي ..أنا ..الأخرى ! كالصّخرة بقيت أستمع لكلامها ورغم أنّها كانت تجهد نفسها بالكلام إلا أنّني و لأوّل مرة لا أخشى عليها من الجهد الذي تبذله لكشف الحقيقة

فقـد أردت أن أسـمع أكثر..لأتعلّـم أنـا الأخـرى كيـف أصفـح إن كان الأمـر بسـيطا بالنّسـبة لهـم لهـذا الحـدّ ..أردت أن أسـتفسر منهـا أكـثر .. لكـنّ ملامحهـا انطفـأت عنـد آخـر كلمـة ..فوجدتنـي أخاطبها..بصـوت مخنـوق مذبـوح:

" مـاذا عنّـي أمّـي.. ألـن يطلـب منّـي أحـدٌ الصّفـح !! مـا ذنبـي أنـا في كلّ مـا فعلتمـوه و مـا شـعرتم بـه ، مـا ذنبـي لأحمـل عنكـم أوزار آثامكـم وأخطائكـم وسـوء تدبـير كبـار عائلاتكـم ..مـا ذنبـي ليحصـل معـي كلّ هـذا !!

– – –

في قاعـة الجلـوس اجتمـع والـداي و عمّـي محمّـد الـذي كان قـد فاجأنـا مسـاء هـذا اليـوم ، كنـت عـلى مقربـة مـن قضـم جميـع أظافـري لشـدّة التّوتّـر عندمـا طلـب الاختـلاء بهـما و أبقيـاني خارجـا.

"ألا تظنـين أنّهـم أطالوا..اشـتقت حقّـا لعمّـي محمّـد " خاطبـت رشـاد التـي كانـت تسـتمتع بتنـاول الفشـار وهـي تشـاهد إحـدى مسلسـلاتها ..رمقتنـي بنظـرة حـادة ثـمّ قالـت :

- أغـربي عـن وجهي..بقـي لي أن أخمّـن في سـبب قـدوم ذلـك الأرعـن ...مؤكّـد احتـاج بعـض المـال فجـاء يطلبـه مـن والـدي !

- ماذا عن أمّي !!

عندمـا رمقتنـي بنفـس نظـرة تركتهـا ووقفـت عنـد بـاب غرفـة الجلـوس علّنـي أسـمع شـيئا لكـن دون جـدوى ..بعـد ربـع سـاعة فتـح البـاب ونـادت عـليّ أمّـي ، تبادلـت ورشـاد نظـرات ريبـة ثـمّ دخلـت :

تحـدّث أبي أوّلا بحـزم و صـوت متوتّـر و قلـقٍ طالبـا منّـي أن أنصـت جيّـدا

لما سيقوله لي عمّي محمّد ، بينما كانت أمّي تنظره ثمّ تنظرني كصقر يتربّص بفريسته..أمّا عمّي محمّد فهادئ كعادته رغم ما يبدو على عينيه من توتّر هو الآخر .

روى عمّي محمّد قصّته كاملة ، ثمّ عقّب :

" إنّها ضالتي حيث سأكون سعيدا يا أحلام و أنا في أمس الحاجة لمن يساعدني الآن في الوصول إليها " ..ابتسمت في حزن وأنا أومئ أنّني سأفعل ، أخبرته أنّ ذلك يسرّني..

- هناك أمر آخر أريد استشارتك فيه..

وقبل أن أرد و في ذات اللّحظة بلغ مسامعنا صراخ عائشة المدوي من غرفتها " أمّي استيقظي ، أميي !!! "

****

" أوّل حلّ للخروج من الورطة.. هو ورطة أخرى ! "

عزيـزي ، لم أكتـب لـك منـذ مدّة..البارحـة فقـط تذكّـرت جنازتـك المزعومـة التـي قمـت بهـا قبـل شـهر مـن الآن ، كانـت ليلـة كريمـة مطـرة ، و مـع ذلـك بـدا شيء مـن الدّخـان يعلـو الشّـوارع ،لوهلـة ظننتـه ضبابـا أو شـيئا مـن البخـار، لكـن عندمـا ألقيـت بـصري نحـو السّـماء أدركـت أن النّجـوم مـا كان يحـترق و بينـما تـزداد حفرهـا اتّسـاعا و عمقـا يـزداد عمـق تلـك الفجـوة داخـلي و يبـدو أنّ هنـاك نجومـا أخـرى تتسـاقط منّـي إذ شـعرت بروحـي تـذوب فتتقاطـر .

صودفـت بأمّـي عنـد بـاب غرفتـي و عندهـا فقـط أدركـت أنّنـي متجّهـة إلى مـكان مـا ، شـعور غريـب كان يدفعنـي لضمّهـا لكنّنـي تراجعـت خوفـا عليهـا مـن الاحتراق..سـألتني في تخـوّف عـن وجهتـي فلـم أجـد إلا "إليـكِ " جوابـا عـلى سـؤالها .

تحدثـتْ كثـيرا وكنـت أضطـر لرسـم ابتسـامة دافئـة قبـل الـرّد عليهـا أو أتصنّع بعـض الأسـئلة حـول الموضـوع ،سـألتُ عـن نـوع الفسـتان الـذي تريـد أن أرتـدي؟ جرّبـت أمامهـا بعـض الفسـاتين ،سـألتها عـن الطريقة الأجمـل لتسريح شـعري ، عـن لـون الحـذاء الـذي يمكـن أن يناسـب الفسـتان الـذي اخترنـاه وظننـت أنّ هـذا يكفـي لأتزوّجـه وينتهـي كلّ شيء حسـب قـول الجميـع لكنّنـي فوجئـت بأمّـي تسـألني " حبيبتـي ألا تريديـن أن تتعـرّفي عليـه ؟" لم يكـن هنـاك الأكسـيجين كافٍ لأسـتمر في التّنفـس أمامهـا و حتـى قلبـي الـذي اعتـدت الشّـعور مـن خلالـه بـالألم بداخـلي لم يفعـل شـيئا هـذه المـرّة

.عـمّ يمكـن أن أسـأل في مثـل هـذه الحالـة ؟ فكّـرت في كلّ شيء إلا فيـه.. فعـمّ يمكـن أن أسـأل .

- أمّي ..لم القلق و عمّي محمّد يعرفه و هو من عرّفنا به !!

داعــب محيّاهــا هــدوء طمأننــي أو هكــذا بــدا لي ، أعلــم أنّ لا شيء مــن التّظاهــر سـينطلي عليهـا ولكنّنـي بالـكاد كنـت أقـاوم الوجـوه المليـار التـي تصنّعتهـا لتفصـل بينـي و بـين عينـي بصيرتهـا .

عندمـا خرجـتْ تلاشـيت ، جثـوت عـلى ركبتـاي في مـكاني ، أحسسـتني وقفـت أطـول مـما ينبغـي واسـتنزفت مـمّا لا أملكـه مـن طاقـة الكثـير . و لا أدري كيـف قادتنـي تلـك الموسـيقى التـي يعزفهـا المطـر عـلى نافـذة غرفتـي إلى الحديقـة .

كان دافئـا رغـم سـيمفونيته الصّاخبـة، أردت أن أصرخ ، أن أبـكي، أن أكتـب لك وقتهـا ، لكـنّ فكـرة تدنيـس البيـاض الـذي تواعـدت عليـه و نفـسي منعنـي مـن ذلـك ، عـلى الواحـد منّـا أن يتصالـح مـع السّـواد قليـلا ...كنـت لا زلـت أكـرّر في داخـلي منـذ شـهر !!

بعد عودتي لغرفتي تناولت مذكرتي و كتبت :

2018/07/04

" عزيـزي أو بلوتي..أكتـب لـك ولا أعلـم إذمـا كنـت سـأفعل غـدا ، ذلـك أنّـني أخـشى أن أضـع القلـم فـلا أعلـم أيّكـما خنـت قبـل قليـل !! معـك فقـط جرّبـت معنـى أن يفعـل المـرء كلّ شيء كأنّـه يفعلـه للمـرّة الأخـيرة ..أراك فأتأمّلـك كأنّهـا المـرّة الأخـيرة .. أسـمع صوتـك كأنّهـا الأخـيرة .. وأكتـب لـك فأكتـب كأنّهـا المـرّة الأخـيرة أيضـا.. لذلـك إذا قـرأت رسـائلي وجدتهـا رسـالة

وداع واحـدة بالغـة في الطـول ..

عزيزي..

أظـنّ أن الزّمـن فعـل بي فعلتـه وصـادق عـلى أقوالـك هـو الآخـر فهـا أنـا ذي اليـوم أقتـل أحلامـي بعدمـا نسـخ الزّمـن كلّ جراحـاتي ..كلّهـا ! وجعلنـي أتعايـش معهـا لحـدّ أنّنـي لم أعـد أجـد لصورتـك موطئـا حتـى عندمـا أبـدأ بالكتابـة إليـك ، أحـاول اسـتحضارها بنفـس البريـق و النّشـوة فأسـتغرب أنّهـا عاديـة كأي صـورة أشـاهدها ، أحـاول أخـرى عـن طريـق دمجهـا بإحـدى الأغـاني التـي لطالمـا اسـتمعت إليهـا في أوّج شـعوري بـك فـلا أجـد لهـا لـذّة ..فأسـتغرب كيـف أنّنـي اسـتنزفت خـلال ثـلاث سـنوات كلّ الطّاقـة الشّـعورية بالصـور و الأغـاني والكتـب و الأماكـن ..حتـى أصبحـت عـلى تلـك الدرجـة مـن العاديـة !!

أجلـس الآن إلى روحـي و أسـألها ..أتذكريـن يـوم ركضنـا عـلى عـبرات السّـعادة بحثـا عـن حـاضر بـين زحمـة كلّ هـذه الأشـياء الغائبـة و أتمثّلهـا تجيبنـي بابتسـامة دافئـة وهـي تكبـح دمـوع البـتر الـذي شـعرنا بـه لمّـا وصلنـا القمّـة فوجدنـا المـكان نفسـه بألقـه خاليـا منّـا.. في تلـك اللّحظـة تمامـا اختفـى البرزخ بـين دمـوع الأشـجان و الفـرح ..فقـط في تلـك اللّحظـة التـي ضـمّ و سـيضمّ فيهـا بـصر آخـر غـير بـصرك بـصري عـلى مـداد روحـي.."

و لعظيـم شـعور التّشـاؤم الـذي حملتـه هـذه الرّسـالة..مزقتها ..و فكّـرت أنّ القـرار الأخـير يعـود للقـدر في النّهايـة و ليـس لنـا نحـن البـشر إلا أن نسـعى لنكـون إلى جانـب مـن نحـب بالرّغـم مـن أنّ القـدر غالبـا مـا يعاكسـنا لأنّـه يعلـم أنّ مـن نحـبُّ ليـس لنـا أو أنَّ الحيـاة التـي نشـتهيها وإيّـاه لـن تكـون

بتلك الرّوعة التي نتخيّلها و قطعا يكون الاختبار قاسيا وليس للمرء إلا اجتيازه بما أنّه قرّر دخوله يوما.

الأقدار تقسو أحيانا وتبتسم أخر ، تجفو وتلين ، تضيق و تفرج ، و ما على المرء إلا أن يعلم أنّ كاتب القدر عليم بكلّ شيء وبيده وحده الجزء المتبقي من حياة كلّ واحد منّا طويلا أو قصيرا .

و نفس هذه الأفكار ما كان يخطر لي وأنا أنزل الدّرج لملاقاة زوجي المستقبلي ، تفنّنت في تزيين وجهي و ارتديت أجمل حللي ، زينت أمّي البيت ورشاد البيت بينما حضرت بعض قريباتي اللواتي تحدّثن كثيرا و في مواضيع تافهة .. نزلت للصّالة في تؤدة مع ابنة عمّي المخطوبة منذ فترة، كنت أتردّد بنظراتي عليها وأسترجع يوم خطبتها وكم سعادتها يومها فأغبطها إن لم نقل أحسدها...

ندخل غرفة الجلوس حيث يجلس أبي و على يساره عمّي محمّد و بجانبه شاب ،لن يكون غير زوجي المستقبلي ، جلست بجانب أمّي و لم أتساءل عن عدم وجود أيّ فرد من عائلته ، فقد شرح عمّي محمّد وضعه لي سابقا وفهمت منه أنّه سيكلّم والده في الموضوع لاحقا لأنّه على خلاف معه الآن .

- ها قد جاءت عروسنا!

هتف عمّي محمّد و هو يطلب منّي الجلوس بجانب العريس...و بالكاد رأيته! بعد لحظات من الحديث وفي مواضيع متفرّقة لا غاية منها سوى كسر الصّمت ، قال عمّي محمّد :

- ما رأيكما أن نترك العروسين يتعرّفان على بعضهما.

نفـذ أبي وأمّـي وسرعـان مـا خلـت الغرفـة إلا مـن جسـدين ، أو جسـد و جثة!
كان أوّل مـن بـادر بالـكلام ، النّـور المنعكـس عـلى وجهـه كان مطمئنـا جـدّا، لاحظـت ذلـك عندمـا رفعـت بـصري أنظـره فلـم ألمـح منـه إلا ابتسـامة واسـعة هادئـة...

- إذن!

شعرت بها تخرج من شفتيه بصعوبة ،حيية مخنوقة :

- أنا سامي...أعتقد أنّ عمّي محمّد قد أخبرك بكلّ شيء عنّي...

لا أعلـم لمـاذا كان أوّل مـا تحـدّث عنـه هـو العمـل ، آخـر شيء يهمّنـي و تمنيـت لـو أنّنـي أسـتطيع سـؤاله عـن أفلامـه المفضّلـة ،كاتبـه الغـربي و العـربي المفضـل ، هـل تـراه قـرأ للرّومـي و هـل يعـرف شـيئا عـن الصوفيـة و الحـبّ الصـوفي ، مـاذا عـن الموسـيقى ،أيفضـل الغـربي الكلاسـيكي أو الحديـث ولأنّنـي عرفـت مـن الكثيريـن أنّ التّوافـق الفكـري ليـس أسـاس العلاقـات بـل التّوافـق الرّوحـي بلعـت أسـئلتي!

- أحلام!

- هممممم ، نعم

كنـت قـد شردت و هـو يتكلّـم إذ يبـدو أنّـه تحـدّث كثـيرا دون أن أنتبـه! انفعلـت فجـأة و أردت التّفاعـل معـه في الحـوار:

- أخبرني! منذ متى تعرف عمّي محمّد .

- حصل هذا في وقت قريب!

- مثلي تماما ..هل لي أن أسالك سؤالا خاصّا !

- طبعا ..تفضّلي !

- ...هل أحببت من قبل ؟

ردّ مبتسما و كنت قد انتبهت وقتها فقط أنّ ابتسامته ساحرة :

- برأيّك همه ؟
- طبعا فعلت .. لا أعتقد أنّ هناك من لم يفعل !
- ستضحكين إن أنا أخبرتك قصّتي والحبّ...
- قل همه ؟

وجدتني أحادثه بحماس وأنا أقفز من موضوع لآخر كعادتي و فوضويتي في الحديث..وكمن تعرفه من مدّة طويلة، فقطعا لم أرد أن أتيح لتلك الكاتبة المثقّفة الصغيرة فرصة الحديث في داخلي وفضّلت لأوّل مرّة حبسها قليلا في الزّاوية و نجحت في ذلك إذ أنّني كنت عادية جدّا و اكتشفت ذات الوقت أنّه بإمكاني التّخلّص منها في أيّ مرّة ما دمت قد فعلتها هذه المرّة .

- لقد كان ذلك و أنا في الابتدائية ..كنت على صغري نبيها وكانت أكثر منّي ..و لك أن تتخيّلي أنّ غرورها ما حبّبني فيها ... لم تكن لتثبت على رأي أو حال .. عنيدة جدّا ومشاكسة فلا نقضي الوقت إذا ما التقينا إلا ونحن نتراشق الشّتائم بشتّى أنواعها.

- ...ما الذي حصل بعدها ؟

- افترقنا عندما انتقلت للمتوسّطة و قد غيّرنا مقرّ سكننا ، حصل ذلك في عمر مبكّر إذا احتسبنا أنّني كنت بسن تلميذ في المتوسّطة وأنا في الابتدائية فقد كنت أعيد كلّ سنة مرة...ولهذا قصّة أخرى ..أرويها لك لاحقا !!

- جميل - عقبت مبتسمة - و على كبرك ؟

- لم أفعل..كانت جميعها علاقات عابرة و الحقيقة أنّ عائشة لم تفارق مخيّلتي إلا في وقت متأخّر وقد أيقنت أنّ الله سيمنحني إيّاها..

- و ماذا إن كان سيفعل..وأنت من يستعجل !

قلت بابتسامة..وقف على وجهي و بدوري فعلت ، أردت أن أبحر في عينيه دونما سبب ، فقط عينيك ، دعني أقرأ ما بداخلهما...و بجرأة لا أدري من أين أتتني فعلت ، تقاطعت نظراتنا بينما كان يتكلّم ..و لم أبعدهما بل عاودت ذلك مرارا و كم كان...عاديا !!

لأجد تلك الكاتبة الصغيرة تخاطبني من الزّاوية مستهزئة وهي تعقد ذراعيها وسط خصرها " أو لسنا نؤمن أنّ الأشياء التي نراها بقلوبنا تحدث الزّلازل.. و لسنا بحاجة إلى أعيننا كي نبصرها !! وكلّ شيء حتى الآن ..عادي !!"

****

" كم كذبنا حين قلنا ..نحن استثناء !! "

محمود درويش

2018/08/15

كعجـوز يتـوكّأ عـلى قلبـي تمـرّ أيـام التّحضـير لخطبتي..بمسـاعدة رشـاد و أمّـي وابنـة عمّـي اشـتريت بعـض لـوازم الخطبـة وكانـت ابنـة عمّـي تقتنـي أضعـاف مـا أقتنـي هـي التـي أخّـرت موعـد زفافهـا لعـام آخـر رغبـة في أخـذ جهـاز عـروس يتذكّـره ألأقـاصي و الأداني مـن أهلنـا وخاصـة الفتيـات منهـنّ! و بينـما كانـت تعـود محمّلـة بالعديـد مـن المنامـات والألبسـة الدّاخليـة و فسـاتين المنـزل و الخرجـات أعـود ببعـض الأواني المنزليـة التـي أعشـقها بالرّغـم مـن عـدم تمكّنـي مـن الطبـخ كولعـي شراء أوانيـه ولوازمـه !

قبـل هـذا اليـوم بشـهر كنـت قـد عزمـت عـلى تحقيـق حلمـي في نـشر إحـدى كتابـاتي ، أذكـر أنّنـي وضعـت عمـلي " بـرزخ الـرّوح " في أربعـة مـن دور النّـشر لكنّهـم لم يـردوا للحـين مـا جعلنـي أخنـع لقـدري و أتأكّـد بأنّني أنثـى لم تخلق عـلى مقـاس حلمهـا ، لا تصلـح لـشيء ، فاشـلة في الحـبّ! فاشـلة في أن تكـون بنتـا وأختـا ! كاتبـة ومؤكـد ستفشـل قريبـا و بامتيـاز في أن تكـون.. زوجـة! كثـيرا مـا أكـرّر بينـي وبـين نفـسي أن لمـاذا يخلـق اللـه الفاشـلين أمثـالي!! فيجيبنـي صـوت سـاخر مسـتهزئ بداخـلي (ليفشـلوا _طبعـا_ ويتعلّـم منهـم النّاجحـون!!) و رغـم قسـاوة سـخريته إلا أنّـه لم يكـن يخـدش مشـاعري.. بـل يزيـدني تعنّتـا ورغبـة في التّخلـص مـن أحلامـي ونسـيانها.. تذكّـرت مـوت الكثيريـن في سـبيل عيـش أحلامهـم فاسـتدركت أنّـه مـن الغبـاء المـوت مـن

أجـل حلـم يقتـات و بتكـبّر عـلى أرواحنـا ، يأخـذ مـن عمرنـا و سـعادتنا و فرحنـا ليعيـش بعدنـا متنكّـرا بأسـمائنا .

غبيـة مقولـة " العظـماء لا يموتـون" مـا النّافـع في حيـاة اسـم وخلـوده بعـد أن عـاش صاحبـه معظـم حياتـه مكابـدا في الحيـاة ، تـراوده رغبـة الانتحـار كلّ دقيقـة ، يتخبّـط في بحرهـا ، يرفعـه موجهـا تـارة ويغرقـه أخـرى!

مـا الطائـل مـن أن يعيـش حلـمٌ مـات منجـزه لينجـز آخر اقتـداء به و تحمّسـا حلـما آخـر ليمـوت هـو أيضـا و يعيـش حلمـه باسـمه!.. إنّهـا لعبـة لا غـير!

بعـد كلّ هـذه الأفـكار السّـاخنة قـرّرت التّخلّـص مـن تلـك المثقفـة الصغـيرة الحالمـة للأبـد .. جمعـت دفاتـري و مذكـراتي ألصقتهـا ببعـض وزودتهـا بمفتـاح رقمـي كي لا يتمكّـن مـن قراءتهـا غـيري.. راودت النّعـاس عـن نفسـه علّـه يأتينـي لكنّـه لم يأتينـي.. و..ولم تأتينـي فاقتنعـت أنّـك مـن بنـات أفـكار المثقفـة الحالمـة الصغـيرة !!

و بعـد ليلـة ليـلاء أسـتيقظ باكـرا و أتجهّـز للخـروج و سـامي بغيـة شراء خاتـم الخطوبـة و قبـل خروجنـا مـن المنـزل أقـرّر محادثتـه عـلى انفـراد لبعـض الوقـت.. أخبرتـه فيـه أنّنـي غـير جاهـزة للـزّواج حاليـا و قلـت " لا " بـكلّ بسـاطة و بـلا سـبب !! قطعـا لم تكـن أوّل " لا " قلتهـا في حيـاتي لكنّهـا أوّل " لا " أقولهـا مـن أجـلي أنـا لا مـن أجـل عيـب في الآخريـن .. فـما قلتهـا لعيـب في سـامي هـو الـذي كان شـابا رائعـا بـكلّ المقاييـس.. القـرار أثـار اسـتغراب الجميع..خاصـة هـو فقـد شـعرت أنّ قـراراي المباغـت أدهشـه لدرجـة لم يجـد معهـا ردّا عليـه..

و لا أظـنّ أنّ دهشـته مـن ردي فاقـت دهشـته بعائشـة و هـي تدخـل المنـزل ببطنهـا المنتفخـة و هـو عـلى أهبـة الخـروج منـه !!

الحياة كالبيانو ، هناك أصابع بيضاء ، وهي السعادة وهناك أصابع سوداء

هي الحزن ..ولكن تأكّد أنّك ستعزف بالاثنين لتعطيَ الحياة لحنا !!

مقتبس !

وذلك العالم الصغير بداخلك

كلّما اشتدّ أزّ عواصفه كلما تكشّفت أنواره ،

تمسّك جيّدا ببقايا عالمك الصغير ،

فهي – حتما – عدّتك لبناء ذلك العالم الأكبر !

الفصل الثّالث

رواية "برزخ الرّوح " لـــ :أحلام كامل

"ما نحن إلا ما نريد أن نكون عليه !!"

أنا هنا شديدة البياض ، شديدة السّواد ، لا أجرؤ على فتح أيّ باب من هذه الأبواب ، البياض يخبرني أنّ هناك شيئا أقوى من الحبّ الذي نكنّه للآخرين و يغوص بي في أعمق النّقاط التي تتجلّى لمخيّلتي وبالمقابل يفعل السّواد بي فعلته ، فأجدني تارة في أعمق نقطة بيضاء درجة السّواد وأخرى في أعمق نقطة سوداء حدّ البياض و هذا ما جعلني أقتات على هنا حيث أعيش في داخلي لمدّة طويلة ...

بعد تجارب قصيرة في الحياة نتأكّد أنّ أفضل طريقة للتّخلّص من الحزن و الكآبة هي أن تشرب من قدح الحزن و تستنزفه حتى آخر قطراته لأنّك إن حاولت ترك القليل منه فستدفع الثّمن لاحقا عندما ترغب بالخروج من حانة الألم ، فغالبا ما سيباغتك في أحد مفترقات حياة ذاكرتك المستقبليّة ، عندما تفلس من السّعادة وإن نجحت في التّخلص منه مؤقتا ..

و لهذا بالتّحديد لم أحاول مطلقا تجنّب ما يمليه عليّ هذا العالم الّذي أعيش فيه الآن ...لم أمنع نفسي قطّ من البكاء و النّحيب والصراخ ولا حبسته عند الرّغبة فيه ، لم أمنع نفسي من التّقوقع على داخلي وإغلاق كلّ الأبواب التي تصل هذا العالم بالعالم الخارجي ، من باب القرابة والصداقة و الرّغبات المختلفة .

خاصة وأنّ سواد كانت تأخذني إلى أبشع ما يمكن لقلبي تحمّله من

المشـاهد والأفـكار و الذّكريـات، مـردّدة أنّ " لا شيء يملـك القـدرة عـلى انتشـال العاشـق مـن أوهامـه كتدنيـس لذيـذ الذّكريـات في خيالـه" ، قبـل قليـل كنـت في أبهـج أبـواب السّـكينة الدّاخليـة مـع بيـاض عندمـا باغتتنـي، كان النّـورس بداخـلي قـد افـترش المحـراب وبـدأ بالصـلاة ، قفـزت بي إلى أنصـع مواقـع الأمـاني فيّ ، حيـث أبـدا أجلـس و إيـاك و نحـن نفـترش السّـماء و نتأمّـل أشـدّ النّجـوم بريقـا ولمعـة ، تُبـدِل ابتسـامتي حزنـا ، ونسـيم صـدري لهيبـا ، و بريـق عينـي رمـادا ، خاصـة عندمـا أراني و قـد توسّـدت كتفـك فـلا أجـدني إلا بعيـدا ، أراقـب المشـهد الـذي كنـت للتـوّ صاحبتـه مـع ...أخـرى !! أو أراني و قـد كنـت حيـث يجـب أن يكـون منـزلي وتكـون رجـلي وأقـوم بأبسـط المواقـف العميقـة كأن أناولـك المنشـفة أو أحـضّر غـداءك وقهوتـك أو أقاسـمك حيّـز الشّـارع وطرقاتـه قبـل حيّـز الغرفـة وجدرانهـا و قبـل حيّـز السّريـر و ...حيّـزك، أن أمـارس طقـوس تأمّلـك عـلى كلّ حالاتـك واقفـا، وجالسـا ، وماشـيا ،ونائمـا ، قبـل ممارسـة طقـوس لمسـك وحرمانـك مـن نفسـك ...أجـدني بعيـدة عـن كلّ هـذا، لأنّهـا وفي أعمـق لحظـات انتشـائي بالحلم...تسـتبدلني ب...الأخـرى !!

ليـس عـلى أحـد أن ينكـر عظمـة دور السّـواد الـذي خلقـه اللـه فينـا ، أو ينسـبه إلى الشّـيطان ووسوسـته، فلـولا نصـف السّـواد الـذي خلقنـا بـه لمـا قدّرنـا حاجتنـا إلى البيـاض ، فـلا تظهـر الأمـور إلا بنقيضهـا وكذلـك لـن تظهـر قيمـة البيـاض إلا عندمـا نتوغّـل في سـواد أفكارنـا وذكرياتنـا.و كذلـك قيمـة السّـلم لا تظهـر إلا عنـد الحـرب وقيمـة القـرب عنـد البعـد ..وقيمـة الحـبّ عنـد الكراهيّـة !!

****

" ..ولماذا أحبّك بضعف وحبّي لك على قوّتي أقوى !! "

مع مرور زمن لا قدرة لي على تذكّره ،كرهت تلك الحبوب التي كانت تناولي إيّاها سواد ، كرهت جولات الكراهيّة و الحقد الذيْن كانت تأخذني إليهما ، كرّهت تلك الأفكار و الخواطر التي كانت توردها فتحشو بها دماغي ، تلك التي كثرت حتى أعمتني و أنستني أنّي قبل هذا كنت على دين الحب !!

- أرى أنّني خطرت على بالك أخيرا ...

كنت أصلّي داخل عينيك عندما سمعت همس بياض بجانبي ، المكان الوحيد الذي ما يزال منيرا من صورتك بداخلي ، المكان الوحيد الذي شعرت أنّه بإمكاني استئمانه على نورسي الوردي فيك ، فقد دنست سواد كلّ المناطق الأخرى بصورة الفتاة ... الأخرى !!

- دائما ما كنت... لكنّني تألّمت كثيرا...والألم يكتم نور الحبّ و سكينته ويغمر القلب عتمة واضطرابا !!

- أبدا ...أنت مخطئة تماما ...فوحده الألم من يقودنا إلى الحبّ و السّكينة ، ويغمر القلب بنور الله وأمنه ..لكنّ سواد عاثت بك في عالمها و اقتنصتك منّي و أناك كانت تنشد راحتك وتغييرك بعد تضرّرها فأنستك إيّاي تماما...

- لكنّني بخير بفضلها ...لقد اعتدت على صورة الأشباح و دويّ أصوات نحيبها في رأسي وفؤادي، اعتدت أيضا على صورته مع غيري... لقد جعلتني أكره بعض تصرّفاته و ستجعلني أكرهه مع الوقت و أنساه

- أنا لن أنكر أنّها هدّأت من عواصف داخلك لكنّها جعلت منك كائنا ناقما لا يحبّ الخير للنّاس ويبغي مناولتهم من نفس الكأس الذي سقته منها الحياة ...هل هذا صائب برأيك !؟ لماذا عليك أن تكرهيه بعد كلّ هذا الحبّ !! لماذا لا تفكّرين في طريقة أخرى تجعلك تحبينه بطريقة مختلفة و أقوى من هذه !!

- تمزحين همه ...أن يسلّم المرء روحه لملك الموت أهون عنده من تسليم حبيبه لغيره !! فكيف بربّك تريدينني أن أسعد و أهنأ لهنائه مع غيري !!

- أجل ، فإذا أحبّ المرء لحدّ أن صار الحبيب جزءا لا يتجزّأ من روحه فيصيران روحا واحدة وقلبا واحدا و (أنا) واحدة ، حتى إذا وقع الحزن في قلب الواحد منهما انتكس الثّاني ، وإذا انتشى قلب أحدهما سعادة طار وحلّق قلب الثّاني ...أوليس أنت وعدته هذا الحبّ أوّل ما التقيتما كيف ينقلب عطاء الحبّ المغدق إلى منع عند الفراق بل وكيف يبدل الفؤاد الرّقيق على الحبيب فؤادا قاسيا متحجّرا يرغب في أذيّته !! أليس أنت وعدته هذا الحبّ؟ هيا أجيبي ؟؟

- ...بلى ..ولكنّه ..جعلني أكفر بكلّ ما آمنت به من الحبّ سابقا ، لم أعد أجد ذات البريق في شعر مجنون بني عامر أو كثير عزّة أو جميل بثينة أو عنترة ولولا جهود سواد لما بقيت أنعي نفسي بقول جميل :

وما ذكرتك النّفس يا بثين مرّة ** من الدهر إلا كادت لها الرّوح تتلف

إلا علتني عبرة استكانة ** فاض لها جار من الدّمع يذرف

تعلّقتها والنّفس منّي صحيحة **فمازال ينم حبّ جمل تضعف

أو قول المجنون :

تَذَكَّرتُ لَيلى وَالسِنينَ الخَوالِيا ** وَأَيّامَ لا نَخشى عَلى اللَهوِ ناهِيا

لَحى اللَهُ أَقواماً يَقولونَ إِنَّنا ** وَجَدنا طَوالَ الدَهرِ لِلحُبِّ شافِيا

فَشَبَّ بَنو لَيلى وَشَبَّ بَنو اِبنِها ** وَأَعلاقُ لَيلى في فُؤادي كَما هِيا

وَلَم يُنسِني لَيلى اِفتِقارٌ وَلا غِنىً ** وَلا تَوبَةٌ حَتّى اِحتَضَنتُ السَوارِيا

وحتى قول عنترة :

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ ** مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها ** لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

أو قول الحلاج الذي كنت أعشقه في الحبّ الصّوفي :

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت **إلا و حبّك مقرون بأنفاسي

ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهم ** إلا و أنت حديثي بين جلّاسي

ولا ذكرتك محزوناً و لا فَرِحا ** إلا و أنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطش **إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكأس

فأهمّ لتقبيل طيفه كلّما زارني في عزّ انشغالي..و ما أكثر ما يحدث ذلك. سواد معها حقّ ، هي فقط من خلّصتني من " تذكّر" في مثل هذه الأبيات وتلك الأغاني.. سلخته من تلك الموسيقى التي تعزف بروحي وترتبط بخيط رفيع جمع الذّكريات الماضية و سلّت بعض روحي المنفوخة على صوره ، عطر جسده الملتصق بأشيائي ، المعنى من كلماته، ووضعت حاجزا بين نظراته و نظراتي على الأشياء و المناظر و ...الحروف !!لقد كرّهتني ورود طيفه على خيالي فلا يرد و إن ورد جعلت حضوره

قاسيا ..ما يجعلني أكرهه وأكره الحبّ ، وأكره العالم و أتمنّى لكلّ قصّة حبّ أن تفشل قبل أن تبدأ، فلا أرى إلا دمعا كدمعي واحتراقا كاحتراقي وموتا كموتي ... أتمنّى أن يذوق كلّ حبيب ما ذقته من الأسى واليأس ،و ما عشته من الإحباط والتّشتت ، أن يصير كلّ حبيب لغير من يحب !!

- لماذا علينا أن ننهي الأشياء بالألم والكراهية، إن كان بإمكاننا إنهاؤها بحبٍّ وسعادة !!

- ...كفى أنا لا أريد أن تكلّميني و لا أن أشعر بك مجدّدا ...صحيح أنّني خلقت على بياضك لكنّني جرّبت من الحياة ما يكفي لأختار أن أكون على السّواد فيما يأتي..

- لكن ...على الأقل امنحيني فرصة كما فعلت مع سواد !

- قلت لك اصمتي واغربي عن ناظري و سمعي .ارحلي ..ارحلي ..ارحلي

" لقد رحلت يمكنك نزع أصابعك عن أذنيك ..."

عندما سمعت صوت سواد مجدّدا سكن ذلك الصّوت البريء الضّعيف بداخلي .

****

" كلّ محبّة لا يؤثر صاحبها إرادة محبوبه على إرادته لا يعوّل عليها.."

ابن العربي

أوّلا ،

أن نستند على غيرنا أوقات ضعفنا لا يعني أبدا أنّنا معتمدون عليه كليّة وسنسقط إذا ما قرّر الرّحيل .

ثانيًا ،

كثير من النّاس يعرفك ، بعضهم يسأل عنك ، كلّهم يحبّك ، قليل يعلم حالك ، و لا أحد يفهمك !! فلا داعي لهذا الحشد من البشر حولك !!

ثالثا،

لا داعي لتوديع أحد ،عليك فقط النّطق بالشّهادتين و الموت ميتة الأحياء و إسماع النّاس آخر تنهيدات الفرح الوهم ...فموت في الحياة على كرامة خير من حياة ذلّ قيد الموت !!

رابعا ،

إذا أردت السّعادة عليك هجران قراءة كتب الذّاكرة المندثرة !!

خامسا ،

بقدر ما كان البعض على بياض كانوا تعساء.. بعض السّواد يجعلك أسعد وأجمل !!

سادسا ،

أنفاسك آخر ملاذ لآهات فرح بدّدها الحزن ، أنت أنثى نوّرها الظلام، تزفر الحرية بعد كلّ شهيق شوق ، قاومت على ناصية الأيام رغم

حصـول كلّ شيء لم يحصـل !!

سابعا ،

لا خـوف مـن طعـم الحقيقـة المـرّ في عيـون المحـبّ فهـو أقـلُّ مـرارة مـن سـماعها عـلى أفـواه الآخريـن !!

ثامنا،

لا تدخل عالما غير عالمك لأنّك إمّا أن تتوه فيه أو تطرد منه مذموما .

تاسعا ،

داخلـك لا يتسـع لغـيرك ، مـليء بـك حـد الفيـض وكلّ الكـون سـبيل لمـلء الثّقـوب التـي قـد يصـادف أن تحدثهـا أشـواك ريـاح الفجـأة.

عاشرا ،

اختـزل العـالم في مكـبّ قلبـك ، و انصـب نفسـك عـلى الواجهـة لضـمان عـدم الاتـكاء عـلى غـير كتفـك كلـما ملـت !!

بـدأت سـواد بتحفيظـي قوانـين سـواد الـذّات البشريـة بعدمـا رأت أنّنـي قـد نجحـت في تبنّـي أفكارهـا التـي أبـدا تلخّصهـا بشـعار " لا لـذل الطيبـة ، نعـم للأنانيـة ،لا للعلاقـات المؤقتـة ، نعـم للأنانيـة !! ..و ليعـش ال (أنـا) "

كنـت أكرّرهـا كي أحفظهـا عندمـا أغمضـت عينـي فـلاح لي نـورسي الـوردي ، نـورسي الـذي لم أسـأل أبـدا عـن هويّتـه مـن هـو ؟ لمـاذا لا أشـعر بـه عميقـا إلا عندمـا أغمـض عينـاي لمـاذا هـو الـشّيء الوحيـد الـذي لا حاجـة لذاكـرتي لمعرفتـه ، أي أنّ مكمنـه القلـب لا العقـل ، للمجانـين نـورس وردي و كذلـك العقـلاء ، لـلأشرار نـورس وردي ، وكذلـك الطيّبـين ، الأطفـال كـذا الكبـار ، وربمـا يتعـدّى الأمـر للنباتـات والحيوانـات فهـي أيضـا تمتلـك قلوبـا تسـكنها

نـوارس ورديـة !! فكـرت بعمـق ، هـل تـراه هـذا النّـورس الوردي...يـا إلهـي!!

- نعم ، إنّها هي !!

- بياض !! كيف جئت لقد تخلّصت منك !!

- الأرواح الطّاهـرة التـي نمـت عـلى بيـاض جذورهـا يسـتحيل أن يكتنفهـا السّـواد طويـلا !

- ...أتقصدين أنّ ما أفكّر به صحيح ، هل نورسي الوردي ... !!

- الـرّوح ، و لأنّ روح اللـه الطاهـرة عميقـة جـدا ، لـن نستشـعرها إلا إذا أغمضنـا أعيننـا !! نغمـض أعيننـا عنـد الصـلاة ،لأنّ السّـواد إذا تنفّـس يجعـل البيـاض أكـثر نصاعـة ووضوحـا !! و لأنّنـا يسـتحيل أن نعـبر كلّ هـذا الظّـلام إن لم نبـق أعيننـا عـلى النّـور.

- المسـافة ... (لا يمكـن أن تنتـشي بـشيء مـن السّـعادة الحقّـة..وإن في خيالـك !! ...و أنـت تحـاول التّقـرّب مـن شـخص لا تملكـه!!) و الـرّوح ...(روح اللـه الطاهـرة عميقـة جـدا ، لـن نستشـعرها عـلى عمقهـا إلا إذا أغمضنـا أعيننـا !!) بقـي ... (الآخـر !!) مـا هـو الآخـر يـا بيـاض !!

- بعـد التّعـرف عـلى قانـون الـرّوح حسـبتك سـتصحّحين القانـون الأوّل !!

- كيف ؟ لم أفهم !!

- لا بـأس ، دعينـي آخـذك أنـا الآن في رحلـة فقـد تجوّلـت كثـيرا برفقـة سـواد ، سـنتعرّف فيهـا عـلى (الآخـر) ، أحسـب أنّـك لـن تصحّحـي القانـون الثّـاني إلّا إذا فهمـت القانـون الثّالـث مـن خـلال القانـون الثّـاني !!

****

" لكلّ فكرة متوغّلة في العمق والتّفرع جواب و مخرج !!"

بينما كنت أسير خلف بياض إلى حيث من المفترض أن أتعرّف على (الآخر) على فوضى صمت رهيبة ، قالت بلطفها وصوتها الهادئ الباعث على الطمانينة على عكس صوت سواد :

- الأسئلة العميقة التي تراودنا من دلائل قدرة الله في خلقه وهي بعض من الإيمان ، فما عدم وصول الإنسان إلى أجوبة الكثير من الأسئلة إلا دليل على أنّه مخلوق عاجز وتابع لقوّة أعظم ، والجواب الوحيد الذي نضعه لها هو حكمة الله الغائبة عنّا !!

- سواد كانت تعقب على نفس الجملة بأنّني .. لن أصل لأجوبته.

- بلى ، لكلّ فكرة متوغّلة في العمق والتّفرع جواب و مخرج !!

- لماذا كانت تقول ذلك ! وأين هي الآن !

- الأفكار المتوغلة والمتفرّعة تجعل الإنسان في حيرة من أمره ، تربك خياراته و قراراته و تجعله يختار أكثر الحلول قربا و إتاحة !! و لذلك كنت ستختارينها لأنّها كانت الأقرب إليك في وقت كان كلّ شيء يدعو إليها !!

- هل كانت شريرة إلى هذا الحدّ !!

- أبدا ...أنصتي إليّ جيّدا ...وجود السّواد في الإنسان حتميّ ولو على نزر قليل وهي ما سمّاه الله بحظ الشّيطان في بني البشر...

- هل يمكن أن نضع على المقابل منها روح الله في ذات العضلة ...

- أحسنت ...وهذا السّواد هو ما يولّد الغيرة ، والكره ، والأنانية،

والحقد و الكذب، والتحاسد ، في مقابل الحبّ و الإيثار والعفو و التّسامح و الصدق و العفو و الكرم .

- إذن فالصراع بين الخير و الشّر قائم و لن ينتهي إلا بنهاية الحياة!!

- أجل وأظنّك عرفت الآن أين هي سواد !!

- إلى حد ما ...في أناي حيث جهة السّواد قبل أن نأتي إلى هنا.. أجل ، أجل ..أذكر أنّها كثيرا ما كانت تكرّر بعد أخذ و رد على سواد ولي أنّ الأمور تفوق قدرتها ورغبتها..الآن فقط فهمت لماذا كانت تقول ذلك...كانت تريد أن تفهمني على صحوة منها و غفلة منّي أنّ كلّ شيء بيد الله ، كلّ شيء بقدر !!

- نعم ، القضاء و القدر هو القوّة الوحيدة التي تجبرنا بعد السّعي على الرّضوخ و الاستسلام وقدر المؤمن كلّه خير..

-بياض ..هل هذا يعني أنّ ما يصيبنا من الشّر هو ممّا كسبت أيدينا!!

- الشّر إمّا سبب أو نتيجة ...إذا كان سببا فهو ابتلاء ظاهره عذاب وباطنه إذا رافقه صبر، فالأجر والرّحمة ، وإذا رافقه تضجّر و تذمّر فلا أجر والعذاب..والحياة ليست بدار قرار واستقرار بل دار اختبار و امتحان ..ويكون الشّر نتيجة بمسمّى العقاب الذي يكون في نفس الوقت كفّارة!!

- إذا فحبّي له إما ابتلاء أو كفّارة !! يا إلهي ... !!

- أحيانا ، شدّة النّور أعلى السّلم تمنعنا رؤية درجاته المكسورة !! كذلك الحبّ ،نوره القويّ يحجب عن القلب البصر و البصيرة ... وصلنا . نظرت في المكان حولي عندما قالت بأنّنا وصلنا ، قلبته يمنه و يسرة وبالكاد رأيت شيئا يوحي بأنّ هذا المكان مختلف عمّا قبله !!

****

"وقد تخوى بعض الأماكن لشدّة امتلائها !!"

- كأنّك تستغربين من سرّ إحضارك إلى هذا المكان ، ولا شيء فيه يوحي بالاختلاف !!

- نعم ، إنّه خاوٍ !!

- بعض الأماكن تخوى لشدّة امتلائها !! وكذلك هذا المكان لو دقّقت فيه النّظر لوجدته ممتلئا بك !! لكنّك بالمقابل تشعرين بالفراغ والوحدة والألم !!

- أين نحن منّي ، أهو فؤادي مرّة أخرى !!

- كلّا ، إنّنا داخل نورسك الوردي ...

- روحي !

فارغة تماما إلا من رائحة تجهلها الأنوف و تستلذها القلوب ، طلبت منّي بياض أن نتوسّطها ، ثمّ تقرفصت كمن يتجهّز للصّلاة وهي تومئ لي أن أفعل مثلها قبل أن تغمض عينيها .

لأجدنا نطير نحو الأعلى وعلى أطرافنا ضباب وردي يوحي منظره بالسّكينة و الرّاحة ، شعرت أنّني ولأوّل مرة منذ دخلت هذا العالم مرتاحة ، لا صراع ، لا ألم ، لا خوف ، لا اضطراب . نظرت صوب بياض و هممت أحدμثها بشعوري عندما سبقتني بالحديث ..

- إنّها لحظات السّكينة والرّضا التي تشعر بها روحك نحو الله وكذلك اللّحظات التي تكونينه فيها...قد يتغيّر الوضع في أيّ لحظة !!

- ماذا تقصدين بأكونه!!

- لطالما آمنت أنّ الحب ...

وجدتني أكرّر معها وكأنّ القول قولي وإن كان :

- أن أحبّك يعني أنّك أنا ، أشاركك الحزن فيستنزفني كما يستنزفك و أشاركك تفاصيل سعادتك ، كأنّها نفس تفاصيل سعادتي ، أن أحبّك ، يعني أن أتماهى فيك كأنّني خلقت على مقاسك ، ثوب على شكل جسدك من أطول خصلة في شعرك إلى أصغر أصابع قدميك ، فلا تبطش إلا بيدي لا تبسم إلا بفمي ، تبكي دموعي وتنبض عمري ، و تستنشقني...لكن !!! هنا تكدر المكان وتحوّل الضباب الوردي إلى غيم رمادي فأسود قاتم،حينها انطفئ الإيمان بداخلي وتلاشيت وهويت من أعلى أبهتي السّكينة الرّوحية بينما شعرت كأنّني أختنق وأعتصر ، صحب ذلك الشّعور القاتم رغبة جامحة في البكاء والصراخ ...

بينما أنا كذلك فتحت عيناي لأجدها مباشرة عند وجهي ، هالني الموقف فصرخت ، بحثت عن بياض ، فلم أجدها ، كان نفس المكان ثانية ،فؤادي المضرّج وقد ملئ بأشباهي الأشباح ، كانت ستفترسني عندما لاح خلفها بعض من نور بياض وهي تهمس لي بحب : " روح الله الطاهرة عميقة جدا ولذلك لن نستشعرها على عمقها إلا إذا أغلقنا أعيننا ..."

كانوا لا يزالون ينهشون داخلي عندما تقرفصت ، لم يختف أحد منهم ، يقتربون ويبتعدون ...يحلقون فوقي ،يرفعونني ويخفضونني ...وأتآكل !! " لا يمكن أن تنتشي بشيء من السّعادة الحقّة..وإن في خيالك !! ...و أنت بعيد عن روحك..." المسافة الحقيقية هي الحاجز بيننا و بين أرواحنا،

أن أحبّك يعني أنّك أصبحت جزءا لا يتجزّأ من روحي فنصير روحا واحدة وقلبا واحدا و (أنا) واحدة حتى إذا وقع الحزن في قلب الواحد منّا انتكس الثّاني ، وإذا انتشى قلب أحدنا سعادة طار وحلّق قلب الثّاني ...أن أحاول كرهك يعني أن أحاول الابتعاد عنّي ، أن أتناقض مع روحي ، أن أحبّك ...يعني أن أكونك ...الآخر هو أنت عندما تبتعد عن روحك..."

لا أذكر كم مرّة كررت العبارة عندما تحوّلت الأشباح إلى بجعات بيضاء، وبرك الحمأ و القيح إلى بحيرة هادئة ، والنّار أشجارا خضراء ، وجدتني أصلّي في بحيرة بجع كالجنّة . لولهة خفت أن يكون بيت الأشباح أبديا ، أن أعيش هذا الكابوس مرتعبة ما تبقى من عمري ..

- لا ألم تحت سماء الله !! الجراح على الشّجر تصيّرُ جزءا من لحائها لكنّها أبدا لا تؤثر في نموّها ..

قادني التّمثيل إليّ قبل لا أدري من الزّمن، أشارت بياض مبتسمة إلى أحد الأشجار فرأيتني هناك أخطّ أولى حرفين من اسمينا على أحد شجرات الصنوبر في إحدى خرجاتي و أنا أتمثّلك خلفي تعينني على تفريغ بعض الحبّ على الشّجر ، أذكر أنّ سواد قد شوّهت الصورة في مخيلتي وأحضرت إليها ...الأخرى ، و أذكر أيضا أنّني عدت إلى الشّجرة مجدّدا بعد فترة طويلة لا أعلم مقدارها فوجدت أنّ الشّجرة واصلت نموّها في غير اكتراث لكثرة الجرح التي شوهها بها العشاق وإنّما زادت صلابة... كأنّما كانت تتنفس القوّة من جراحها !! بياض لم تبعد صورة (الأخرى) بقدر ما جعلتني لا أتأثّر بوجودها!! ...بياض قوّتني !!

****

" الآخر هو أنت.. عندما تبتعد عن نفسك !"

كنت ما أزال أصلّي و إيّاها بداخلي ونتجوّل عبر كلّ ما قد يخطر لي من السّواد فتبدله بياضا ..لم تمنعني يوما من تذكرّك ، أو البكاء حسرة على رحيلك، تقول : دموع الحبّ تطهّرنا من الكراهية والأحقاد وتقرّبنا من الله ،و الحزن أكثر ما يعلم الأرواح الانحناء و يقيمها للسّجود بين يدي الله !!

أحيانا كانت تأخذني إلى لحظات سعادتك فأبكي ، لا لنفس شعور الذي كانت تبثّه سواد بين أضلعي من غيرة وحقد بل لأنّها كانت تجعلني أقبض على الفرح الذي تعيشه فأشعر كأنّما أنا من تعيشه على وهمه... " الآخر هو أنت عندما تبتعد عن نفسك " هذا ما قالته لي في إحدى صلواتنا ، علينا أن نتصالح مع دواخلنا ،وأن نمنح أنفسنا قبل الأشياء من حولنا الحبّ الكافي لحياتها ، علينا أن نتعايش مع جراحنا بحب ورضا ، وأن لا نلعن المواقف التي أدّت إليها أو نستنزف طاقتها في نعيها. أرواحنا سخيّة لذلك علينا أن نعاملها كما نعامل أعزّ النّاس على قلوبنا، الأشخاص الذين لا يقدرون على حبّ أنفسهم معاقين عاطفيا... ولا يمكنهم أبدا أن يحبّوا غيرهم بالشّكل الصحيح فلا يمكنك أن تغدق على أحد بالحبّ إن لم تتمكّن من إعطائه لنفسك أوّلا .

لم يعد هناك داخل محطّم بقدر ما أصبح هناك داخل كلّما ذكر تحطّمه ابتسم ..لم يختفي الألم وحتى التّخيّلات التّي دائما تجرحني وتكسرني !! لكنّني أصبحت أعرف كيف أجعل الجراح أقلّ إيلاما

أو لا أكـترث لهـا أصـلا ...وحتـى وإن بكيتهـا يكـون ذلـك بـــ...رضـا !!

بيـاض غيّرتنـي ، خاصـة بعـد جولتنـا الأخـيرة التـي كثـيرا مـا نكرّرهـا ، حتـى لأطلقنـا عليهـا تسـمية "صـلاة الرّضـا " نجلـس فيهـا سـويا ، نغمـض أعيننـا، ونتنفـس بعمـق ، ثـمّ نلـج أعمـق مناطـق النّـور فينـا ،نصُـفّ كلّ علامـات الاسـتفهام المعلّقـة عـلى جـدار روحـي ثـمّ نبـدأ بالإجابـة عليهـا ..أذكـر جيّـدا أوّل مـرّة فعلنـا ذلـك معـا ، كان ذلـك في بدايـات مـرضي بـك واسـتيلاء السّـواد عـليّ ، حينهـا كنـت أجهـل تفاصيـل هـذا المـكان و كنـت أحسـبه فارغـا ، قبـل أن أفهـم أنّـه ممتلـئ حتـى الفيـض عـلى عكـس مـا يبـدو عليـه .

وقفنـا وسـطه كالعـادة ،عندمـا شـعرت بيـاض بـأنّ شـيئا مـا يتأرجـح في روحـي بعـد أو أثنـاء كلّ صـلاة و غالبـا مـا يتبعـه دمـع حـارق عاجز..أدركـتْ أنّ ذلـك لم يكـن نقصـا في إيمـاني باللـه أو كفـرا بـه فهـي مثـلي تعلـم أنّ هـذه الأسـئلة فـوق طاقتـي ولا قـدرة لي عـلى تجاوزهـا أو إهمالهـا لذلـك اقترحـت عـليّ أن أرتّـب علامـات الاسـتفهام في صفـوف بـين التـي تحتمـل وجـود إجابـات و التـي يسـتحيل الإجابـة عنهـا..

لمـاذا تركنـي؟ لمـاذا لم يكتـب اللـه لنـا أن نكـون معـا ؟ هـل أنـا امـرأة غـير مناسـبة؟ لمـاذا لا أسـتطيع نسـيانه ؟ لمـاذا نتعلّـق كلّ ذلـك التّعلّـق بأشـخاص ليسـوا لنـا ؟ لمـاذا لا نحـب مـن يحبّنـا ؟ ولمـاذا لا يحبّنـا مـن نحبّهـم ؟ لمـاذا لا يجمـع اللـه كلّ المحبّـين بمـن يحبّـون إن كان قـادرا عـلى كلّ شيء ؟ إذا كان الحـبّ رزقـا لمـاذا لا يرزقـه اللـه حبّـي ؟

- " القدر !!"

دائمـا مـا كانـت بيـاض تعيـدني إلى الرّكـن السّـادس مـن أركان الإيمـان ، الإيمـان

بالقضاء والقدر ، أصعب أركان الإيمان و أكثرها تطلّبا للصّبر . نؤمن بالله دون أن نراه لأنّنا نشعر به و نراه في و على كلّ شيء خلقه ، نؤمن بالملائكة والكتب و الرّسل واليوم الآخر رغم احتمال السّؤال عنها لأنّها لا تمسّ ذواتنا في الحياة الدنيا على العكس من القضاء والقدر فهو ركن يغيّر اتجاه حياتنا وبطريقة يعجز معها المرء عن تغييره أنّى فعل ، القضاء والقدر مسألة عجز لا يصلح معها إلا الرّضا !!.

أمر مريح جدّا أن يعلوَ الإيمان قلوبنا لمرتبة التّسليم الكامل لما هو أقوى ، و الأكثر طمأنة منه أن ننسب كلّ الأمور التي سعينا من أجلها ولم نفز بها إلى قضاء الله وقدره . كيف لا ، وقد قال الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه " لو عرضت الأقدار على الإنسان لاختار القدر الذي اختاره الله له ." و من هنا جاءت "صلاة الرّضا "، التي أصبحت أكثر صلاة تشدّ أزري و تدفعني للتّفاؤل و الأمل مستقبل الأيام.

****

" الإيمان هو القوّة التي يخرج بها قلب محطّم إلى النّور "

هيلين كيلر

أولا ،

الله هو الحب .

ثانيا ،

النّدب المليئة بنور الله لا تؤلم ، تفتقها ابتسامة وأنينها ابتهال..

ثالثا ،

و "كن " لم تخذل قطّ دعاء ازدحم لوعة بدمع الأرواح الطاهرة !

رابعا ،

علينا أن نستسلم ونرتخي لما هو أقوى ،وكأنّنا لا نملك شيئا و لا نملكنا !!

خامسا ،

وحبّ الله كافٍ لجعلنا نحبّ أنفسنا وكلّ الأشياء من حولنا .

سادسا ،

كيف لا يزهر قلب و الأبد (الله)، أبدُ وجهته !!

سابعا ،

كيف ستكونك ، إن عجزت عن كينونة من تحب !!

ثامنا ،

العواصف لا بد تنتهي إن طالت و إن قصرت ،وإنّ كلّ ما علينا فعله حين هبوبها هو التّشبث بيد الله والتبّصر بعينيه ، فكيف تهزّ عاصفة يدا بالله تشبّثت وقلبا به تبصّر !!

تاسعا ،

عليك أن تنتمي إلى حيث ينتهي بصر قلبك لا عينيك !!

عاشرا ،

الصلاة هي وسيلة الاتصال الوحيدة التي تتخاطب بها الأرواح التّائهة على أرض الحب ، فصلّ دائما لمن تحب !!

إنّها القواعد العشر للبياض ...

ليس سهلا على الجريح أن يهمل جراحه ويتركها تلتئم لوحدها ، ليس سهلا أن يُبْقِيَ أحدنا عينيه على النّور رغم شدة العتمة حوله ، ليس سهلا أن تكون شخصا آخر فتفرح لفرحه وتحزن لحزنه لمجرد أنّك تحبّه و قد فارقك ، ليس سهلا أن ترضى بالقضاء والقدر رغم سعيك الشّديد للحصول على ما تريد ...كلّ هذا ليس سهلا ... كما ليس سهلا أن تعيش البياض رغم شدّة السّواد الذي يملأ عالمك...لذلك لا تعامل الحياة بسهولة و حارب السّواد ببياضك حتى تهلك دونه!! ...فذلك هو الإيمان !!

قبل لا أدري من الزّمن ، ظننتني فررت إلى أعتم المناطق بداخلي لأستغرق نهايتي وأتغيّر من خلالها إلى شخص أشدّ قوّة ممّا أنا عليه ، ظننتني سأخرج من هذا العالم أشدّ الإناث حنقا وكرها وحقدا ، ظننتني سأتعلّم كيف لا أثق أو أعذر أحدا لكنّني على العكس من ذلك ، تعلّمت أنّ الكره لن يمنحنا السّعادة ولا الرّضا وأنّه لن يؤدّي بنا إلا للتّشتت والضياع والفراغ ..وأنّ البياض وحده من سيضمن لنا تلك السّكينة ... فررت إلى نفسي من سواد العالم لأتعلّم كيف أشبهه ، لأتمكّن من

معايشـته دون أن أجـرح أو أتـأذّى فوجدتنـي أخـرج منـه وبداخـلي قـدر عظيـم مـن النّـور الـذي يكفـي لإنـارة أيّ مـكان أكـون فيـه مـن العـالم وإن بلـغ مـن السّـواد عُتِيًّـا و ذلـك لأنّ القضيـة ليسـت قضيـة سـواد أو بيـاض وإنّمـا القضيـة قضية...إيمـان!!

****

بعد أربع و عشرين سنة بزمن ما لا يقدّر من الأمل !!

" ذات الفتاة بوعي أكبر عند برزخ الأحلام و الواقع ..عند برزخ النّور والظلام !!"

" انتباه ، أعزائنا المسافرين ستحطّ الطائرة في مطار هواري بومدين بعد خمسة عشرة دقيقة ! "

كانت عيناي ثقيلتين من النّعاس عندما سمعت مظيفة الطائرة تكرّر كلّ عشر دقائق موعد هبوط الطائرة . قبل وقت طويل بدأ هواء أرض الوطن يتغلغل إلى أنفي ، هواء جارح ، مالح بطعم البؤس ،لم يمنحني الوطن سوى الآلام و الأحزان ، كيف لا !! و أنا لا أرى في كلّ زاوية منه إلا جثة أمّي المعلقة و قد شنقت على حبل الخيبة ، أمّي التي استغلق على الجميع فهم نفسيتها، أفكارها ، أحلامها ، فبقيت حلما هاربا و طيفا ممزّقا باليا... نزلت من الطائرة وبيدي أحلام أمّي المترنّحة بين مستقبل لم يأت وماض لم تعشه ...كان صعبا عليّ أن أحمل صرخاتها و آهاتها ،أنفاسها المذبوحة، أوهامها المهترئة ، وأحلامها الوردية ..وهذا ما كان يزيد من ثقل روحي النّازفة ... ستكون رؤيتي مفاجأة لهم جميعا فأنا لم أرهم منذ ثلاث سنوات عندما هُجِّرت لإكمال دراستي للّغات في فرنسا غصبا ، نعم - أقول - غصبا ،كيف لا وقد اغتصب أبي مستقبلي الأدبي بحجّة ألا أكون نسخة طبق الأصل عن أمّي ، صورة هشّة ،محطّمة عن عوالم مزيّفة ، غائرة في الخيال المرضي..

و بينا نحن نقاوم ازدحام شوارع العاصمة لم تفارق صورة جثّة أمّي ذاكرتي ، مسحة وجهها الممزّق قبل ثلاث سنوات، صمتها الدائم،ابتسامتها المشتتة ...و كلّ شيء !!

لازلت أذكر جيّدا أيامها الأخيرة ،كانت تشكو كثيرا طنين الذّبابة في رأسها، ما جعل جدّي يصحبها لمشفى العاصمة على عجل ، و لا أحد يعلم لماذا استوقفته فجأة على أحد طرقه العامّة ، و نزلت لتبدأ بالرّقص المصحوب بقهقهات مجنونة ...لحقت بها راجية منها الصّعود إلى السّيارة و أنا أجهش بالبكاء شفقة من حالها...لكنّها نظرت إليّ بعمق ، و كان وجهها منيرا على غير ما قد كان يضفي عليه سواد المرض ، ابتسمت وهي تمسح دمعي ثمّ تضمّني إليها وتهدئ من روعي :

- أنا سعيدة يا روحي، لم البكاء !؟ ، ألا ترين البياض ! إنّه يتفجّر في كلّ مكان ، أنظري هناك...و هناك أيضا ...و هناك و هناك ...لقد بدأ ينسلخ عن العتمة ..

بدأت تصرخ فجأة وقد جعل صوتها يجذب أنظار النّاس الفضوليّة المستغربة ، همست في أذنها وأنا استحلفها بالله وحبّها لي أن تدخل السّيارة .

- أنا لست مجنونة حتى وإن كذّب الجميع ذلك عليك أن تصدقيه !!

خرج جدّي من السّيارة و هو يستشيط غضبا ، جذبها من ذراعها و ألقى بها داخل السّيارة كما يلقى كيس في قمامة . رؤيتها على تلك الحال السّيئة مزّقتني ، حاولت أن أكون قويّة من أجلها لكنّني بالكاد استطعت كبح دموعي...

- أبي شغّل الموسيقى ...أريد أن أحمّم ذرّات روحي.

نظر جدّي إليّ عبر المرآة الأماميّة فأومأت إليه موافقة .عندما شغّل جدّي المذياع ، ارتفع صوت المقرئ بالقرآن ، كان سيغيّره عندما أمسكت بيده في إشارة منها بإبقائه...

...كان ذلك آخر يوم لأمّي في هذا العالم البائس.. دخلت يومها المستشفى وجميعنا نرى فيها جنونا غير معهود... لم تكن قد دخلت بعد لغرفة الفحص عندما خرج جدّي ليشتري لها الشّكولاطة التي رغبت بها فجأة، و كنت قد طلبت منها انتظاري في صالة الجلوس ريثما أقوم بتسجيل اسمها...شدّت على معصمي بقوّة رافضة أن أخلّيها بمفردها ،نفّذت رغبتها و جلست حذاءها على الأريكة... و ضعت رأسها على صدري وهي تشدّ كفّي بقوّة كصبي يستبقي أمّه...

سألتها إن كانت تشعر بالبرد بعدما تحسّست ذراعها وجبهتها... كانت يداها جامدتين بينما رأسها تغلي... كأنّما كان دماغها بأفكاره وأسئلته و أحلامه كقطرات الحمم الأولى و هي تتسابق للخروج من الفوهة ...

- كلا، ولكن تلك الذّبابة لا تكفُّ عن إزعاجي...نجمة حبيبتي أعطني دفتري من الحقيبة أريد أن أكتب...

أخذت الدفتر و كان كبيرا جدّا ، هو مجموعة من الدّفاتر ملصقة بعضها ببعض.. كان ذلك الدّفتر كنز أمّي و بقدر ما كان الفضول لقراءته يقتلني كان وعدي لها بعدم ذلك يلجمني ويكبح فضولي..لم أتوقع قطّ أنّه سيكون أجمل تركة أرثها منها قبل رحيلها.. و بما أنّها عندما تبدأ بالكتابة تنسى كلّ شيء حولها اغتنمت الفرصة و قمت بتسجيلها . عندما عدت كانت قد انتهت من الكتابة...لم تنبس بحرف ، ارتمت مجدّدا على صدري...وصمتت لأكثر من ربع ساعة.. لأسمعها تهمهم بكلمات لم أفهمها بداية ، لكنّها جاءتني واضحة بعد ذلك..

- رشاد ، إنّه الأبيض...ها هو ذا يتفجّر عن العتمة...

- أمّي! ...هل أنت بخير!؟

- أمممممم.. لا تخشي عليّ حبيبتي.. أنا أمتلئ ، ذلك الفراغ بهيكلي ها هو ذا يعبّأ أخيرا بالنّور...البياض أخيرا قضى تماما على العتمة !! لم يتوقّف سيل دموعي،لم أتحرّك ولم أتكلّم...انتظرت أن تهمهم مجدّدا ،أن أستشعر شيئا غير برودة جسدها الملتصق بصدري ، أن ينبض ذلك الشّريان في كفّها القابضة على كفّي ، انتظرت أن أشعر بغليان أفكارها التي سرعان ما بدأت تنطفئ ، احتجت لأن أشعر بها أكثر ،لم أُرِد مثلها أن أستفيق على واقع تلك اللّحظة ، وددت يومها لو أنّ ملك الموت لم يخطئني ليصبها ،كنت قريبة منها حدّ التّوحد، فلماذا اختارها دوني؟ بل لماذا لم يحملنا معًا على توحّدنا ؟ كيف كانت الأقدار قاسية حدّ اجتثاثها منّي بتلك الطريقة...

يومها ولأوّل مرّة أدركت فلسفة البياض والعتمة التي طالما تأصّلت في ذهن أمّي فبموتها تفجّر السّواد في صدري ،وأضحى كلّ شيء معتما...كلّ شيء !!

****

" قد تتغيّر الأشياء التي رحلنا عنها فلا تعود أبدا لما كانت عليه ... وإن عدنا !"

2016/06/01

اتّجهت مباشرة إلى صديقي ، الذي شاركني منفاي عبر الشّبكة العنكبوتية لثلاث سنوات ، صديقي الذي طالما مسح دموع شوقي لأرض الوطن ، ضمّني عند احتياجي وحزني ، نيّمني على صوت تهويداته وأمنياته بغد أفضل عند شعوري بالوحدة ، صديقي الذي رمّم ثقوب المفسدين من قبله وزرع في كلّ حفرة وردة .. طالما سهر يخيط جراحاتي ويمضي بي نحو الأمام كلّما شعرت بالضّعف، قوّاني وأخذ بيدي في طريق التّيه ، إنّه ملاكي الحارس و جندي أرسله الله لي ليُبقي قنديلي مضيئا طيلة الطريق..

أذكر أنّه كان الوحيد الذي أجبت على رسائله عندما وصلت لفرنسا، وهو الوحيد أيضا الذي شاركته بقايا أمّي بحكم أنّه يعشق الأدب عشقي له، غصبه أبوه على الانضمام لسلك الشّرطة بحكم أنّ الجامعة لن توفّر له أيّ مستقبل وأنّه سرعان ما يتحوّل إلى طالب متقاعد خاصة وأنّ معدّله كان متدنّيا في شهادة البكالوريا ، لكنّه ومع الأسف لم يتحمّل الوضع فخرج بعد عام ناله فيه من الضّجر ما ناله و طالته بالمقابل عقوبة الحكومة فلم يستطع مواصلة دراسته وهو الآن مجرّد عامل نجارة بسيط مع عمّي بوبكر.

عندما رأيته من بعيد بدا لي أضخم ممّا كنت أراه في أحاديثنا عبر السّكايب skype ، أوسم بمئزره الأبيض المتّسخ وجبينه المتصبّب عرقا.

23:47

2015/07/22

"تعلمين يا نجمة !!

أمّك لم تخطئ يوما عندما اختارت لك هذا الاسم...أنت القريبة البعيدة فأحيانا أشعر بقبضة قلبي تشدّ عليك قويّا حتى لأخشى عليها خنقك، ترتسمين على كلّ ما يقع عليه بصري وما إن أشرع في نحت صورتك حتى تفرّين من مخيّلتي كأنّك لم تكوني أو تخلقي يوما .. لكأنّي أشتهي نحت صوتك على أحد ألواح الصّنوبر النّديّة ذلك أنّ الحياة لم تمنحني منك أكثر من صوتك !!

...تحدّثت لي كثيرا عن مولانا جلال الدين الرّومي وعن ابن الفارض وحتى عن ابن العربي و الحلاج فعجبت لفتاة مثلك تعيش بين أحضان حضارة مادية تعلقها بالرّوحانيات والتّصوف... قلتِ يوما إنّك تريدين أن تعيشي في قلب رجل كعازف النّاي في ساحة برج إيفل،استبقتِ سؤالي عنه يومها بوصف حيّرني، قلت إنّه يمتّص النّجوم ويذيبها في عمق القلوب ثمّ يلقيها على شكل أقمار وشموس إذ ينبلج النّور من ثغره ،قلت إنّه جعلك تقرئين مذكرة أمّك بطريقة مختلفة ،فقط لأنّه أشعرك بأنّه يعزف حزنها . أخبرتك يومها ولا أدري كيف فعلت أنّني سأعزفك مقطوعة خالدة بشرايين قلبي ،سأقولبه في شكل كلّ الآلات ...و كالعادة لذتِ بالصّمت كما تفعلين كلّما قلت لك ما أعبّر به عن مشاعري ورحت تتظاهرين بالنّوم وأنا أدرك يقينا أنّك ما تزالين مستيقظة أنا الذي أميّز نغمة أنفاسك الهادئة عندما يغتصبك النّعاس منّي ...

و قلت يوما آخر كنت قد غبت فيه عنك بسبب سوء التغطية إنّك اعتدت سماع صوتي قبل النّوم ولمّا يعد بإمكانك الإغفاء دونه كما أنّك

لا تستطيعين الصبر على محادثتي لأكثر من يومين .وهكذا تتّحدثين عنك بصيغة الإفراد، تظنين أنّك الوحيدة التي لا تقدرين على كلّ ذلك وتتناسينني بطريقة تجعلني أتضاءل .تقولين لي قاتل بينما أشجعك أنا بقولي سنقاتل، تقولين لي لا تحزن مجدّدا بينما أقول أنا لن نحزن مجدّدا، تفصلينني عنك حتى في ضمائر اللّغة التي تشاركنا حبّها"

أذكر أنّك قلت في أعمق حواراتنا حول الحبّ أنّك لا تؤمنين بالعشق و إنّك تخشينه لأنّ أمّك صورته في كتاباتها كألذ الشّعور وأشدّه إيلاما وإنّك غير مستعدة قط لتحمّل مسؤولية شعور مثله ، قلت إنّ الحبّ شعور تمارسه الأرواح لا الأجساد ، و بمجرد أن تتقمّصه الأجساد بتقاربها حتى يزول و يندثر .أجبتك يومها بقول الرّومي الذي تعشقين كتاباته ، أخبرتك أنّني لطالما وجدتُّ أنّ أمّك و قد عملت بمقولته " لا تعش دون حبٍّ لتشعر بأنّك ميت بل مت في الحبّ وابق حيا للأبد !!" يومها وكغيرها من الأيام غيّرت الموضوع تماما ، و رحت تتعجّبين من قرائتي للرّومي لأخبرك أنّه " قد حزّ في نفسي أن تتحدّثي عن أشياء لم أطلّع عليها ، فأنا أحبّ أن تضمّ نظرتي نظرتك على نفس الحرف ،ولا أحب أن يسبقني لضمّها أيّ قارئ في العالم و لذلك ألتقط عنوان الكتاب ذاته الذي تقرئين وأبدأ بقراءته ذات اللّحظة !" قلت أنّني بعيد وأنّ بإمكانية أيّ شخص في العالم بل أكثر من شخص أن يقرأ الكتاب في ذات الفترة فتزدحم الأعين بعضها ببعض ، ثمّ ضحكت . فعقبت " ضمّة واحدة تكفي !" فصمتِّ ... و كان كعادته – صمتك- لذيذا وقاتلا !

نجمة .. أنا لا أعدك بشيء ... إلا بأنّني سأحبّك كثيرا ."

– – –

عندما وقفت أمامه لاهثة ، جعل ينظر يمنة ويسرة كمن يفتش عن شيء ضاع منه أو بالأحرى عن شخص آخر يشاركه دهشة رؤيتي أمامه ، لعلّه فكّر بأنّني من ضروب الجنّ و الشّياطين أو حتى الملائكة ، أو لعلّه توقّع أنّني من بنات الخيال أو أيّ شيء آخر إلا أن أكون أنا ..صرخت به و بي رغبة في القفز على ظهره.

- غبي... لم تبحلق بي هكذا و كأنّك رأيت جنّا..

ضحك ملئ شدقيه وهو يحرّك رأسه في نفي ساخرا متهكّما من نفسه و مردّدا بصوت خافت " أو تتوقع أنّني سأصدق أيّها الظلّ المشؤوم أنّك نجمة... "

قالها ثمّ جعل يعود لمنشاره في غير اكتراث لي،اقتربت منه و رفعت يدي للسّماء عاليا وألقيت على ظهره ضربة قويّة...

- هذه لتفرق أيّها الأخرق بين الحقيقة والخيال !!

جعل يتأوّه في مكانه وهو ينظر إليها و قد تاه هذه المرّة على تقاسيم وجهها لم يعرف ماذا يتوجّب عليه أن يفعل !! هل يضمّها إليه كما اشتهى دوما ! يقبّلها! يسلّم عليها ! أم يكتفي بترحيب الأخوي !

وجد نفسه يتحدّث ساخرا ويحرّك يديه عشوائيا في السّماء كأبله:

- هيه عرفت أنّك نجمة لكنّني كنت أحاول تذكّر اسم الجنّي الذي تشبهينه هههه !

نظرت إلى كفّه التي مدّها مستغربة و ضاحكة ذات الوقت من مقدرته وسرعته الرّهيبة على تصنّع المزاح الذي لا تكلّف نفسها التّغنج في ادّعاء الغضب بعده ، شدّت يده مصافحة و أرادت أن تطول تلك اللّحظة لتستشعر وجوده شحما ولحما كما تستشعرها دائما روحا و طيفا لكنّه

و في عجالـة أفلـت يـده...

وبقي بعض من حديث النّفس يدور بداخل كلّ منهما :

- " أردت أن أفاجئـك لكـنّ المفاجـأة عـلى مـا يبـدو مـن وجهـك المتقـع لم تكـن قـطُّ سـارّة... أيـن اختفـى كلّ ذلـك التّحـرق و كلّ ذلـك الحـبّ الـذي حملتـه آخـر رسـالة .. أتـراك نسـيت كلّ شيء أم أنّـك كتبتهـا و أنـت مخمـور .. تبّـا لي ولحماقتـي كيـف لي أن أصـدّق خرافاتـه و هـو شـبه نائـم !"

- "لمـاذا أكـون أوّل مـن تـزوره بعـد كلّ تلـك الصّـدود التـي واجهتنـي بهـا ، أيعقـل أنّهـا اكتشـفت فجـأة أنّهـا تحمـل لي في قلبهـا نوعـا خاصًّـا مـن المشـاعر... مسـتحيل !!"

- "لمـاذا أنـت صامـت إلى هـذا الحـدّ .. مضـت ربـع سـاعة و بالـكاد نطقـت بحـرف "

مشـينا نحـو محطـة الحافلـة اعتـذر عـن البقـاء وإيـاي لظـروف عملـه و لا أدري لمـاذا اجتمـع الدّمـع بعينـي وشـعرت بغصّـة أليمـة في حلقـي ، ظننتنـا سـنبقى معًـا بعـض الوقـت ، ظننتنـا سـندردش بـإسراف في المفيـد والتّافـه كـما فعلنـا دائمـا لكـن هاهـو ذا يسـتعجل التّخلـص منّـي وبالـكاد اطـمأنّ عـلى وصـولي بخـير.

- إلى أين الجهة بيتكم أم بيت جدّتك !

- جدّتي ..طبعا.

- حسـنا .. ارتاحـي قليـلا مـن السّـفر و سـيكون لنـا متسّـع مـن الوقـت لنتحـدث .. أتّصـل بـك مسـاء.

" أومـأتْ بإشـارة مـن رأسـها وغـادرت ،لم أشـعر بالاشـمئزاز مـن تصرّفـاتي التّافهـة و ردة فعـلي البـاردة ، لأنّهـا كانـت حسـب رأيـي صائبـة وهـذا مـا خفّـف مـن احتقـان تفاحـة آدم بحلقـي.."

شـعرت بالعـالم يشـدّ عـلى يـدي كي لا أطـرق البـاب ، اعـتراني خـوف رهيـب فلوهلـة ظننتنـي سـألمح شـبح أمّـي خلفـه وخالتـي رشـاد عـلى رأس جـدّي و جـدّتي وهـم يتبادلـون أطـراف الحديـث أو أمّـي عـلى سريرهـا وعـلى حجرهـا حاسـوبها و أناملهـا تداعـب لـوح المفاتيح...كـما لم أكن قطُّ مسـتعدّة لاسـتقبال جـدّتي بذلـك الوجـه المتقـع ، اسـتقبال عمـر البـارد لي جعـل كلّ شيء جميـل يضمحّـل قبالتـي ، أنـا أصـلا مـا جئـت مـن هنـاك إلا مـن أجلـه و جـدّاي ، فكيـف يعاملنـي هكـذا ..غبـي ..تافـه ..أكرهـه!!

كنـت سـأهم بطـرق البـاب عندمـا فتـح فلاحـت مـن خلفـه جـدّتي بـكلّ ألقهـا ، مـا تـزال عـلى عهـدي بهـا ،شـعرت بشـعر مسـامها يقـف مـن شـدّة الدّهشـة ،وأصمّنـي صوتهـا المبتهـج المرتفـع وهـي تتنـاول رأسي إلى صدرهـا وتمسـح عليهـا ثـمّ تقبّلنـي عشـوائيا في كلّ الأماكـن مـن وجهـي و رأسي، حتـى كتفـاي ! اجتمـع بـكاء شـوقي لهـا ببـكاء حنقـي عـلى عمـر ، سـألت عـن حـالي و بالـكاد اسـتطعت أن أجيـب لأنّهـا _ ودون انتبـاه _كادت تخنقنـي وهـي تضمّنـي.

- من بالباب يا سامية !! ؟
- هذه نجمة يا أمين ، لقد عادت نجمة ...

هرعـت إلى جـدّي ، ألقيـت بنفـسي بـين ذراعيـه و بحـرارة الشّـوق المنـدسّ بصـدري سـلمت عليـه و عانقتـه عناقـا طويـلا وحـارا .

في صالـة الجلـوس تحدّثنـا عـن كيفيـة قدومـي و أسـبابها ، بينـما أتأمّـل

وجوههم بغير عيون الماضي !وكأنّما يحوّل الشّوق الأشخاص الذين نحبهم أشخاصا آخرين عند البعد ، لا الوجوه نفسها و لا الملامح و لا حتّى الأرواح!!

بعد العصر و نحن نتساعد على تحضير العشاء وجدّي بيننا في المطبخ سألت جدّتي عمّا إذا كانت أختي كوثر تساعدها على أشغال المنزل فقد كان كما تركته عند سفري بنفس طريقة ترتيبي أمّي له ، لكنّها نفت ذلك كليّة قائلة..

" هيه! هي لا تأتي إلا قليلا وإذا حضرت تساعدني في أبسط الأشغال وأسهلها ثمّ تغادر .. لكنّ خالتك رشاد تزورنا بين الفينة و الأخرى و تساعدني على تنظيفه "

قالتها وهي ترمق جدّي نظرات مريبة استدركها بابتسامة ساخرة ثم انسلّ بعدها بقليل من المطبخ بينما ضممتها إلى صدري مطمئنة إيّاها بأنّني هنا وليس عليها أن تحمل همّ أيّ شغل بعد الآن .

كان جدّي قد عاد بوجه غير الذي ذهب به وكان قد سمع العبارة الأخيرة التي قلتها فتبادلا نظرات ذات مغزى ، نظرات كأنّما لم أفهم مغزاها أو فهمته..و ألقت جدّتي بعض فحواها بصوت خفيض:

- ألن تمكثي ببيت أبيك!

تظاهرت بعدم التّأثر بما قالته فواصلت قائلة "طبعا ..سأذهب " و أضفت بصوت أخفت "لكنّني ن أقطن هناك على الأرجح ! " ربّما كنت أكثر فتاة محظوظة في العالم لأنّني أملك أمّين ، أمّ ربتني و أمّ ولدتني أحلام أمّي التي ربّتني لا تشبه أمّي البيولوجية في شيء إلا في

الكلمة التي وهبها الله إيّاها كونها ولدتني ، منذ صغري تربيّت في بيت آل كامل ، لا أذكر القصّة جيّدا ولا أمّي كتبت عنها لكنّ الجميع يقول إنّني ابنة لحظة لا أمّي و لا أبي أرادها أو خطّطا لها ...كما لم يخطّطا لغيره لاحقا عندما التقاها أبي صدفة عند بيت جدّي أمين و هو على وشك خطبة أمّي أحلام التي رفضته دونما سبب وجيه هي الأخرى كبقية خاطبيها.. و لأنّهما أنجباني قبل زواجهما وأنجبا بعد عام آخر أختي كوثر ساعدت أمّي أحلام عائشة في تربيتي و الباقي أذكره جيّدا ، حبّي لها لم يكن بسبب حنوّها و لا بسبب طيبة قلبها بل كان بسبب ما كانت تسميه بالخيط أو الرّابط الربّاني الذي يصل الأرواح بعضها ببعض .

بعد العشاء ... و غسل الصّحون ترصدتني جدّتي أجرّ حقيبتي في الرّواق...

- إلى أين! ؟
- غرفة أمّي ...(أجبت بهدوء وحزن لا رغبة لي بإظهاره)

لمحت تغيّرا على قسمات وجهها ، اعتراها الحزن لتنزل دموعها حرّى على خدّيها ، ألقيت بالحقيبة في مكاني واتجهت نحوها وقلت وأنا أضمّها بقوّة إلى صدري:

- أمممم جدّتي!! ليس الآن .. لا داعي للبكاء..

-لكنّ غرفتها لم تنظف منذ مدّة..ما رأيك بالمبيت اللّيلة في غرفة الضّيافة.. زاد نشيجها و هي تمسح دموعها بطرف كمّ جبّتها...طمأنتها بأنّ ذلك لن يضرّني في شيء و لكنّها أصرّت إصرارا شديدا جعلني أستسلم على شدّة رغبتي في المبيت هناك ..

قمت بجرّ الحقيبة إلى غرفة الضيوف هذه المرّة وبسأم وضعتها على

السّرير وأخرجت النّسخة اليدوية التي باشرت بتدوينها عن حياة أمي... الغرفة ما تزال على آخر عهدي بها قبل أربع سنوات وكان باديا أنّ جدّتي تعتني بها جيدا فحتى لوحة السّيد عبد المنعم ما تزال في مكانها على المكتب بعدما أخرجتها أمّي من غرفتها دونما سبب ذات صباح . قمت نحوها وأنا أتذكّر ما روته أمّي عن ألوانها ومدى تناسقها ، قصته الحزينة ، فابتدرتني دمعة..

في تلك اللّحظة رنّ هاتفي، قفزت بسرعة على السرير وقد كان فوقه وأنا متأكّدة من أنّ المتّصل عمر لأباغت برقم أبي...و أدرك دونما عناء أنّ مضيّفتي سليطة اللّسان في فرنسا قد أطلعته على عودتي هي التي كانت مذيعة أدّق أخباري بعدما قطعت الحديث معه إلا في شأن المصاريف !! ثرثر كثيرا و صرخ أكثر ، وبّخني لأنّني لم أخبره و استفسر عن عدم عودتي للمنزل وبالكاد فتحت فمي بغير "نعم.. لا..منزل جدّتي كان قريبا من المحطة" ربما انتظر أن أتأسّف و أعبّر عن شوقي و ربّما انتظرت أنا أن يقول إنّه في طريقه إليّ لكنّه أغلق الخط بعد جملة باردة منغلقة إلا عن معنى واحد "حسنا.. سنأتي لاصطحابك غدا "

تمددت على السّرير فرأسي الثّقيلة بالكاد كانت ستتحمّل عناء همّ ذلك التّعامل البارد فمنذ التّاسعة و النّصف وأنا أحاول الهروب من موقفي وعمر وانتظر على أحرّ من الجمر اتّصاله الموعود . خفت أن أنام فرحت انشغل بالقراءة ، لأجدني أغفو وقد تداخلت الحروف والكلمات ببعضها حتى لتصير كخط واحد غليظ وأسود ، قمت..غسلت وجهي ورحت أمارس بعض الحركات الرياضيّة كالبلهاء كي لا يتغلّب عليّ النّعاس

لأباغـت بفمـي وقـد فـرج إلى أقصـاه عـن تثـاؤب الإرهـاق مـرّات عديـدة... أزمعـت عـدم النّظـر إلى السّـاعة و بينـما أخاتـل عقاربهـا أجـدني و لا إراديـا أعـدّ دقـات عقـرب الثّـاوني في رأسي ..

رنّ منبّـه جـدّي مـن غرفتـه منبّهـا عـلى دخـول السّـاعة الواحـدة ، في حنـق شـتمته و بغضـب ودعـوت عليـه بـكلّ دعـاء شرّ أحفظـه .أطفـأت هاتفـي غاضبـة كي لا يتمكّـن مـن التّواصـل وإيـاي و تغطّيت...قمـت بعـد برهـة ، فتحتـه و فعّلتـه عـلى الصّامـت وتغطّيـت ...لأقـوم ثالثـة وأنـا ألعنـه في زفـرات متتابعـة " تبًّـا كـم أكرهـك ، فلتذهـب إلى الجحيـم ، لمـاذا أخبرتنـي بأنّـك سـتتصّل بي إن كنـت لـن تفعـل " كنـت سـأفتح حسـابي عـلى الفايسـبوك عندمـا تذكّـرت أنّنـي تحايلـت بعـدم فتحـه كي يتّصـل بي أم تـراه ظـنّ بذلـك أنّنـي منشـغلة !! فعّلـت الهاتـف مـرّة أخـرى عـلى الوضـع العـام هـذه المـرّة، تأكّـدت مـن رفـع الصّـوت و قـد أزمعـت عـلى النّـوم...

في المنـام تحدّثنـا مطـوّلا ، عنّفتـه كثـيرا ، أغلقـت الخـطّ في وجهـه صارخـة ، تشـاجرنا، صالحنـي ، ضممتـه عندمـا التقينـا ، قبّلتـه ، اعـترف لي بحبّه..وعندما اسـتيقظت كان أول مـا فعلتـه هـو تفقّـد هاتفـي لربّمـا اتّصـل ولم أسـمعه ...صنـدوق الاتّصـالات فـارغ !! وكذلـك صنـدوق الرّسـائل !!... الوغد..الحقـير.. المتعجرف..الأبلـه.. عليـه اللّعنـة !! قلـت باسـتغراب وقـد رميـت الهاتـف و ارتميـت مجـدّدا عـلى سريـري ...و أنـا أضـع يـدي عـلى خـدّي كـما وصفـت أمّـي أنّهـا كانـت تفعـل و بقيـت أتأمّـل اللّوحـة " أعتقـد أنّ الفـنّ دسـتور المشـاعر و التّجـارب البشريـة فـما حملتـه هـذه اللّوحـة مـن أجـل أمّـي قبـل أربـع وعشريـن سـنة هـو نفسـه مـا تحملـه مـن أجـلي اليـوم ."

****

"اسمح لنفسك بالانجراف بصمت وبقوّة صوب ما تحب!!"

جلال الدين الرّومي

كثيرا ما تضطرنا أتفه التّصرفات و الظروف لاتّخاذ أكبر القرارات و أعمقها أثرا على حياتنا ، فأنا لم أتوقع أبدا أن تصرّف عمر يوم التقينا سيجعلني أقطع صلتي به ، ولا أن يقنعني أبي ببساطة بالعودة إلى المنزل بعد أسبوع أقضيه عند جدّتي .

العيش عند جدّتي أكثر حرية ،لم يكن هناك من يراقب تصرّفاتي ولا من يفتّش في أشيائي ويتدخّل في خصوصياتي أمّا هنا فلا تكفّ أختي كوثر عن العبث بثيابي ودفاتري و لا أدري عدد المرّات التي تشاجرنا فيها لحد السّاعة أقصد بعد الأيام الأربعة التي أقمت بها هنا بسبب أتفه الأمور وأبسطها .

آخرها كان يوم فتحت دفتري الخاص ، لم أتحمّل فكرة أن تمسَّ يد غير يداي دفتر أمّي لذلك صفعتها بقوّة أمام الجميع لتدخّل عائشة و تردّ الصّاع لي ثمّ تباشر بوعظها الذي كنت في غنى عنه ، أصرّت على أن التّسامح واجب بين الإخوة وأنّ علينا أن نتصالح ، لكنّني أصررت على أنهّا المخطئة و كذلك فعلت فلم نتصالح و أنّها ليست أختي ولا هي بتلك العظات ستكون أمّي ! شعرت بكفّ يستقّر على وجهي تلته جملة ما يزال صداها يتكرّر في رأسي :

"كلّه بسببي لو أنّني وضعت لتلك المريضة حدّا قبل سنوات ما كانت

الأمور لتصل إلى ما هي عليه اليوم !"

حذّرتها بنبرة غاضبة و هدّدتها أنّني سأغادر المنزل إن هي تجرّأت على نعت أمّي بالمريضة مجدّدا لكنّني لم أفهم قطّ كيف كانت لتضع لها حدّا !!

لم تكتب أمّي إلا آخر ما كتبته في المشفى منذ زواج عائشة و والدي كما لم تنشر رواية " برزخ الرّوح " رغم أنّها كانت قد أكملتها قبل تسع عشرة سنة ولحدّ السّاعة أجهل السّبب !!

لملمت غضبي وعدت أدراجي للغرفة ،كان الوقت مناسبا لأغادر المنزل للأبد بعد كفّين طاعنا السّن على وجهي لكنّ شيئا بداخلي كان يصرّ عليّ كي أبقى .

- أبي!
- نجمة! تفضلي ادخلي!

- "ستخبره بأنّك ضربتها ، استعدي للشّجار. " قالت كوثر
- لتفعل.
- أووووه .. لماذا تفعل هي ما يحلو لها.
- اغربي عن وجهي .
- لكن..
- فورا...

في الرّواق لمحت أمّي وهي تلحق بي لتتنصّت على حديث أبي و نجمة. استغربت كيف أنّ أمّي تخشى تصرّفاتها و ردّات فعلها وتراقب أدقّ حركاتها

- سأخرج رواية أمّي إلى النّور! أردت إطلاعك على الأمر.

- لن يفهمها أحد على كلّ حال..مجرّد خربشات !

أدهشتني الثّقة التي تحدّث بها والدي ،لم يعقب ولم يغضب ،رغم أنّه كان يكره ما أقحمتني فيه أمّي أحلام من ولعي بالأدب و التّصوّف ومن ثمّ انشغالي بالتهام الكتب فالانطواء و العزلة.

- ليس إن أضفت عليها!!

لمحت ملامحه تتحوّل إلى الجدّية ، وضع كوب قهوته وجريدته على الطاولة الصغيرة أمامه ثم عدّل نظارته و تابع كلامي بانتباه.

- سأضيف بعضا من مذكّراتها..

- أعتقد أنّك جننت! هل خرب عقلك !كيف ستنشرين ما كتبته تلك المريضة !

فزعت و أبي من اقتحام عائشة للغرفة و تهجّمها عليّ وقد بدا أنّها كانت تتسمّع على حديثنا ..

- هذه المسألة بيني و بين أبي و ليس لك أيّ دخل فيها! لا أفهم لماذا تحشرين أنفك في كلّ الأمور الخاصة بي !كما حذّرتك ألف مرّة أن بألّا تنعتي أمّي بالمريضة .

- لا يكتب ذلك الكلام إلا مريض! بل شخص مختلٌ عقليا أيضا !

- عائشة!!

صرخ أبي في وجهها فأطرقت برهة لتضيف:

- لا أفهم لماذا تحمّلنا بعدها عنّا لأكثر من ثلاث سنين إن كانت ستعود بنفس الأفكار التي تعلّمتها جيّدا من تلك ال....

لم تكملها لحسن حظّها وربما ...لحسن حظّي !

نشب بينهما مشادّة طويلة بالكلام و حتى أنا لم أفهم سببها و بعد علوّ صوتهما هرعت كوثر و لحق بها جدّي محمّد الذي كان واضحا من تعابير وجهه أنّه قد فهم ما يدور بينهما ..تمنيت أن لا يستطيع إسكاتهما لأفهم الموضوع أكثر لكنّهما هدءا لمجرد تلميح منه .

ماذا يخفيان عنّي !! ما الذي حدث في حياة أمّي و تضير بي معرفته بعد موتها !!

و أنا أعود لإحضار الماء من المطبخ سمعت جدّي محمّد يحدّث والداي، كان يحذّرهما و بنبرة صارمة أنّهما سيخسرانني للأبد إن هما واصلا على هذا النّحو من الشّجار..و أنّه يجب عليهم أن يجدوا حلا وحجّة مناسبة بدلا من الصّراخ..ثمّ خرج ليفاجأ بي عند الباب بوجهه الهادئ الشّامخ وجسده المسنّ المتعب ، بدا في عينيه كمن يخفي سرّا و لكنّ ملامحه السّاكنة و ابتسامته البريئة ابتلعت كلّ ردود فعله.

لم أتحمّل كل ما جرى تلك اللّيلة.. لذلك بكيت كثيرا قبل أن أقرّر الاتّصال بعمر.

– – –

لا أصعب من أن تكون شخصا لا تعرفه في أشدّ المواقف حاجة لك ، تتقمّص تصرّفات شخصية لا تشبهك بطريقة متقنة يصعب معها أن تفضح وإن من أقرب النّاس وأعرفهم بك .كذلك كنت في لقائي و عمر أو كذلك كنّا ، على كبريائي لم يكن لدي خياران إذما قررت مقابلته أو محادثته مواسية نفسي بأشهر جمل أمّي " لسنا مضطرين للتّوغل في كبريائنا إذا كان هناك من هم على استعداد دائم لاحتوائنا "

لم يبد على ملامحه شيء من الشّوق أو الفرح و لا على ملامحي كما لم يكن باديا أنّ لقائنا هذا جاء بعد غياب أسبوعين من لقاء عشرين

دقيقة من غياب ثلاث سنوات !! و كأنّنا رغم الجفاء والكبرياء و ما يدور في خفاء كلّ منّا... لم نفترق!!

سلمته الرّواية واليوميات على ما اتفقنا و بينما كان يقلّب صفحاتها كنت أقلّب صفحات السّنوات الثّلاث و كلمات رسالته الأخيرة و الوحيدة على ملامحه ، و سؤال واحد يستغرق دماغي.. ماذا فعلت به حتى قتلت فيه الحياة!!

أدرك جيّدا أنّك لست بخير ، فكبرياؤك يمنعك عنّي إلا في حاجاتك القصوى لكتف تتكّئين عليه ، أعلم أنّك الآن محتاجة كي أعود إلى سالف عهدي لكنّني لا أجد طريقة إلى ذلك ، أشعر أنّني فارس أخرق ألقي عليه القبض من طرف العدوّ قبل أن يبدأ المعركة أصلا فعرّي من سلاحه ولباسه و أوثق يتلظّى تحت الشّمس !! و لكنّني على ذلك أعلم أنّك ستكونين بخير.. فالفتاة التي واجهت وحدة رياح الغربة بمفردها لقادرة على مواجهة أي نوع كان من المشاكل !

- هل لاحظت هذا! يبدو أن أمّك مزّقت بعض الأوراق هنا .

جاءتني جملته كصاعقة ارتعدت و أنا أخرج من أعماقه إليها و استغربت من عدم ملاحظتي للأوراق الممزّقة آخر يوميات أمّي مع أنّني قرأتها مرارا .. لكن لماذا مزّقت أمّي هذه الصّفحات أكان هناك ما أرادت إخفاءه عنّي !! أم أنّ أحدا غيرها فعل كما نبّهني عمر !!

****

"عيناك حلم لا يجيء ..وفي كلّ حلمٍ أرممُّ حلما و أحلم !!"

محمود درويش

عـلى صـورة الأوراق الممزّقـة مـن يوميـات أمّـي والعديـد مـن علامـات الاسـتفهام قـرّرت زيـارة جـدّتي ذلـك المسـاء وفي قلبـي يقـين أنّـه وإن ملـك الجميـع إجابـات عـلى أسـئلتي فجـدتي هـي الوحيـدة التـي أسـتطيع أن أجعـل لسـانها ينزلـق بهـا ..

كأنّمـا واثقـة أو خيّـل لي أنّنـي رأيـت شـبحا خلـف بـاب المطبـخ عندمـا فتحـت جـدّتي البـاب ، شـبح رمقنـي بعينـين متأمّلتـين ثـمّ اختفـى وسرعـان مـا نفيـت الفكـرة و أرجعـت سـبب ذلـك إلى الأرق الـذي أعـاني منـه هـذه الأيـام..و سـدى كنـت أختلـق القصـص و الأحاديـث و أذهـب بجـدتي كلّ مذهـب في تذكيرهـا بالمـاضي..إذ أنّهـا بالـكاد تعـرف شـيئا حـول مذكّـرات و مدوّنـات أمّي.. لعـدت مـن عندهـا يومهـا و في قلبـي يقـين بأنّـه لم يعـد عـلى هـذه الأرض مـا يسـتحقّ الحيـاة فـلا شيء هنـا يشـبهني ، أشـعر أنّنـي لا أنتمـي إلى هـذا المـكان منـذ عـودتي و كأنّمـا ينقصنـي جـزء كبـير مـن روحـي أمّـا عـن الانتـماء فكيـف أنتمـي إلى عائلـة أو بلـد أنـا التـي إلى نفـسي لا أنتمـي .

بـدا و كأنّ سـقف الغرفـة غـير منتـهٍ أو قابـل للتّحطيـم و لا فائـدة مـن هـذه الجـدران غـير منـع الشّـمس مـن التّغلغـل إلى داخلهـا ، سرير و لحاف ووسـادة و الكثـير مـن الكتـب المتكوّمـة عـلى بعضهـا البعـض فقـد اشـتريت الكثـير منـذ عـودتي قبـل شـهر ، ربّمـا للاسـتفادة مـن أسـلوبها وربّمـا لأقـارن بينهـا و بـين مـا

كتبته أمّي و بالكاد فتحت اثنين أو ثلاثة منها فمنذ أسبوع و أنا معتكفة في غرفتي لا أخرج منها إلا لتناول الطعام أو استخدام الحمام ..وصورة الشّبح لا تفارقني..

كذلك يشبه هذا الصباح الصّباحات السّابقة ،فراغ مستفحل و أبواب منفتحة على السّآمة ، قبل سفري ظننتني سأعود إلى عالم مليء بالحبّ حيث كانت و ما تزال أمّي تتنفّس ، ظننتني سأعيش قصّة مختلفة عن قصّتها أنا التي منعت نفسي من التّعلق بأيّ رجل قبل أن يخطو هو الخطوة الأولى ، لذلك و عندما حاول عمر مرارا أن يفتح بابا على قلبي و يجعلني أثق بعظم هذا الشّعور و أشرع له أبوابي صددته ، أبعدته عنّي و قاومته ..و الآن أندم ، أندم على كلّ لحظة كان فيها متاحا و قريبا لحدّ أن تلامس روحه روحي فصمتُّ و توجستُّ.. ثمّ ابتعدتُّ .

إنّها العاشرة صباحا و لمّا أقم من فراشي بعد ... أقاوم النّور باللّحاف وربّما أقاوم النّظر إلى لوحة عبد المنعم التي دفعت ثمنها دمعا لتسمح لي جدتي باصطحابها معي لبيتنا . قبل أسبوع كنت أرى فيها يد أمّي و معشوقها فأتأملّها بحبّ أمّا اليوم فأرى فيها يد عمر و يديَّ المرتبكتين إذ تلثم الواحدة الأخرى لأوّل مرّة و آخرها على الأغلب.. فأحزن!! فهمت من القدر تفريقه لاثنين يحبّ واحد منهما دون الآخر .. لكن...أن يفرّق بين اثنين أحبّا بعضهما ..فهذا ما لم أفهمه يوما !!

ما يزال له في قلبي الكثير من الحديث أودّ الاعتراف له بأنّني فتاة لا تجيد الحبّ كما لا تجيد البكاء و أنّني أنثى مصقولة من كبرياء أرعن ، لا تعرف كيف تقول جملة واحدة دون أن تتلعثم .. كنت سأعترف له

بـكلّ ذلـك وأكـثر لـو أنّـه منحنـي الوقـت الـكافي لاسـترجاع أنفـاسي لكنّـه كان سريعـا جـدّا في تعليمـي كلّ شيء دفعـة واحـدة والغريـب أنّنـي اسـتوعبته عـلى سرعتـه و تدفقـه..

كان ذلـك قبـل أسـبوع حيـث و لأوّل مـرّة نلتقـي دون موعـد ، أقصـد دون أن أختلـق موعـدا لسـبب مزعـوم .. لأوّل مـرّة يحـدث مـا عشـقته أمّـي لكـن ليسـت كلّ أوّل صدفـة جميلـة فبعـض أولى الصّـدف جارحـة ، جارحـة جـدّا و مؤلمة..مـرّ بجانبـي ابتسـمت و رفعـت يـدي لألـوّح فأسـلّم و لأتّمنـى ذات اللّحظـة لـو أنّنـي خلقـت بـلا ذراع .. لـو أنّني لم أُجد الابتسـامة يومـا .. لو أنّني لم أتعلّـم كيـف ألـوّح للذيـن أعرفهـم.. ولـو أنّنـي لم ألتـق بهـذا الرّجـل أبـدا.. لم تتجمّـد ذراعـي في الهـواء كـما في الأفـلام و لم أتعـرّف عـلى تلـك التـي بجانبـه و قـدر الأهميـة التـي تحوزهـا في نفسـه ليتجاهلنـي بتلـك الطريقـة لكنّنـي كابـرت الاسـتياء بداخـلي و حاولـت أن أتماسـك ، أن لا أعـط الموقـف أكـثر مـمّا يسـتحق و أن أواصـل السّـير كأنّ شـيئا لم يكـن..

قليـلا للأمـام و عنـد أوّل كـرسيّ ارتميـت .. و بكيـت ، بكيـت بحرقـة و قـوّة لم أبـك مثلهـا إلا حـين أشـتاق لأمّـي ، بكيـت مطـوّلا أنـا التـي لم أبـك يومـا غيرها..بكيـت لأنّنـي لأوّل مـرّة شـعرت بنفـس الاسـتياء ..بنفـس الفقد..بنفـس الفـراغ !! فكأنّمـا اسـتأصل أحدهـم قلبـي بيديـه مـن صـدري فخلّـف مكانـه خاليـا ..ضغطـت عليـه ورحـت أضرب مكانـه عـسى يتوقّـف عـن إيلامـي ..لكنّه كذلـك بقـي وكذلـك بقيـت ولم أخـرج مـن غمّـي إلا عـلى هيـكل جسـده وقـد عـاد أدراجـه و جلـس بمحـاذاتي عـلى الكـرسي ..كفكفـت دمعـي و لم أنتظـر أن يـبرّر لأنّنـي أدرك أنّـه لـن يفعـل ..أعرفـه جيّـدا و أعـرف كـم هـو قـاس رغـم

رخاوته ، قال بصوت جبليٍّ شامخ وكمن يصل كلامه بحديث منقطع :

- اتّصلوا بي من دار النّشر هذا الصّباح..

- ..هيه !!

فهمت من ملامح وجهه ما أخبروه به فانحنيت حزنا على ضياع جهد و حلم آخر ..أطرق قليلا ثمّ قال وهو يتأمّل الفراغ بينما ألاحق شفتيه :

- الرّواية حسب قراءتهم ساذجة و لا تصلح للمجازفة بنشرها..لكنّهم ..

- ...لكنّهم ماذا ؟

- ..طبعا ..سيسرّون بنشرها هههه !!..يا إلهي تجمّد الدّم في عروقك هههه !!

وقفت من مكاني و أنا أصرخ من فرط السّعادة بعدما لمحت ابتسامته الخبيثة وهو يحاول اللّعب على أعصابي ككلّ مرّة بمزاحه ..نسيت ما حدث قبل لحظات و كأنّه قطُّ لم يحدث ، نسيت الفتاة التي كانت تتأبّط ذراعه ، نسيت ذراعي المعلّقة بالهواء و بكيت لثاني مرّة ، بكيت لفرط الفرح والسّعادة ..كان قد وقف هو الآخر و قد افترّ ثغره عن ابتسامة ، شددت عضده ورحت أهزّه كالمجنونة وأنا أطلب منه أن يؤكّد لي ، أومأ إيجابا فضممته بقوّة و ضغطت عليه حتى لظننت أنّني سأعصره بين ذراعي لفرط الفرح..

لم أشعر بأنّني في غير مكاني و لا على صدر رجل غير رجلي بل كأنّما عرف الجسد موضعه من الجسد لما عرفت الرّوح موضعها من الرّوح ..و بعد عناق قصير وشعور ضخم كبير ..ابتعدت.. وضعت يده بين يدي ..و تكلّمت دون انقطاع :

- هـذا يعنـي أنّ روايـة أمّـي سـتخرج إلى النّـور و سـيتحقّق حلمهـا و سـيقرأها الجميـع .

- هههه ...إييه !!

- ستضمّ حروفها بين دفّتين وستسافر عبر كلّ الولايات و ســـــ ...

أومـأ باسـما مجـدّدا لتتحـوّل ابتسـامته لضحكـة فقهقهـة و هـو يـرى فـرط انفعـالي .

و لم أنتبـه إلا عندمـا عـدت للمنـزل أنّنـي لم أسـأله عـن سـبب تجاهلـه لي ولا عـن هويّـة الفتـاة التـي مـن أجلهـا فعـل وتمامـا كـما أعـرف أنّـه لـن يخـبرني يعـرف أنّنـي لـن أسـأل لا لأنّنـي لا أهتـم بـل لأنّنـي أؤمـن أنّ من يحبّنـا بعمق لـن يـترك في قلوبنـا مجـالا للشّـك وسـيبرّر حتـى وإن لم يـرق الأمـر للشّـك.

في المسـاء دردشـنا عـلى الفايسـبوك ، تحدّثنـا كثـيرا إلى أن نمـت وأنا..أبـكي الحـبّ لأوّل مـرّة ..وأذوق لـذّة العشـق و مـرّارة دموعـه!!

في اليـوم التّـالي وربمـا صدفـة أيضـا التقيـت أختـه لتخـبرني أنّـه كان وقبـل عـودتي قـد تقـدّم لخطبـة ابنـة العـمّ بوبكـر..و مـن يومهـا لليـوم و أنـا نائمـة!!

و حتـى وإن اسـتيقظت لاحقـا فلـن يكـون إلا لأعـود إلى النّـوم و لا أدري اليـوم أألومـه لأنّـه لم يتمسّـك بي أم ألـوم نفـسي لأنّنـي صددتـه كثـيرا مـن قبـل !! أم ألـوم العشـق !! العشـق الـذي لا يـأتي إلّا مـرّا !!

رنّ هاتفـي وكان المتّصـل إيلـين مـن فرنسـا لم نطـل لأنّهـا بـدت منشـغلة .

شرعـت مبـاشرة في مباركتـي وتهنئتـي فاسـتغربت سـبب ذلـك لتضيـف بعـد اسـتفهامي :

- ألم تطّلعي على الإيمايل !

وقتها فقط تذكّرت أنّ لي حسابا على الإيمايل و أنّني لم أفتحه منذ عودتي ، فوجئت برسالة تهنئة على قبول طلب مواصلة دراستي العليا و ضحكت في ذات الوقت من كمّ المفاجآت المفرحة و المحزنة التي انهالت عليّ في أسبوع واحد...وعجبت كيف تأتي الأمور التي نهملها ولا نحسب لها حسابا على أطباق من فضّة بينما يعذّبنا ما نصبُّ عليه كلّ اهتمامنا و طاقاتنا ..و نصبوا إليه بكلّ جهدنا!

****

" لا يجتمع الحبّ والكره إلا في قلب العاشق !!"

دقّت الحادية عشر فدخلت كوثر في قمّة السّعادة لأنّ يوم الغد سيكون يوم سعدها حيث سيتقدّم أحدهم لخطبتها ،لم نتحدّث كثيرا حوله و لم أسأل كعادتي خاصّة و أنّني تيقّنت أنّه لن يكون غير الشّاب الذي رأيتها معه في إحدى خرجاتي..

توسّلت منّي مرافقتها لاقتناء ما يليق بالمناسبة فوجدتني أتجهّز للخروج و أفكّر ذات الوقت في شبهي بها الّذي لم أنتبه إليه حتى الآن . منذ عودتي و أنا منطوية على نفسي ، اعتزلت الجميع و تكوّرت على روحي مكتفية بمراقبة الأحداث عن بعد ..

كان حديثنا مقتضبا على قلّته..فمن أين يأتي الحديث و ميولاتنا وأذواقنا و أذواقنا قطبان لا يلتقيان في شيء .. في أحد الأروقة صادفنا ذات الشّاب لست متأكّدة أنّه لاحقنا منذ خروجنا من المنزل لكنّني بعد اللّحاق بنا ما تبقى من التّسوق تثبتُّ أنّه فعل ، في أحد المحلات تأخّرت عنها عمدا ليتمكّن من الخلوّ بها ..لأباغت بها تصرخ في وجهه :

- ألا تفهم .. ما بيننا قد انتهى ..كفّ عن اللّحاق بي من محلّ لآخر .

و أظنّها كانت الصّدمة الرّابعة لهذا الأسبوع ..بين رغبة في التّدخل وأخرى في التّراجع تراجعت و لم أكن بحال من الأحوال أرغب في الوقوف في وجه القدر مجدّدا خاصّة وأنّ علاقتي بكوثر مرتبكة.. و على معرفتي بأنّ صمتي في هذا الموقف خاطئ صمتُّ!!

سألتها عن هويته و نحن نخرج كاللّصوص فرارا منه و لم تخف عليّ

شعلة الحقد التي كانت تقدح شررا و دمعا بعينيها ، فلا يجتمع الحبّ والكره إلا في قلب العاشق !!

وكما توقعت لم تنبس ببنت شفة وهي تتّجه بي نحو المنزل لنعود دون قسم كبير ممّا خطّطنا لشرائه قبل خروجنا..و هكذا وجدتني أخرج من عزلة العشق الكبرى إلى عزلة العشق الصغرى و بنفس القدر من الخيبة فها أنا ذي أجد فراغ رحيلي قد عبئ بينهم وكأنّني لم أكن قطّ موجودة!!

– – –

- نجمة ، نجمة !!

صباح اليوم التّالي ، استيقظت على صوت عمّي محمّد و أظنّه أوّل صباح مختلف قبل مدّة طويلة...

- إنّها العاشرة أيّتها الكسول ، هذا يوم مهمٌّ للعائلة و يجب أن نتشارك الفرحة معا .

كنت سأصرخ بأنّني لم أشعر منذ عودتي بالانتماء لهذه العائلة و لم يثنني عن ذلك إلا وجهه الطاعن في السّن والاحترام ، فقمت في صمت أنا التي أمقت أن يوقظني أحد باكرا أيام العطل.

- أتظنّين أنّك تفعلين الصّواب ؟

تجرّأت أخيرا على سؤال كوثر بينما تجهّز نفسها و أنا أتناول القهوة المتأخّرة وقت الغداء على سريرها و ليتني لم أفعل ، فهي بالكاد توقّفت عن مداعبة وجهها على المرآة لتغيظني بكبريائها و قدرتها على كبح أحاسيسها و مشاعرها.. الأمر الذي أصبحت أجيده أنا الأخرى و ربّما أكثر

منهـا.. جـاء صوتهـا بعدمـا عـدت لتنـاول فطـوري كأنّ شـيئا لم يكـن جازمـة أنّهـا لـن تعـير سـؤالي اهتمامـا :

- الموت دفعة واحدة أرحم من الموت كلّ يوم آلاف المرّات !!

ذكرتنـي جملتهـا بمقولـة سـيلفيا بـلاث " المـوت فـنٌّ ككلّ شيء آخـر و إنّي أتقنـه تمامـا " كوثـر لا تقـرأ و لا تكتـب و لا يسـتهويها أيّ فـنّ مـن الفنـون حتـى أنّهـا لا تسـمع الموسـيقى و لا تشـاهد الأفـلام العاطفيـة إلا نـادرا لكنّهـا يـوم عشـقت شـاركتهم ذات الإحسـاس بصمتهـا ، الإحسـاس ذلـك المنبـع الـذي يتفجّـر منـه كلّ فن..لكـن أتـراه الحـبّ سيسـمح لهـا أن تمـوت دفعـة واحـدة !!

- ما عيبه ؟

- لا يجيـد الحـبّ..لا يجيـد متـى يتقـدّم ولا متـى يتأخّـر..إن قلـت نعـم صمـت و كذلـك إن قلـت لا..يوافقنـي في كلّ أمـر ..حتـى عندمـا أخبرتـه منـذ أيـام أنّنـي عزمـت الـزّواج بغـيره ترهيبـا لـه كاد ينتحـب كـما النّسـوة وتعلّـل بعـدم وجـود مـا يتقـدّم بـه لخطبتـي فهـو لم يجـد في تخصّصـه بعـد عمـلا ..وبعـد أخـذ وردّ طويـل في الموضـوع كاد يقتلـع معـه قلبـي ..صمـت أيضـا.. واليـوم وقـد حسـمت أمـري يلحقنـي ..لمـاذا ! ومـن أجـل مـاذا !!

- على الأقل يحاول ..أليس هذا كافيا !!

التفتـت نحـوي ، دحجتنـي بنظـرة زائغـة كادت أن تدمـع عينهـا لكنّهـا تقـوّت ، ثـمّ قالـت :

- الحياة ليست تقمّصا للرّوايات كما تكتب أمّك !!

سـخرت بنصـف ضحكـة و أنـا أمضمـض مـا بقـي مـن القهـوة كلّـه عـلى كثرتـه

في فمّي ، ثم ابتلعته مرّة واحدة وابتلعت معه غضبي و قلت :

- معك حق فالرّوايات هي التي تتقمّص الحياة المبتغى عيشها نحن نكتب ما نأمل أن يكون بعد عجزنا على إيجاده في الواقع..و مع ذلك أؤمن أنا إيمانا قاطعا بما تقوله أمّي حتى لو لم يكن موجودا إلا في الخيال و ممّا قالته أنّ الحبّ لم يخلق للضّعفاء !!

- لكنّه يضعف الأقوياء ...ويصيب العقلاء بالجنون !!

- ليس لأن تترك حبيبة حبيبها للسّبب الذي تركته من أجله ، عذرا لكنّها قمّة الضّعف !!

لم أتحمّل ما قالته عن أمّي حتى و إن ألبسته ثوب العادية فقد علمت أنّه يدسُّ بين أسطره احتقارا وسخرية ، لذلك كان ردّي قاسيا فقد أردتها أن تخافني أكثر منه أن تصادقني وتحبنّي فلطالما شعرت أنّني في غنى عن أيّ نوع من المشاعر نحوها بعد الآن.

شعرت بتوتّرها و لم أرد أن يطول حديثنا فحملت كأس قهوتي و خرجت مباشرة .. غريبة أنا عن هذا البيت لا أحد فيه أسرّ له بما في صدري ، لم أبق لي صديقا ولا عزيزا و لا قريبا .. جلت في المنزل كمن يفتّش عن ضالة لا يعرفها و لا يعرف مكانها ، من المطبخ إلى الشّرفة إلى الحديقة ، كلّ منهمك بشغله و لا شغل لي إذ بالكاد قد انتبهوا لوجودي وصولاني وجولاني بينهم .. ولمّا لم أجد مكانا ألجأ إليه من العالم عدت إلى نفسي ..فوجدت العالم..

دلفت غرفتي و أغلقت الباب خلفي ، وقفت خلفه للحظات و انتظرت أن يترجم ضعفي كعادته على شكل شلال من الدّموع لكنّها أبت أن تنزل

هـذه المرّة..تفقـدت هاتفـي الـذي كان عـلى الطاولـة فألفيتـه خاليـا مقفـرا كصحـراء ، عـدت بذهنـي لأيـام كان عمـر يتّصـل بي فيمتلـئ هاتفـي باتّصالاتـه ورسـائله عـلى كلّ المواقـع ، عـدت بذهنـي لأيـام كنـت أمـرض في فرنسـا و تذكّـرت كيـف كان رغـم البعـد قريبـا ، قـال يومـا " بعيـدان نحـن لكـنّ سـماءنا واحـدة إن احتجتني ارفعـي عينيـك للسّـماء وحدّثيهـا بمـا يؤرقّـك ومـا تشـكينه و سـتنقل لي كلّ مـا تشـعرين بـه ! " ابتسـمت وقـد صـدر لابتسـامتي عـلى الحـزن صـوت أقـرب للضّحـك... وقبـل أن أقـول شـيئا ضحـك مازحـا " يـا إلهـي لا يفوتـك شيء ..تضحكـين لأنّـك اكتشـفت أنّـه اقتبـاس مـن قـول الرافعي..أليـس كذلـك ! "أنـا أحسـن الـكلام مـن السّـماء وأنـت تحسـن الفهـم عـن السّـماء..فحاجتي إليـك هـي أن تتكلّـم في روحـي وحاجتـك إليّ هـي أن أتكلّـم في قلبـك " عقبـت بالإيجـاب فضحكنـا معـا كأنّنـي لم أكـن حزينـة ..أمّـا اليـوم فهـا أنـا ذي عـلى القـرب منـه بعيـدة عنـه..

بعـد ذلـك الشّـعور العـارم بعـدم الانتـماء خرجـت مـن المنـزل دونمـا وجهـة ، غـير مكترثـة للمناسـبة التـي تقـام في بيتنـا ، وأنـا أسـير في الشّـارع عـلى أنغـام الموسـيقى هجـم عـلى ذهنـي مـا حـدث قبـل أيـام عندمـا صودفـت بعمـر في الشّـارع مـع تلـك الفتـاة فتذكّـرت جـبران حـين قـال بـأنّ موقفـا بسـيطا أحيانـا ، يجعلـك تقـف طويـلا لتعيـد ترتيـب حياتك..وكذلـك أنـا اليـوم أقـرر الوقـوف لترتيـب حيـاتي لكـن لا سـبيل تفاهـة الموقـف لأنّنـي أشـعر أنّ موقفـي عظيـم جـدّا فـلا أنفـك أكـرّر بداخـلي " عـلى عكـس المواقـف التّافهـة ، المواقـف العظيمـة لا تسـتدعي غـير الاستسـلام والارتخـاء !! " و هكـذا عقـدت عـزم العـودة لفرنسـا لمواصلـة دراسـتي..و بقمّـة الأحـلام و الكـذب و الصمـت

المريـر أصرخ بداخـلي و أقـرّر أن أسـامح كلّ الأخطـاء التـي ارتكبـت لشـدّة الحبّ..كلّهـا ! لأنّ الألم لابـد يمـرّ كـما تمـرّ الأشـجار الآن خـارج الحافلـة و مـا علينـا إلا أن نتماهـى مـع الآلام لأن نرتـاب أيّنـا الـذي يتخطّـى الآخـر ، تمامـا كـما نرتـاب في مـا إذا كان العـالم خـارج الحافلـة مـن يتجاوزنـا أم نحـن مـن يتجـاوزه !!

بوجـه غـير وجهـه المعهـود لمحتـه عنـد المحطّـة .. هـو الـذي أبـدا مـا كان يبعـث بداخـلي السّـكينة والطمأنينـة و يحتوينـي و يحمينـي كـما لـو كنـت ابنـة قلبـه ، فالطّفلـة الصّغـيرة بداخـلي لم تـرض يومـا بغـيره أبـا ، تتألّـم لغيابه، و تناديـه عـلى بعـده وقربـه ..هـو لم يكـن حبيبـا بقـدر مـا كان مـرآة أتبّصر بها دواخـلي و حتـى عنـد انفصامـي عـن ذاتي و عـدم ثقتـي بنفـسي كنـت أتوحّـد معـه و أثـق بروحـي التـي بروحـه وقـد منحتـه إيّاهـا كلّهـا دونمـا تجزيـئ !! أراه اليـوم محطّـما و هشـا ، عـصيَّ البـوح ، قليـل الابتسـام ، تنـزف ملامحـه الحـزن عـلى مكابرتـه..و كلّ هـذا بسـبب تلـك الطفلـة التـي أرادت أن لا تقتـل شـعورا أعظـم مـن الحـب مقابـل ذلـك الشّـعور الضئيـل المدعـو بالحـبّ!

مـا الحـبّ لـو كنـت لـك مـا يمكـن أن تكونـه لنفسـك دون أن أشـعر أنّي أبـوح لغـيري . كأنّـك أنّي ابتسـمتُ أم حزنـتُ ، شـكوتُ أم طمْأنـتُ .كأنّـك أنّي لا أرتبك إن تحدّثـتُ ولا أسـتنقصني إن صمـتُّ . مـا الحـبّ لـو كنّـا لبعضنـا كالأرض للسّـماء ،كلاهـما يعطـي ، كلاهـما يأخـذ ، هكـذا دون أن أضطـر لإخبـارك في نهايـة كلّ حديـث أنّنـي أحبّـك أو أسـألك في كلّ اتّصـال عـمّ إذا كنـت تحبّنـي !! مـا الحـبّ لـو لم تهـدني في كلّ لقـاء لمسـة أو قبلـة أو ضمّـة أو لم تهـدني في كلّ عيـد زهـرة أو هدية..مـا الحـبّ.. لـو لم يكـن كلّ هـذا !!

- ألم تلاحظ أنّنا في البعد أحلى !

قلت له وقد استبد بنا صمت رهيب...

- ليس و نحن على ما كنّا قبل أيام.. أقسم أنّني كنت مستعدا لدفع عمري كي أعيش مثله يوما .

أعترف أنّني لم أكره اللّغة العربيّة كما فعلت اليوم ، كرهت الفعل "كان " كذلك أخواتها ، قطعا أحببته سابقا لأنّه الوحيد الذي كان يملك قوّة جذب أمّي من الماضي إلى لحاضر ، أبنفس الطريقة يسلخني اليوم عن حاضر أكثر شخص أحببته ليلقي بي إلى ماضيه .. و بنقص !!

لم يتلفّظ بكلمة بعد تلك الجملة لكنّني أيقنت بعد عدم توازني الرّوحي أنّه كان يثرثر في صمته !! فنهرته :

- عمر..اسكت قليلا..وذرني أتأمّلك..أريد أن أستغرقك و أتماهى في ملامحك فأنا لا أثق بعطايا مثل هذه من المستقبل !!

كان بودّي إخبارها أنّني المستقبل كلّه و أنّني سأكون معها على القرب ، على البعد ، أنّني سأعود عمر القديم كلّما أرادت ، لكنّني تذكّرت وضعي فتبوّأت منزل الصّمت والخنوع و بقيت أقاوّم الحرب في عينيها ، قطعا لم أكن لأتحمّل الحزن الذي يغشاهما لذلك كنت أبتعد عنهما ببصري بعيدا منتظرا توقّفها عن تأمّلي فلا أنا أقوى على مبادلتها إيّاه ولا أنا بالقادر على منعها منه أنا الأحوج لها قربا منها .. فكم لذيذ طعم أن أشعر بها هي نجمتي البعيدة تذوب و تحترق بين يديَّ !

دارت بأناملها على ملامحي كضرير يتحسّس لوحة ، توقفتْ عند شفتيْ

، دنـت أكـثر ، حسـبتني سـأتذوّق طعـم النّجـوم لأوّل مـرّة عندمـا مالـت لتضـع رأسـها عنـد صـدري ، شـدّتني بقـوّة و كذلـك فعلـت ، أردت كسرهـا بـين أضلعـي ، أردت قتلهـا عـلى جريمـة تـركي وإغـلاق كلّ السّـبل في وجهـي قبـل أشـهر .. أردت أن تتحقّـق النّبـوءات و الأسـاطير فأحوّلهـا كـما هـي بـين يـديّ إلى نجمـة حقيقيّـة لتبقـى هنـاك معلّقـة في جـوّ السّـماء فـلا هـي تقابـل غـيري و لا هـي تبسـم لغـيري و لا هـي تحـبّ في الحيـاة غـيري !

شـعرت بهـا تحـاول الانسـلال مـن بـين ذراعـيّ فطوّقتهـا أكـثر و أطول..عندمـا سـمعتها تنـادي اسـمي كأنّهـا المـرّة الأخـيرة..

- عمر ..لا تخلّني !!

صمتّ كأخرق .. كجبان ..و طوّقتها أكثر !

صمـتّ أكـثر .. كذئـب ..كإنسـان لم أكنـه يومـا و لا أريـد أن أكونـه أبـدا.. وطوّقتهـا أكـثر !

- عمر..ستخنقني ههه !!

صمتّ أكثر ..كجندي مصلوب .. كحمل موبوء معزول ... وطوّقتها أكثر !

صمتّ أكثر ..كمن ينتظر الموت .. و يختار الانتحار..وطوقتها أكثر !!

- عمر ههه !!

صمتّ أكثر.. ارتخيت أكثر .. و..أفلتّها !!

لم أدخـل الجنـة ولكنّنـي مـن فـرط سـماعي أوصافهـا أظنّنـي اليـوم دخلتهـا.. ارتعشـنا كآدم و حـواء عنـد الخطيئـة الأولى ، شـعرت بهـا عاريـة أمامـي و شـعرت بي أكـثر عريّـا و لأوّل مـرّة أفهـم قولهـا ذات مـرّة " أحبّـك ضعيفـا " و كذلـك اليـوم أنـا أحببتنـي ضعيفـا ..أحببتنـي فيهـا .. أحببتنـي هي..لأنّهـا

نجمتـي و لأنّها..الأبديـة !!
أخـذتْ كفّـي.. وضعتهـا عـلى كفّهـا ، ظننـت للحظـة أنّهـا سـتقرأ طالعـي و تقـول كـما قارئـة الفنجـان:

لم أعرف أبدا يا ولدي أحزانا تشبه أحزانك
مقدورك أن تمشي أبدا في الحبّ ..على حدّ الخنجر
وتظلّ وحيدا كالأصداف وتظلّ حزينا كالصفصاف
مقدورك أن تمضي أبدا في بحر الحبّ بغير قلوع
وتحبّ ملايين المرّات وترجع كالملك المخلوع .

لكنّهـا رسـمت نجمـة بـرأس سـبابتها عـلى كفّـي ثـمّ طبعـت عليهـا قبلـة دافئـة بطـرف شـفتيها، نزلـت بيدهـا إلى حيـث قلبـي أو أعمـق عنـد روحـي و قالـت : " هكـذا سـأكون معـك دائمـا كـما الوشـم .. كلّـما أردتنـي أقـرب ارفـع كفّـك إلى قلبـك وسـأضيء عتمته..أنـا لـن أنطفـئ لكنّنـي سـأكون كـما قلـتَ دائمـا ..قريبـة ، بعيـدة" ثـمّ و في وسـط كلّ ذلـك الحلـول كلّ منّـا بالآخـر.. قامـت فراحـت..و بقيـت ..بقيـت أطـول !!

****

"إنّ في الحياة فترات انتقالية لا يمكن اجتيازها دون أن يموت شيء ما بداخلك "

شمس التّبريزي

بكت روحي و أبت عيناي أن تفعل ..كلّ شيء غدا واضحا .. أجاب القدر بحكمته على جميع الأسئلة العميقة و نسخ الزّمن كلّ الجراحات الماضية.. القلب اللّين كلّه أضحى جانبان.. نور و ظلمة بينهما برزخ لا يبغيان... لا أدري ما كان مصدر تلك الكلمات التي أصبحت تتفرّغ كالوحي في صدري و أنا في الطريق نحو المستقبل الذي اختاره الله لي واستسلمت أنا له بكلّ رضا ، طريق طويل معتم آخره نجمة تتوهّج قويّة ثمّ يخفت نورها لكنّها أبدا لا تنطفئ !!

قبل نهاية الطريق المعتم لاح لي بيتنا أو هكذا هيّئ لي فلم يبد منه إلا بابه..لا جدران و لا غرف.. فتحت الباب و دخلت لأجد طريقا ممهّدا إلى درج اتّضح لي من اتجاهه أنّه يقود لغرفة أمّي ، عندما وضعت قدمي على الدّرجة الثّانية منه اختفت الدرجة الأولى..انتابتني رعشة باردة من الخوف ، نظرت أسفل عند رجلي ثمّ فوق عند نهاية الدّرج حيث غرفة أمّي وبين خوفي من بداية الدّرج التي تختفي و من نهايته حيث أمّي غالبت خوفي بشوقي فتغلب عليه.

واصلت الصّعود دون أن أنظر خلفي مخافة أن يتغلّب الخوف على قلبي فيعيدني أدراجي..لكن و عند الوصول إلى آخر درجة استدرت لأجد أنّ الدّرج خلفي قد اختفى تماما و لاح لي الفضاء الواسع الفسيح كأنّما

ارتقيت إلى السّماء مليون درجة لا إلى الطابق الأوّل فقط حيث غرفة أمّي .. بدا الكون أسفل منّي بديعا حيث لون اللّيل المعتم و الأنوار المنبعثة من البيوت كأنّما السّماء تحوّلت تحتي !! و قطعا لم تشغلني روعة المشهد عن دخول الغرفة و رؤية أمّي فقد ذهب شوقي لها بشغاف روحي أنا التي لم أرها منذ ثلاث سنوات !!

أخذتني الشّكوك كلّ مأخذ قبل أن أفتح الباب ذلك أنّني شعرت بحاجز بين عقلي وقلبي فبينما يتيقّن الأوّل أنّ ما يحدث لا يمت للمنطق بصلة يجيبه الثّاني بنشوة لذيذة قلّما يحسّ بها عميقا كما الآن ، أحسستني في برزخ بين الواقع والحلم ، بين الخيال والحقيقة فخفت أن أدخل الغرفة و تختلط الأمور بعضها ببعض مجدّدا فأصير إلى ما صارت إليه أمّي وأنتهي إلى ما انتهت إليه..

وضعت سبابتي على الباب رغبة في طرقه و إيقانا منّي أنّها بالدّاخل وستأذن لي بالدّخول ، فزعت به وقد فتح جزء منه مجرد أن لامسته سبابتي ، أدخلت جزءا من رأسي على تخوّف لأتفقّد داخله فشرع على آخره وبزغ من الدّاخل نور ساطع بالكاد استطعت مقاومة توهّجه فرحت أحجبه بذراعي ..عندها سمعت صوتها ينبعث من الدّاخل ...رخيما وهادئا وصافيا :

- وأخيرا جئت ..لقد طال انتظاري لك !!

تعرّفت على نبرة الصّوت فأبعدت ذراعي في غير اكتراث لوهج النّور المعمي للأبصار الذي بالكاد مكنّني من رؤية أمّي..لكنّ ما فاجأني أكثر هو أنّ المكان كان دون شكل و دون أرضية فعجبت أنّي أمشي وأنّي أقف

الآن..أدركـت للتـوّ أنّ لـون النّـور كان ورديـا لا أبيضا..صوتهـا وهـي تعـاود الحديـث إليّ كان الـشّيء الوحيـد المطمـئن :

- اقتربي هيا ..

- لكنّني لا أتمكّن من رؤيتك أمّي ، النّور ساطع جدا..

كأنّي بصوتها السّاخر المستهزئ يجيبني..

- أمّـك !! صحيـح أنّنـي أكبرك بعمـر القضاء بخلقك لكنّني لسـت أمّك !!

لم أفهـم مـا قالتـه ولا السّـبب الـذي مـن أجلـه أخفـى الجميـع عنّـي أنّ أمّي ما تـزال عـلى قيـد الحيـاة و عـلى اسـتغرابي تذكّـرت أمـر الرّوايـة و كيـف أنّ أمّـي لم تكـن في حاجـة إلى اسـتخدام بصرهـا و هـي تلـج عالمهـا الدّاخـلي فأغمضـت عينـاي ثـمّ دنـوت لأصطـدم بحاجـز منعنـي التقـدّم فجـأة و أحسـب أنّنـي خطـوت مـا يفـوق مسـافة مـا بينـي و بينهـا ففتحـت عينـي لأجـد أمامـي مـرآة ضخمـة بطـولي و عـرضي و قـد ظهـرت عليهـا صـورتي واضحـة أرخـم صوتـا و ألمـع نظـرة و أصفـى لونـا و أطهـر روحـا أو هكـذا هيّـئ لي !!

- .. إذن !

عـدت للخلـف و قـد تمنيـت أن يكـون هـذا حلـما و يوقظنـي منـه أحـد قبـل أن يذهـب بعقـلي لكـنّ قلبـي كان يحثّنـي كـما دائمـا عـلى التّقـدم .. انبعـث الصّـوت تلـك المـرّة مـن داخـلي وتكـرّر صـداه في دماغـي ..أجـل !! لقـد انبعث منّـي !!.. أنـا نفـسي !! ..واصـل الصـوت لمـا رأى منّـي خوفـا :

- أتخشين أحلامك !

عنـد هـذه الجملـة اتّضـح كلّ شيء في دماغـي فابتسـمت و أومـأت لصـورتي عـلى المـرآة و قـد عـدت فاسـتقمت أمامهـا أن لا .. و عندهـا شـعرت بحركـة

أعـلى كتفـي ..وكأنّي بقـوّة عظيمـة تبغـي تمزيـق جسـدي في تلـك المنطقـة أعـلى ظهـري مـن عمـودي الفقـري تمامـا واصلـت كلامهـا بينـما يـزداد الألم حـدّة :

- يولـد النّجـوم مـن رحـم الأحـلام و لـكلّ الأحـلام صغيرهـا و كبيرهـا ضريبـة مـن الألم!

بينـما كانـت تتكلّـم كنـت أتحسّـس أعـلى ظهـري عـلى المـرآة و كأنّمـا بـرز عليـه بعـض الزّغـب..

- الحلـم فكـرة و الأفـكار نسـبية كـما تعلمـين .. أنـا أنـت كـما تريديـن نفسـك لا كـما يريـدك الآخـرون..

- لم أفهم !

قلتهـا و أنـا أتلـوى مـن الألم فقـد بـدأ الزّغـب يتحـوّل إلى ريـش وردي قصـير وقـد تشـكل جناحـين !

- الأحـلام ..تختـار أصحابهـا و تصطفيهـم كـما الوحـي و لا تـزول إلا بموتهـم ..و أنـا حلمـك ! قـد أكـون أمّـك هنـا ، أختـك في قصّـة أخـرى.. أبـا و أخـا و ربّمـا حيوانـا أو شـيئا .. لكنّنـي في الواقـع لـن أكـون غـيرك! قـد تصرفـين عنّـي بالواقـع .. قـد تشـغلك الحياة..قـد تنطفـئ العزيمـة في داخلك..لكنّنـي لـن أرحـل عنك..سـأنتظرك و سـأكون معـك دائمـا !

كان الجناحـين قـد اكتمـلا عندمـا لفـظ الصّـوت جملتـه الأخـيرة " لكنّنـي في الواقـع لـن أكـون غيرك..سـأنتظرك و سـأكون معـك دائمـا !! "..أحببتنـي بجناحـين ورديـين ، حركتهـما يمنـة ويـسرة بزهـو أمـام المرآة..تمامـا كـما تخيّلتهـما وتمنيتهـما في صغـري ورديـين براقـين و عظيمـين موصـولان بظهـري

و ممتـدان بجذورهـما إلى أعـماق روحـي.. وأنـا أنظـر إليهـما و أكـرّر مراحـل ظهورهـما تذكّـرت فيلـم " البجعـة السّـوداء " و كيـف أنّ بطلتـه التـي كانـت تطمـح للكـمال الـذي حصلـت عليـه في الأخـير مقابـل حياتهـا قـد ظهـر لهـا جناحـين أحدهـما أبيـض عنـد رقصهـا في دور البجعـة الطيبـة و الآخـر أسـود في در البجعـة الشّريرة..كذلـك بنفـس المراحـل خـرج جناحـاي !! ..كنـت قـد شـاهدت الفيلـم منـذ أيـام مـا زاد يقينـي بـأنّ مـا يحصـل معـي مـن آثـاره ..و أنّنـي لابـدّ في حلـم ومـا عـليّ إلا أن أنتظـر أن يـضرب أحدهـم عـلى كتفـي ليوقظنـي مؤكّـدا ذلـك ..

فجـأة كـسرت المـرآة و سـطع النّـور مجـدّدا فغـشي بـصري مـرّة أخـرى.. أغمضـت عينـيَّ بثقـة هـذه المرّة..ثقـة لم تكـن لـديّ مـن قبـل أبـدا أنـا التـي لطالمـا خشـيت كـوني فتـاة برزخيـة ، وسـعيت دائمـا للاختيـار بـين الواقـع و الخيـال لحـد أن أمرضنـي الموضـوع ، تقبلـت هـذه المـرّة أنّنـي قـد اصطفيـت مـن عبـاد اللـه لحمـل حلـم الكتابـة كـما اصطفـيَ آخـرون لحمـل أحـلام أخـرى ..اليـوم رضيـت دونمـا تـردّد أن أعيـش بـين الواقـع و الخيـال وقـررت أن أضـع كلّ شيء في مكانـه الـذي يسـتحقه ولا أجعـل رغبـة تبغـي عـلى رغبـة و لا شـعورا يطغـى عـلى شـعور ..

مـا أزال أسـير الآن..و كأنّي عـلى هـذا الطريـق أطـير لا أسـير.. زاد التوهّـج فأعـماني حتـى وأنـا مغمضـة عينـاي ومطبقـة عليهـما بقـوّة!! و مـع كلّ ذلـك و في هـذه النّقطـة مـن النّـور السّـاطع لاحـت نجمـة صغـيرة كأنّهـا مركـز النّـور ومنبعـه ، التقطتهـا كمـن يقطـف فاكهـة أتمـت نضجهـا و خلّفـت مكانها فارغا..وضعتهـا عـلى راحـة كفّـي اليمنـى وشـددت عليهـا باليسرى..ضممتهـا

بقـوّة و حاولـت القبـض عـلى ذلـك النّـور القـوي..ولأنّ الشّـعور كان خارقـا ومثـيرا لنشـوة لا مثيـل لها..روادتنـي رغبـة فتـح عينـاي لأراهـا حقيقـة !! و عندمـا فعلـت لم أر شـيئا إذ بالـكاد اسـتطعت فتحهـما و قـد أغبـش كلّ شيء مـن عمـش السّـهر المتواصـل لأيام..لكنّنـي سـمعت بوضـوح صـوت أختـي وهـي تنـادي عـليّ ..تثاءبـت وأنـا أفتحهـما عـلى الواقـع بعـد انغماسـها في الأحـلام كـما توقعـت في حلمـي اللّذيـذ !! و بالـكاد اسـتطعت إقامـة ظهـري لفـرط الألم مـن النّـوم جالسـة أمـام المكتب..تحسسـت أعـلى ظهـري ثـمّ ضربـت عليـه لينقـص الألم أو يسـتقيم وأنـا أبتسـم بخبث..وخيبـة مـن لم يجـد جناحـاه الورديـان الجميـلان !!

تفـــــــت

خاتـــــــمة المؤلّف

أرأيـت عزيـزي القـارئ ، ليـس عـلى النّهايـات أن ترتبـط دائمـا بالغـير ، فبعـض النّهايـات بحاجـة لنـا أكـثر ، لثقتنـا بأنفسـنا ، بحاجـة لأن ترفـع فيهـا ذواتنـا رايـة النّـصر فمصيرنـا ليـس مربوطـا ببقـاء الأشـخاص أو رحيلهم..لذلـك أتـرك بـاب قلبـك مشرعـا ليفهـم كلّ مـن فيـه أو هـو خارجـه ، أنّـه مرحـبٌ بـه متـى أراد دخولـه و لـن يمنعـه شيء الخـروج ..حتـى الألم!!

عليـك دائمـا أن تؤمـن أنّ بعـض الأشـياء يجـب أن تمـوت لتولد و تعيـش أخرى، لا بعـض الأشـخاص الذيـن يسـكنونا وإنمـا بقايانـا المترسّـبة بعـد رحيلهـم ، شـعورنا المتبـادل معهـم ، ذكرياتنـا وإيّاهـم ..تخلّـص منهـا أو تجاهلهـا وعـش حياتـك فدواخلنـا بحاجـة لتنظيـف و تحديـث هـي الأخـرى ، وإن لسـت آليـا ومخلوقـا بقـدرات جبّـارة فأنـت لسـت نبيّـا و بالـكاد سـتتحمّل حملهـا في صـدرك والرّبـض عليهـا كـما يربـض الدّجـاج عـلى بيضـه..

قم .. قدّم نفسك ..اجعلها أوّل كلّ شيء..لكن بحبّ !!

- أختي ...أختي !!

إنّهـا أختـي ، أسـمعها جيّـدا و هـي تنـادي عـليّ ثـم تهمـس لأمّـي " تعبـت مـن محاولـة إيقاظهـا ، لي ربـع سـاعة و أنـا أذهـب و أجـيء وهـي تتمطّـط و تعـود مواصلـة أحلامهـا وكأنّهـا لا صـوتي سـمعت ولا عيناهـا فتحـت، أخبرتـك ألـف مـرّة أنّهـا لـن ترافقنـا.. كعادتهـا طبعا..مـرّت قرابـة الأربـع سـنوات و هـي منطويـة و منعزلـة عـلى نفسـها و لازلـت لا أدري مـن أيـن تأتـين بإيمانـك في تغيّرهـا!!"

أبتسم في مكر وحزن ، خاصّة وأنا أسمع جواب أمّي الآمل كما أبدا " عاودي إيقاظها ربّما تغيّر رأيها هذه المرّة "

بالمناسبة سيقام اليوم حفل حناء ابنة عمّي..و الكلّ متحمّس ..حتّى أنا !!..

لا أعلم إذا كنت – و أنا أغمزك عزيزي القارئ- تفهم أنّنا عدنا إلى البداية .

- أختي ..أختي !!
- قادمة !!

أغلقت دفتر يومياتي و الرّواية التي ختمت فصولها صباح اليوم أتأمّل مقعدي فسريري فحياتي فأيامي فأفكاري فأحلامي ، فأحزن ثمّ أبكي ثمّ أبتسم..أفتح حسابي على الفايسبوك كأنّني لم أفتحه قبل سنوات تطالعني المنشورات ، افتح صندوق الرّسائل أجد رسالة من صديقتي كوثر " سأرسل لك صور حفل زفافي لاحقا..الآن منشغلة ..أحبّك " أبتسم فرحا بزواجها و أتخيّل خطيبها المخذول وهو يهيم على وجهه في الشّوارع فلا ادري أأحزن له أم أفرح لها أم أحزن لهما معا..

أسفل منها رسالة من صديقي نضال :" كيف حالك ؟" أردّ عليها و أنزل إلى التي تليها تلوح لي رسالة من عائشة وقد أرسلت لي صورة لابنتها الثّانية أعلى منها قليلا صورة ابنتها الأولى التي سرقت اسمها من إحدى كتباتي أبتسم و أنا أردُّ على جميع الرّسائل التي تليها من أشخاص افتقدوني فتفقدوني..وأنزل ..أنزل لأقدم الرسائل فلا أجد رسالة من عمر..

أغلق نافذة الفايسبوك على الجوجل و أفتح بدلا منه نوافذ أخرى لأتفقّد ما فيها ، لأجدّ آخر الأفلام التي شاهدتها ومنها " البجعة السّوداء " فيكرّر صوت بداخلي " كان لابدّ أن تري حلما مروّعا مثل ذلك بعد كلّ هذه الفوضى !!

أقوم نحو خزانتي فيؤلم قلبي منظرها الفارغ إلا من بعض الثّياب التي بالكاد تليق لتدثّر في البيت ، أغمغم بخيبة وبصوت مرتفع " لكنّني لا أملك فستانا مناسبا للحفل !" ثم أضيف في نفسي عندما لا يجيبني أحد " من ألوم أنا التي لم أهتم بكلّ هذا يوما "..تذكّرت فستاني الأسود !فستان أختي الأبيض ! لم يرقني أيّ منهما فقرّرت أخيرا أن أجهّز نفسي للتّسوق..

- رشاد..ما رأيك بالتسوّق..أرغب باقتناء فستان جديد.

كانتا في المطبخ ، أختي تشطف الأرضية و أمّي تحرّك الطعام على القدر تبادلتا نظرات ذات مغزى ما لبثت أمّي تخفيها على ظهورها بابتسامة لطيفة بينما ردّت أختي في تهكّم واضح وقد ضاق صدرها ذرعا بي " لم لا !! " ثمّ واصلت بقيّة حديثها في الرّواق وهي تتّجه نحو غرفتها " لنرى كيف ستكون نهاية هذا اليوم معك !!" و على نبرة الملل التّي يحملها ظاهر صوتها أشعر بتراقص الهواء فرحا في باطنه ! كأصحاب أهل الكهف و قد خرجوا من كهفهم أحسستني أرى النّاس و الحياة والنّور و الألوان لأوّل مرّة. تجوّلنا كثيرا و بالكاد راقني فستان، بدأت أختي بالتّأفف و هي تكرّر نفس قيلها دائما ، من أنّ هذا كان واضحا منذ البداية وأنّ فكرة التّسوق المباغتة لم تكن إلا لتضييع الوقت..و حقّا حتى أنا ظننت ذلك في داخلي لولا أنّ مخيّلتي محتفظة مسبقا بنوع محدّد من الفساتين .

- أمتأكّدة أنّنا نبحث عن فستان !؟

- هاه !

- إيييه..ألا تلاحظين أنّك تقودينني إلى أماكن لا علاقة لها بمحلات الفساتين ، طريق المسجد ، الطريق العام ، المتجر الكبير .. بالله عليك !!هذه الطرق لا تصلح إلا للتّسول !!

أنا لا أعلم إذا ما كانت أختي قد أحاطت بشيء من الغيب لكنّني و تماما كما كانت تعتقد أبحث ببصري عن رجل متسوّل !! كنت قد رايته مرارا يتقرفص عند هذه الأماكن و قد كلمته أكثر من مرّة ..كنّا سنعود للبيت بخفي حنين و غضبها الشّديد عندما قاطعت إحدى نوبات توبيخها .

- ما رأيك بذلك الفستان ؟
- ..الوردي !!
- هممممم !!

من نظرتها و هي تتحول مني إليه ومنه إليّ فهمت أنّه لم يرقها و انتظرت أن تسخر من ذوقي لكنّها علقّت معجبة وقد بدا ذلك من عينيها اللّتين زادتا اتّساعا وبريقا:

- جميل و فاخر ..لكنّه ليس على ذوقك .. فأبدا ما كان ذوقك بسيطا و ميّالا للألوان الميّتة لا الحيّ منها !!

"ذلك قديما " كررت في نفسي وأنا أسير نحو المحل" علينا أن نتصالح مع السّواد قليلا !!"

خطرت عيناك على عقلي

لا أحد يعلم كيف دخلت هذا العالم .. فجأة !!

و لا كيف أصبحت من أجلك شخصا غير مرئي !!

ظننت أنّك ستظهر في السّواد على بياضك أقوى !!

تمسّكت بك ..فأوجعتني

أخفيتني عنّي و عن العالم !

و الآن ...

تخطر عيناك على عقلي ،

وقد ،

خرجت من ذلك العالم رغبة.

لأظهرني ..و أحرّرني .

لا للعالم ..بل" لي "..." أنا" !

تمـــّـــت في 11/02/2019